سر تقدم الانكليز السكسونيين

تأليف

ادمون ديمولان

ترجمه من اللغة الفرنساوية

احمد فتحي زغلول باشا

وكيل نظارة الحقانية

طبع على نفقة السيد عبد الرحمن البرقوقي

صاحب مجلة البيان ومكتبتها

١٣٢٩

طبع بمطبعة الجمالية - بمصر



الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الامين وعلى آله وأصحابه والتابعين

ظهر بفرنسا فى شهر اقريل سنة ١٨٩٧ ميلادية كتاب ألفه موسيو ادمون ديمولان وسماه سر تقدم الانكليز السكسونيين بحث فيه بحثاً دقيقاً عن أحوال الامة الفرنساوية وقارن بين التربية فيها وفى المانيا وبينها فى انكلتره واستدل على ضعف أمته بفساد التربية فيها واستشهد على فضل الامم الانكليزية السكسونية بتربيتهم ونشأتهم وما ألفوه من العادات والاخلاق وغرضه من بيانه هذا حث الامة الفرنساوية على العدول عن تقاليدها فى التربية والتعليم وادخال الاصلاح فى المدارس حتى تؤدى الغرض المقصود منها وهو تخريج رجال قادرين على العمل الصحيح غير معتمدين الا على أنفسهم ولا يطلبون سعادتهم الا من كدهم واجتهادهم

والمؤلف رجل ظل السنين الطوال في عزلة لا يكاد يشعر به أحد من قومه وأنشأ مجلة شهرية سماها (العلم الاجتماعى) مضى عليها الى يوم نشر الكتاب اثنتا عشرة سنة ولم يكن لها من الشهرة اكثر مما لغيرها من المجلات العلمية ولكنه كان فى عزلته يركب الصعاب في البحث عن أحوال أمته ويطيل

النظر فى أسباب تأخرها عن الامم الانكليزية السكسونية ويجمع مواد
كتابه من كل شاردة يعز نوالها ويسعى وراء الادلة التى يؤيد بها رأيه من
النظر في الحوادث ونتائجها والعادات وآثارها والاخلاق وما يترتب عليها

وقسم كتابه الى ثلاثة أبواب بحث فى الباب الاول منها عن نظام
المدارس عند أمته والامتين الاخيرتين وأعرب عن نتائج ذلك النظام فى كل
أمة منها . وقارن فى الثاني بين الفرنساوى والانكليزى السكسونى فى معيشتهما
الخصوصية فتكلم عن المسكن والملبس والصنائع والحرف والزواج والمواليد
والوفيات وتأثير ذلك كله فى الامة من حيث الثروة العمومية والزراعة
والصناعة والتجارة . وخصص الباب الثالث للكلام عليهما في حياتهما العمومية
فقارن بين أهل السياسة فى البلدين وفرق بين مجلسى النواب فيهما وأفاض
في بيان مزايا الحرف المستقلة والصنائع الفنية كما أطال فى ذكر مضار أهل
الحرف الادبية كالاطباء والمحامين ووكلاء الدعاوى والموثقين وأهل الصحافة
وأرباب الجرائد اذا كان الصوت صوتهم فى سياسة الامة وأجهز على مذهب
الاشتراكيين بساطع البرهان وأقوى الحجج وفند أقوال أصحابه تفنيداً يخضع
له المكابرون وخاض فى الكلام على معنى الوطن والوطنية فردهما الى معناهما
الصحيح بعد أن بين المعانى الفاسدة التي أخطأ غلاة الوطنية فى فهمها من
هاتين الكلمتين ودل على الفرق الموجود بين أمته وبين الامم الانجليزية
السكسونية فى ادراك معنى التكافل والتعاون من بعض الافراد لبعضهم
وأرشد الى أحسن أحوال الاجتماع لتحصيل السعادة فى هذه الدار وهذا
الفصل الاخير كله حكم بليغة ودرر ثمينة وختم الكتاب بالكلام على الدين

وتأثيره فى النفوس وفعله فى سعادة الامم بصلاحه وشقائها بفساده وتخلص الى ذكر الحوادث الجديدة التى أخذت تبدو فى الامة الفرنساوية مما يدل على انها سائرة نحو التقدم شاخصة الى التحول من حالة سيئة الى حالة راضية

ويمر القارئ على الكتاب من أوله الى آخره فلا يجد فيه دليلا خطابيا أو حجة غير معترف بها لأن المؤلف أردف كل قول بدليله المنتزع من الحوادث الصادقة والمشاهدات الصحيحة مما لا يدع مجالا للشك أو محلا للاعتراض

فلما فرغ من تأليفه ورمى به بين القراء من قومه كان كشعلة من النار أصابت وقودا جافا فالتهمته لساعتها وسرى لهيبها فى جميع الاندية والبلدان غير ان الناس لم يشتغلوا باطفائها بل كان كل يذكيها و يصليها لأنها نار هدى وسلام

وحقيقة مانشر الكتاب حتى اشتهر وعظم شأنه وتهافت الناس على تلاوته وأقبل الجموع على مطالعته وقامت له قيامة المدرسين واشتغل بالبحث فى أبوابه كبراء الكتاب والمدققين وتلقفته الجرائد فشرحته وذيلته وقرظته وانهالت على صاحبه المراسلات تترى من كل ناحية يسأله أصحابها أين المدارس التى يشير اليها والسبيل الى تربية أبنائهم على غير تربية آبائهم ولم يمض الا القليل من الايام حتى ترجم الكتاب الى لغات عديدة فقرأه الانكليز والالمانيون والاسبانيون والبولونيون وهانحن اليوم نزفه الى قراء العربية يتهادى فى أحاسن معانيه ورفيع مبانيه

هذا كتاب لم يترك منقصة فى تربية الامة الفرنساوية الا أذاعها ولا خلقا سيئا أو عادة سافلة الا ندد بها لذلك اشتد وقعه فى قلوبهم وضربوا

بايديهم على جيوبهم ولكنهم مع ذلك لم يلوموا المؤلف بل عظموه ولم يعنفوه بل احترموه وعرفوا انه مخلص يحب أمته ويطلب لها النفع والفخار فما منهم الا من أكرم مثوى الكتاب ورأى فيه تذكرة لاولى الالباب وأجلس صاحبه حيث يجلس الحكماء وأحله حيث تحل العظماء وسألوه ان يكون قائد حركة التعليم والهدي بهم الى الطريق المستقيم فجاءه أرباب الغنى واليسار يقدمون له الاموال ويمدونه بالنفس والنفيس وامتاز من بينهم ثلاثة عشر رجلا من سراة القوم عقدوا معه شركة واشتروا على مسافة ساعتين من مدينة باريس قصراً مشيداً وحديقة أنيقة وأرضاً فسيحة تبلغ الاربعة والعشرين فدانا واستخدموا المهندسين وأرباب الصنائع والحرف فى أعداد القصر مدرسة والبستان ميدان تمرين والغيط موضعا للتجارب والاختبار فقام كل واحد بما عهد اليه وأعلن عن افتتاح المدرسة فى شهر اكتوبر سنة ١٨٩٩ للطالبين

وألف مسيو ديمولان كتاباً آخر سماه (التربية الجديدة) ظهر فى السنة الماضية ذكر فيه ما كان من أمر كتابه الذى نقدمه للقراء وضمنه نظام المدرسة الجديدة وبين الفرق بين التعليم الذى يقصده وبين التعليم الذي يجرى عليه قومه وجاء فيه على ذكر بعض الرسائل التي كتبت اليه من جميع الطبقات وكل الجهات وأهداه الى صديقه موسيو (جول لومتر) عالم من أرباب الافهام وكاتب نابغة بين أهل الاقلام قدر كتاب سر تقدم الانكليز حق قدره وساعد كثيرا بخطبه وقلمه على اذاعته ونشره

ولاجل أن يعلم القراء ما كان للكتاب من التأثير نلخص بعض شذرات

مما نشرته الجرائد وبعض الرسائل التى كتبت الى المؤلف

قال موسيو (جورج رودوناخ) فى جريدة (باترو يوت دى بروكسيل) (ظهر كتاب فى فرنسا عظم اشتهاره وكان له تأثير كبير فى تلك البلاد عنوانه سر تقدم الانكليز السكسونيين ومؤلفه موسيو ادمون ديمولان وقد اشتهر هذا المؤلف بكتابه دفعة واحدة فانا عرفناه منذ زمان مكبا على العمل بصبر وسكون وحضرنا مجلسه عند (لا بلى) موءسس العلم الاجتماعى وكان أكبر تلامذته وهو الذى كان يحيي مجلسه بأحاديثه ويفيد الحاضرين بمعارفه وينسيهم الوقت بما يحكى من الحوادث وما يشرح من الحقائق فلما رحل استاذه عن هذه الدار انزوى هذا الرجل ونسيه أكثر العارفين بهِ وصار اسمه لا يرد على الألسنة الاضمن الحديث حتى اننا كنا نتساءل عنهُ ونقول لعل ديمولان لم يك من الناجحين مع ماظهر منه أولا من غزارة المادة وعظيم العرفان . وبينما الناس يتناسونه واذا بهِ قد ظهر ظهور القمر فى الليلة الظلماء بكتابه سرّ تقدم الانكليز السكسونيين الكتاب الذى امتحن فيه المؤلف وجدان الامة الفرنساوية فجاء يبرهن على ان زمان السكر بالزهو قد انقضى وقام العلماء والكتاب يدلون على مواقع الضعف ويشعرون الأمة بما أصبحت فى حاجة اليه ولم يأت مسيو ديمولان فى مقابلته بين الفرنساويين وبين الانكليز السكسونيين الا بالوقائع الثابتة والمشاهدات الصحيحة واختار المقابلة بين الماديات فليس كتابه كتاب مذهب يريد نشره ولكن كتاب افكار تؤيدها الحوادث والمشاهدات فالارقام فيه ناطقة بلسان فصيح والاحصاء ينتج النتيجة من نفسه ويدل على الاصلاح الذى ينبغى) اه

وقال موسيو (درومون) فى جريدة (ليبر بارول)

« كثيرا ماسألنى بعض الشبان أى كتاب يقرأون وانى أجيبهم الآن عليكم بكتاب من الكتب الرئيسية اختبر فيه مؤلفه حالة الأمة اختبارا دقيقا اقرأوا كتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين فقد بحث فيه موسيو ادمون ديمولان عن مزاج الأمة الانكليزية وبين أسباب انتشارها العجيب فى الدنيا ودل على علة سيادتها بين الأمم تلك الأمة القوية القادرة التى تلجئ أكبر مبغضيها الى الاعجاب بها والاعتراف بفضلها) اهـ

وقال موسيو (ديلاهى) فى تلك الجريدة أيضا

« انى فرغت من قراءة كتاب موسيو ديمولان ووعدت نفسى بقراءته مرة ثانية لانه جمع شيئا كثيرا ولكنى لاأنتظر تلك الفرصة لانشر ماوجدته فيه من المادة الغزيرة والعلم الكثير وليس لنا نحن أصحاب الجرائد من الخدم الا أن نقرأ كتابا يكون مؤلفه قد أعمل الفكرة فى فصوله قبل ان يكتبها وهو نادر فى هذه الأيام ثم ننشره بين الناس

« يوجد فى احدى زوايا باريس أربعة شبان أو خمسة لا تفتر لهم همة عن البحث والتنقيب ولا يعرفون الملل من العمل مهما كان شاقا قد أفادوا وحدهم فى العشر سنين الأخيرة أكثر مما أفاد ذلك القطيع الذى يتألف من أعضاء مجلس النواب ومجلس الأعيان ولهم مجلة شهرية لا يعرفها ولا بالاسم الا القليل النادر من ذلك القطيع مع انها كنز أعظم فائدة من مجموعات تلك المجالس التى غصت بمذاكرتها وخطبها تحت حكم الجمهورية الثالثة » الى ان

قال « ان كان فى ديمولان شئ يوجب الاعجاب فهو حسن مقصده وسلامة ذوقه رجل ما قصد الا استخلاص الحقيقة مما غشيها من الالفاظ والجمل والأوهام التى اعتاد الناس عليها وقد توصل بحسن أسلوبه الى احياء حقائق كانت نسيا منسيا . ملأ كتابه علما وأسنده الى الوقائع الصحيحة وأعمل الفكرة قبل ان يكتب وكل الناس معترف بأنه مصيب فى تخلصه الى السؤال عن سبب سقوط فرنسا وجوابه بأنه سوء التربية . وليست المسئلة الاجتماعية الا مسئلة التربية فكما تكون الآباء تكون الأبناء وكما تكون الأبناء تكون الرجال وكما تكون الرجال تكون الأمة وموسيو ديمولان لاينكر هذه الحقيقة ولكنه أراد الدلالة عليها ببيان معنى التربية الاجتماعية الصحيحة وقد دل بمقارنته بين الأمتين الفرنساوية والانكليزية السكسونية فى التربية والمعيشة البيتية وقوة الانتشار والمعيشة العمومية والسياسة على ان من البديهيات ماينساه الناس ويجهلونه جهلا كليا

« وأجمل فصل فى الكتاب على ما أرى هو الذى عقده لبيان أحسن الحالات لنوال السعادة وهو الذى يحلو لى النقل عنه » ثم أخذ الكاتب ينقل عن ذلك الفصل ماحوى من الحكم

ولما انتشرت هاتان الجملتان فى تلك الجريدة تهافت قراؤها على مطالعة الكتاب ونقلت جرائد الارياف ما كتب الفاضلان وعلقت عليه من الشروح والأقوال مالا يحصى وكلها تمجد الكتاب وتعظم الذى أهداه

وقالت جريدة (لاريبوبليك فرانسيز).

« جاء كتاب ذلك المؤلف العظيم الشان بمسئلة شغلت الافكار فى

هذه الأيام ألا وهى السر فى انتشار الامة الانكليزية السكسونية ذلك الانتشار العجيب . ولقد كان الناس يشعرون بوجود تلك الافضلية الا أن موسيو ديمولان أتى لها بالبراهين العقلية والحجج العلمية) اه

وكتبت جريدة (الكوكارد) مقالة طويلة ختمتها بقولها « ينبغى لصادق الوطنية أن يطيلوا النظر فى هذا الكتاب وأن يشكروا موسيو ديمولان على هديته» اه

وقالت جريدة (لوبتى باريزيان) بعد الفراغ من الكلام على فصل التربية « تلك افكار حقة صحيحة يجب الالتفات اليها بالنظر الى حالتنا الحاضرة »

وقالت جريدة (لوپوپل فرانسيه) «ذلك كتاب يثير الخاطر وان كان كله جدًّا وهو لذيذ وان كان قاسيًا» اه

ونشر موسيو (باربيزيو) جملا فى يوم واحد فى جرائد (لا پيه) و (لوپيي) و (سوفرنتيه ناسيونال) و (لوليبيرال) و (لوكونستيتسيونيل) و (ليتندار) اجمعت على مدح المؤلف ووصف الكتاب بانه « مفيد مؤيد بالشواهد ربما حملنا على التحلى باخلاق الامة الانكليزية السكسونية» اه

ونشر موسيو (لوسيان ديكاف) مقالة طنانة فى جريدة (ايكو دى پارى) منها «هذا كتاب شديد الوقع لولا ان قراءته واجبة على كل رب عائلة وكل مشتغل بالتربية والتعليم» ثم ختمها بقوله «ان كتابا حوى تلك المسائل كلها لجدير بالاذاعة والاشتهار فكلنا فى حاجة الى معرفة سر تقدم الانكليز السكسونيين والاصدق فينا قول (برودون) « أوروبا حبلى بثورة اجتماعية ولكننى أخشى أن تموت قبل أن تضع حملها » اه

وقال موسيو « فرنسيسك سارسى » فى تلك الجريدة مختتما كلامه على الفصل المتعلق بالمقارنة بين تشكيل مجلس النواب الفرنساوى ومجلس النواب الانكليزى ما نصه « ذلك الكتاب مفيد جدا لما حواه من الافكار الجديدة والتى وضعت فى قالب جديد وللناس فائدة كبرى فى معرفة ما اشتمل عليه من الحقائق فان المؤلف عالم حكيم » اهـ

وبعد أيام عاد الكاتب المشار اليه الى الكلام على ذلك الكتاب فى جريدة (رابيل) وبدأ مقالته بهذه الجملة « لقد هاج كتاب موسيو ديمولان عامل الهوس فى نفسى وقد تكلمت عليه قبلا ولا بد من العود اليه لاننى لا أعرف كتابا أحسن منه فى الغرض المقصود لمؤلفه » اهـ

ولم يكتب أحد كلمة ضد الكتاب الا واحدا من النواب ومع ذلك فانه اعترف بافضلية الانكليز السكسونيين والالمانيين وعلل ذلك بشدة الاقدام وكبر الهمة ولعله من أولئك الثلاثة والاربعين نائبا الذين قال فيهم موسيو ديمولان انه لم يجد لهم طائفة أو حرفة يلحقهم بها [1]

ولم يمض الشهر الثانى على نشر الكتاب الا وقد طبق صيته الخافقين وتناولته الايدى فى المشرقين وكتبت عنه الجرائد الالمانية والتليانية والانكليزية والامريكية وغيرها بلهجة تمجد الكاتب وتمدح الكتاب

ولما نشر موسيو ديمولان كتابه الثانى (التربية الجديدة) صدره بكثير من الرسائل التى وردت عليه أثر انتشار كتابه الاول ومن الفائدة ان نقتطف البعض منها

---

(١) راجع جدول تشكيل مجلس النواب فى فرنسا

كتب اليه صاحب معمل صناعى فى مديرية (سين ايواز)

«أنا رجل من أهل الصناعة وقد انتهزت فرصة السفر فطالعت كتابكم ولا حاجة بى أن أذكر لكم مقدار استفادتى منه الا انه التى الحيرة فى أمرى من جهة ابنى صانع ووالد ابنين فى العاشرة والحادية عشرة من عمرهما وانا أكتب اليكم هـذا الخطاب تحت تأثير الاعجاب بالفصل المتعلق بنظام التربية فى المدارس الانكليزية . أتوجد مدارس فى فرنسا على هذا النحو قد جمعت العلم والعمل والرياضة والمعيشة البيتية حتى أسارع الى وضع ابنىّ فيها الى أن يشتدا فأرسلهما الى احدى المدارس الانكليزية) اه

وكتب اليه صاحب معمل فى (هيرولت)

« لما طالعت كتابكم عقدت العزيمة على ارسال ابنى الى احدى المدارس التى وصفتموها وهو الآن في الثانيـة عشرة وقد سافرت لاشاهد مدرسة (بيدال) بنفسى فأعجبنى نظام التعليم فيهـا وكان ذلك من مؤكدات رغبتي فى ارسال ابنى الى انكلتره . نعم سيكون الامر صعبا علينا و بالاخص على والدته لاننا نسكن فى جنوب فرنسا ولا يتيسر لنا أن نراه الا فى المسامحات الكبيرة غير ان تربيته أعز وأبقى » اه

وكتبت اليه سيدة من (تولوز)

لعلكم لا تعجبون من ان احدى الوالدات تكتب اليكم لتسألكم بعض المعلومات عن المدارس التى وصفتموها وجعلتم كل مشتغل بمستقبل ابنائه يعرف قدرها ومزاياها فكل من أمعن النظر فى الفوائد التى تنجم عن التعليم فيهـا يندب عدم وجود مثلها فى البلاد الفرنساوية . لى ولدان ولكن

يعوزهما الاقدام والهمة الذاتيـة التى هى شرط النجاح فى هذه الأيام وهما صغيران وتربيتنا التى استولت على زمام الاطفال واستغرقت كل أوقاتهـم لاتترك لهما وقتا يكون لهما فيه فكر ذاتى أو تصور شخصي ولا تؤدى الى الغرض الذى أقصده فيهما ولواني أثق بمدرسة (بيدال) من الجهة الدينية لما تأخرت عن ارسال ابنيّ اليها وأرجو سيدى عفوا اذا اكثرت من السؤال فأنتم الذين شوقتمونى الى الاستفهام اذ كشفتم القناع للآباء والامهات الفرنساويين عن سبل وطرائق يجب على الكثير منهم أن يسلكوها وكثير يود سلوكها» اه

وكتبت اليه سيدة

«ابنائى ثلاثة وأنا أشتغل بتربيتهم كل الاشتغال وانى لمحزونة لمخالفة التربيـة التى يتلقونها فى المدرسة لافكارى على خط مستقيم . ترى الطفل مشغولا على الدوام بالامور العقليـة فلا يكاد يتفرغ هنيهة لامور الحيـاة العملية وعلى التحقيق ليس له من وقته يسير يمكنه من الرياضة والتمرينات الجسمية التى تقوّم الجسم وتشد الاعصاب لهذا أتشوف الى أخبار التعليم واتتبع خطا تعديل طريقته بكل اهتمام

ولقد يتولانى القنوط عند ما أشاهد ابنى الاول الذى بلغ الثانية عشرة من عمره متخمشا لا يقدر على مساعدتى فى أى أمر عملى قليل الهمة ضعيف الارادة ولكنى أءتّم فى ذلك المدرسة والواجبات الكثيرة التى تطلب من الاطفال وقد دللتمونى بكتابكم على انه يجب عليّ أيضا ان أعد نفسي من الآثمين اذ صحيح انني ووالده كلما أردنا الخوض فى موضوع مهم أو فى

عمل من الاعمال المفيدة ننتظر حتى لا يكون الاولاد معنا ولو اتفق لاحدهم انه اشترك معنا فى الحديث أو تطرف الى الخوض فى كيفية معيشتنا أو تطاول فسألنا عن أمر لم يدركه فيها رددناه فى الحال على عقبه بألفاظ كهذه: ليس هذا مما يعنيك — اشتغل بواجباتك — من كان فى سنك فلا يعول عليه — اخرس

«وقد اجتهدت في تلقين ابنائى المبدأ الآتى: ان الاطفال يضايقون الناس فيجب عليهم اذا كانوا فى غير بيتهم ان يكونوا بحيث لا يشعر بوجودهم أحد من الحاضرين. وقد كافأتنى احدى صديقاتى على اجتهادي بهذه الجملة ان ابناءك لعلى تهذيب عظيم

«سيدى لقد هديتنى ببعض أسطر من كتابك الى انى ضللت السبيل وذكرتنى بذلك القول الذى لست اذكر أين قرأته (اذا عاملت ابنك معاملة الرجال لا يلبث أن يصير رجلا). وعلى العموم أسلم معك ان الامهات الفرنساويات عقبة عظيمة امام الافكار التى قمتم أنتم وموسيو (بونڤالو) بنشرها وان بناتهن لا يصلحن زوجات للمستعمرين والزوجة الحقيقية التى اتمنى وجودها فى القرن المتمم للعشرين هى التى تكون صديقة زوجها وشريكته ورفيقته وهى التى لا تقتصر على كونها والدة أبنائها المحترمة بل تكون أليفتهم ومرجع سرهم قد عرفت الحياة واختبرت كل أمورها لا لتوافق على كل أمر بل لتفهم كل شئ ولن يجب علينا أن ننسج على منوال تلك الرومانية التى قيل فيها (أقامت فى بيتها وبرمت مغزل صوفها) اه

هذا ولم تقتصر حركة الافكار التى احدثها هذا الكتاب على الجرائد

والرسائل بل تعدت بعد انتشاره أيضا الى المشتغلين بالتعليم وظهرت فى خطابات رؤساء الامتحانات والذين تولوا توزيع الجوائز والمكافآت السنوية على تلامذة المدارس ومن تمام الفائدة ان نأتى على طرف من ذلك

قالت جريدة (الطان) وهى اكبر الجرائد الفرنساوية وانفذها رأيا

«قرأنا خطب توزيع المكافآت فى هذا العام والذى استوقف نظرنا فيها هو اتفاق الخطباء جميعا من غير موعد بينهم فى الارشادات والنصائح التى ألقوها على التلامذة فلم نرَ هذه المرة فى خطبهم ماجرت به العادة من تمجيد التعليم المعروف ومدح الطرق المألوفة والاطراء بنتائج الامتحانات ولا ما كنا نسمعه منهم من الجمل الطويلة والقول الموشّى فى الادب وقواعده ولكنهم أجمعوا تقريبا على الخطابة فى موضوع العمل والحث عليه وامتداح خصال الرجولية الحقة وتعظيم شأن فضيلة الاقدام والهمة الذاتية ولم يقفوا عند ذلك بل امتدحوا الجرأة والتزاحم .

«هذا موسيو (رنى ميلمى) مبعوثنا فى تونس قد هنأ نفسه بما شاهد من تقدم التمرينات الرياضية وترك تلك الطريقة الوحشية فى التعليم التى ما كان يلتفت فيها لغير الرأس حيث يهمل الجسم أى اهمال

« وهذا موسيو (بولسون) يرفع راية المجد والفخار لاصحاب الارادة الصادقة ويشير الى ان أول واجب فى التربية هو تكوين الرجال بالمعنى الصحيح .

« وهذا موسيو (هنات) يحكم على طريقة التربية التى ترجع الى ان الحكومة وصية على الافراد بالرداءة والفساد ويدعو الشبان الى اعتناق

الحرف المستقلة وان كانت مما يقتضى المخاطرة والمجازفة

«وأولئك غيرهم كثيرون من الخطباء يحادثون شبيبتنا فيما وراء المستعمرات من الخيرات وما ينال النازح اليها من المعيشة المستقلة وبسطة اليد مما يؤدى أيضاً الى زيادة ثروة الوطن ويعلى شأنه ويشد ازره»

«وعلى هذا فقد ظهر اليوم فى الأفكار رد فعل الماضى وانعطفت الاميال الى التمثل بالانكليز وهى حركة من شأنها ان تدخل الفرح فى قلوب محبى الوطن فعلينا ان نقابل تلك الفصاحة الحربية بهزة فرح فى النفوس وان نرى فيها تحذيراً ووعداً ورجاءاً

وخطب موسيو بنى دى جولفيل في مدرسة (كوندورسى)

(يجب عليكم فى مساعدة الضعفاء ان تكونوا أقوياء فقولوا ولا تخشوا أحداً ان التكافل فى الوجود نوعان صحيح وفاسد . طيب وردىء . أما الأول فهو ان يعمل الرجل لغيره ما استطاع وهو التكافل الحق فاتبعوه واعملوا به جهدكم . وأما الثانى فهو ان ينتظر الواحد كل شئ من غيره وهو تكافل لاخير فيه ولا قيمة له وان كان له أحزاب ومعجبون فاحذروه واجتنبوه . ولا يعولن الواحد منكم فى نفع نفسه على غيره بل ليكن اعتماده أولا على نفسه وهمته وارادته وصبره وجلده ومثابرته على العمل بذاته وعودوا أنفسكم على الارادة» اه

وقابل موسيو (فاجت) فى مدرسة شارلمان بين الحرف اليدوية وبين الحرف الأدبية وبرهن على ان الأولى ليست أقل فضلاً ولا شرفاً من الثانية الا ان الكاتب الذى اهتزت لقلمه الافكار وانحازت لصوته الاميال وتم بقوله النصر لكتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين ومؤلفه هو موسيو

والوسائل بل تعدت بعد انتشاره أيضا الى المشتغلين بالتعليم وظهرت فى خطابات رؤساء الامتحانات والذين تولوا توزيع الجوائز والمكافآت السنوية على تلامذة المدارس ومن تمام الفائدة ان نأتى على طرف من ذلك

قالت جريدة (الطان) وهى اكبر الجرائد الفرنساوية وانفذها رأيا

«قرأنا خطب توزيع المكافآت فى هذا العام والذى استوقف نظرنا فيها هو اتفاق الخطباء جميعا من غير موعد بينهم فى الارشادات والنصائح التى ألقوها على التلامذة فلم نرَ هذه المرة فى خطبهم ماجرت به العادة من تمجيد التعليم المعروف ومدح الطرق المألوفة والاطراء بنتائج الامتحانات ولا ما كنا نسمعه منهم من الجمل الطويلة والقول الموشّى فى الادب وقواعده ولكنهم أجمعوا تقريبا على الخطابة فى موضوع العمل والحث عليه وامتداح خصال الرجولية الحقة وتعظيم شأن فضيلة الاقدام والهمة الذاتية ولم يقفوا عند ذلك بل امتدحوا الجرأة والتزاحم

«هذا موسيو (رنى ميلمى) مبعوثنا فى تونس قد هنأ نفسه بما شاهد من تقدم التمرينات الرياضية وترك تلك الطريقة الوحشية فى التعليم التى ما كان يلتفت فيها لغير الرأس حيث يهمل الجسم أى اهمال

«وهذا موسيو (بولسون) يرفع راية المجد والفخار لاصحاب الارادة الصادقة ويشير الى ان أول واجب فى التربيـة هو تكوين الرجال بالمعنى الصحيح .

«وهذا موسيو (هنات) يحكم على طريقة التربيـة التى ترجع الى ان الحكومة وصية على الافراد بالرداءة والفساد ويدعو الشبان الى اعتناق

الحرف المستقلة وان كانت مما يقتضى المخاطرة والمجازفة

«وأولئك غيرهم كثيرون من الخطباء يحادثون شبيبتنا فيما وراء المستعمرات
من الخيرات وما ينال النازح اليها من المعيشة المستقلة وبسطة اليد مما يؤدى
أيضاً الى زيادة ثروة الوطن ويعلى شأنه ويشد ازره»

«وعلى هذا فقد ظهر اليوم فى الأفكار رد فعل الماضى وانعطفت الاميال
الى التمثل بالانكليز وهى حركة من شأنها ان تدخل الفرح فى قلوب محبي
الوطن فعلينا ان نقابل تلك الفصاحة الحربية بهزة فرح فى النفوس وان نرى
فيها تحذيراً ووعداً ورجاءاً

وخطب موسيو بنى دى جولفيل فى مدرسة (كوندورسى)
(يجب عليكم فى مساعدة الضعفاء ان تكونوا أقوياء فقولوا ولا تخشوا
أحداً ان التكافل فى الوجود نوعان صحيح وفاسد . طيب وردىء . أما
الأول فهو ان يعمل الرجل لغيره ما استطاع وهو التكافل الحق فاتبعوه واعملوا
به جهدكم . وأما الثانى فهو ان ينتظر الواحد كل شئ من غيره وهو تكافل
لا خير فيه ولا قيمة له وان كان له أحزاب ومعجبون فاحذروه واجتنبوه .
ولا يعولن الواحد منكم فى نفع نفسه على غيره بل ليكن اعتماده أولا على نفسه وهمته
وارادته وصبره وجلده ومثابرته على العمل بذاته وعودوا أنفسكم على الارادة» اه

وقابل موسيو (فاجت) فى مدرسة شارلمان بين الحرف اليدوية وبين
الحرف الأدبية وبرهن على ان الأولى ليست أقل فضلاً ولا شرفاً من الثانية
الا ان الكاتب الذى اهتزت لقلمه الافكار وانحازت لصوته الاميال
وتم بقوله النصر لكتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين ومؤلفه هو موسيو

(جول لومتر) وهو الذى أهداه المؤلف كتابه الثاني (التربية الجديدة) قال فى جريدة الفيجارو وهى أيضا من أهم الجرائد الفرنساوية وأكثرها انتشاراً « ماأصعب كتاب موسيو ديمولان على النفوس . ولكن يجب ان يقرأه الناس ويشربوا ذلك الكأس الذي ملئ بالحسرات . ان الذى يقوله موسيو (ديمولان) كنا نعرفه أونشعر بهِ ولكنهُ حدد المطلب وجمع بين شتاته جمعاً محكماً . والذي يستخلص من هذا الكتاب الذى يقنع القراء بقدرمايحزنهم هو أفضلية الأمة الانكليزية السكسونية من حيث أحوالها الاجتماعيـة وسياستها وتجارتها وماليتها وآدابها وأخلاقها مقابل ضعفنا ومسكنتنا وعدمنا فى الوجود لأن أفضليةهزلياتنا وأفضلية طهاتنا لن تنجينا من الوهدة التى نحن فيها . ولقد يجوز ان تكون أفضليتنا الفنية لافائدة فيها

«ومن سوء الحظ لايمكننا القول بأن الزمان قلب فاليوم مر وغداً حلو لأننا أمة اتكالية كل واحد من أفرادها يعتمد على البقية والانجليز السكسونيون أمة استقلالية لايعتمد الواحد من قومها الا على نفسه والنتيجة من هـذا خطر علينا »

ثم أخذ الكاتب يسرد أفكار المؤلف ويؤيد استنتاجاته الى ان قال « ذلك هو مايجده القراء مفصلا ومبرهناً عليه بأقوى الحجج فى كتاب موسيو ديمولان مضافا الى كثير غيره كله حق وكله لايوجب العزاء ولا يؤدى الى السلوان »

وبعد ان جارى المؤلف فى مقدمة الكتاب وأتى على ذكر انتشار الأمة الانكليزية السكسونية ختم مقالته بما يأتى :

«ليس لنا الا ان نحصل ما فاتنا من الفضائل التى كثرت فى أمة الانكليز السكسونيين فنساعد على نمو الهمة الشخصية ونعوّد اهلنا على الاعتماد على انفسهم وعلى ذلك الاقدام والعزيمة والاهتمام

« يلزمنا آباء يعتقدون كل الاعتقاد انه لايجب عليهم لابنائهم الا التربية بشرط أن تكون حقيقية قوية

« يلزمنا شبان يعتقدون كل الاعتقاد أنهم هم الذين عليهم لانفسهم تحصيل رزقهم بانفسهم فى الحياة الدنيا

«يلزمنا شبان يعقدون الخناصر على ان يطلبوا من الزواج رفيقاً لامهراً جزيلا

«يلزمنا حكومة ترجع اختصاصها الى الحد الادنى وتقلل عمالها الى الحد الادنى وترد بذلك الشبان الى المهن المستقلة التي تقتضى الهمة الذاتية والاقدام والعمل

«يلزمنا حالة اجتماع يكون فيها الموظف والسياسى ومن لاعمل له اقل اعتباراً من الزراع والصناع والتجار

«يلزمنا ان نلغى دروس اللغات الميتة من مدارسنا الابتدائية وان نلغى جمعية المعارف ذاتها ان لم تلغ جمعيات العلوم وان نلغي مدرسة الهندسة وجميع مدارس الحكومة وان نلغى طريقة الانتخاب التى يتساوى فيها صوت العظيم بالحقير والجاهل بالعالم والزراع باهل البطالة والكسل وان نلغى ثلاثة ارباع الموظفين وان نلغى ذلك النظام الادارى الذى اسسته الثورة وايدته الامبراطورية الاولى

«انى لا ارى ضرراً من الغاء هذا كله وان كنت اراه صعباً

«يلزمنا اقتصاد الاموال التى نصرفها على الجيوش فانها تجلب علينا الخراب والدمار والغاء الخدمة العسكرية التي تأخذ من حياة شبابنا ثلاث سنين ولا تنمى روح الهمة فيهم الا يسيراً وان نكتفى كما تكتفي انكلتره بجيش لايزيد عدده على مائة الف أو الولايات المتحدة بجند لايزيد عن ستة وعشرين الفاً

«يلزمنا أن نلغى تلك الحجة المادية الى الدفاع عن الوطن والطموح الى الاخذ بالثار من قاهرينا

«يلزمنا ان ننسى انكسارنا الذى اضعفنا وجعلنا نخجل فى كل آن

«يلزمنا ان نبدل نفوسنا

«ياقوم هل تعرفون وسيلة نوجد بها الهمة والارادة من حيث فقدتا ونجعل اللاتينى اوالسلتى الضعيف انكليزياً سكسونياً من الجبارين

«وبعد هذا فمليكم بما يسرّى الهم عنكم لعل صاحب الكتاب الذى اشتد وقعه قد بالغ وغالى

«ياقوم لا ينفعكم اعتقادكم بانكم امة خير تطلب الخير للناس وبان الانكليز السكسونيين امة اختصاص وخداع وبان الدولة الالمانية انما تعيش من فوائد نصرها عليكم

«ياقوم لا ينفعكم غير اصلاح حالكم فاعملوا ان كنتم فى الترقى راغبين » اه

ثم كتب ذلك العالم الشهير رسالة اخرى وكانت الاولى قد اجهزت

على الطبعة الأولى من الكتاب ويقول صاحب التزامه انه اضطر الى طبع الثانية على عجل فقد كان يطلب منه فى اليوم الواحد ما يزيد على مائة نسخة ورددت جميع الجرائد صدى هاتين المقالتين ونشرتهما جرائد الاقاليم كلها على التقريب ولكل واحدة منها قول يشجع على اقتناء هذا الكتاب ويؤيد مااشتمل عليه من النصائح والمبادى

هذا هو الكتاب الذى نهدى اليوم ترجمته الى الناطقين بالضاد عموما والى المصريين خصوصاً لمطابقة الوقائع التى دونت فيه عن الامة الفرنساوية لما هو حاصل فى بلادنا ولاتفاق البلدين في كثير من العادات والاخلاق والافكار التى عنى المؤلف ببيان جهات النقص فيها اللهمّ الا ان الصغيرة لديهم كبيرة لدينا والاستثناء فيهم قاعدة عمومية عندنا

ووجه الشبه هذا هو الذى اخترناه سبباً فى طلب الاذن من المؤلف واليك نص مابعثنا به اليه بعد الديباجة

لما قرأت كتابكم النفيس «سر تقدم الانكليز السكسونيين» أثر عندى بما رأيته من الشبه الكلى بين أمتى وأمتكم فأخلاقنا أخلاقكم وعاداتنا عاداتكم والفرق بيننا وبينكم ان العيوب عندنا كبيرة جدّا . ولا شك فى انه سيكون لكتابكم هذا من التأثير ما يرجع بالفائدة على الامة الفرنساوية لذلك رأيت أن نقله الى اللغة العربية يفيد أهل بلادى أفهل تسمحون لى بترجمته

وقد تفضل حضرته فأجابنى على طلبي في ٤ يوليو سنة ١٨٩٨ بما يأتى

« أخذت خطابكم بعد عودتى من غيبة قصيرة وقد سررت جداً من حسن ظنكم بكتابى وفى اعتقادى ان بلدكم تستفيد من تلك الافكار مثل بلدى فأنا أصرح لكم بكمال الارتياح أن تترجموه الى اللغة العربية »

ويحتاج سر تقدم الانكليز السكسونيين فى مطالعته الى دقة نظر وروية حتى لايفوت الغرض المقصود لنا من ترجمته وهو تنبيه الفكر الى أسباب ما نحن فيه من التأخر والانحطاط

ومن المقرر ان ميلنا الى مطالعة المؤلفات التى من هذا القبيل ضعيف حتي فى هذه الأيام وان المشتغلين بنشرها أشقى العاملين فان الواحد منهم قد ينتهب أوقات العمل فيها من سويعات نومه ولحظات راحته ويتحمل من المتاعب مالا تقدر قيمته ثم لايستعيض عن تعبه بلذة ان الناس يقرأون ما أهدى اليهم فيرتاح لكونه كان لقومه من النافعين

لكن الذى لايأخذ الأمور بظواهرها بل يطلب الحقيقة انى وجدت يعلم أن انزواء رغبة الناس عن مطالعة المؤلفات المفيدة وملهم من العلم بما يجرى فى الوجود من تقدم الأمم بترقى المعارف واتساع نطاق التربية والتعليم لم يكن ناشئاً عن بغضهم للعلم أو نفورهم من القائمين بنشره وانما هو مسبب عن طول زمن الترك الناشئ عن الضعف العام الذى الم بروح الشرقى منذ أجيال طويلة حتى أمات ملكة حب الاستطلاع وجعل النظر فى أحوال الأمة خصوصا وأحوال الامم عموما قاصراً على مايحس احساسا ماديا فلا يتحرك الفكر الامن جانب الشعور الجسمانى على ان تحركه انما يكون لمجرد التوجع والتحسر أو لمجرد الابتهاج والفرح الوقتى ثم لايلبث أن يرجع الى

السبات العميق فيذهل عن أمته وعن نفسه ويصبح كما أمسى بل أقل عزما وأكثر همًّا

ذلك ما أصاب الامم الشرقية واستحكم فى عقولنا حتى عم الفتور وصار كأنه حالة فطرية فحبسناه خلقا من أخلاقنا وعددنا من يخرج عن حالتنا هذه مبتعدا عن المنهج القويم ومارقا عن تقاليد الامة وعاداتها ومهينا لها فيما ترى التمسك به من موجبات كمالها . خصوصا اذا جاءنا بما يكشف القناع عن المصائب المتولدة من ذلك الخمول ويبين وجه الضرر فيما نحن فيه من الانزواء ونددّد بما اعتقد — كما هو الصحيح — انهُ أصل الشقاء ومجلبة العناء من أخلاق تخالف الغرض من الحياة وطباع تبعد باصحابها عن محجة النجاة ومعتقدات يقوم فيها الوهم والخيال مقام حقيقة الحال . تلك عادة المرء ان كلت همته ووهن عن القيام بما وجب كان أقرب الى الغضب دفعا لمؤثر يؤلمه وانتقاما من نصوح يدب على موضع الألم فتتأثر النفس مع فقد القدرة على نفي اسباب التأثر ويصير المخاطب كمن شد وثاقه وانهالت عليه السياط فلا هو قادر على تحمل آلامها ولا هو يجد من وثاقه فكاكا فيكتفي بالصياح والاكثار من النواح وتمتلئ نفسه بالحقد على ذلك المسيء اليه فى نظره فيبيت نفوراً منه لايسمع لهُ قولا ولا يعي عنه فعلاً

هذا هو السبب فى الاقبال على مطالعة القصص والخرافات والتهافت على اقتناء التافه من المؤلفات والتسابق الى حفظ كتب المجون والروايات والنفور من القول الجد وهجر النافع واغفال المفيد وفيه تعليل واضح لكثرة انتشار كتب المجون والهزيان وقلة كتب العلوم الصحيحة فان الاولى لا تطلب

شيئا من همة القراء ولا تشغل محلا من مدركتهم ولا يتكلفون أكثر من النظر الى الاحرف ليحصلوا منها صورة فى الذهن تضحكهم أو يدركوا واقعة تعجبهم ثم ينقضي الوقت بسلام وغطاء الادراك الحقيقى مقفل عليه . ولان الثانية تقتضى امعان النظر وتستوقف الفكر وتنساب فى النفس فتحدث فيها من التأثير ما يهيج خاطر المطالع ويدعوه الى العمل أو ينبهه الى الواجب عليه . فان كان من أهل الهمم الساقطة — وهو الغالب — وجدته يشمر بثقل الواجب المطلوب منه ومتى أحس من نفسه العجز عن القيام به أسرع الى طرح الكتاب واشتغل عن العمل بالتعنيف والعتاب وربما أوقد النار وأحرق الكتاب كما فعل بعضهم فى العام الماضى بترجمة كتاب الاسلام ظنا بان احراقه ينجيه من وصمة الخمول الذى انغمس فيه

تلك حال تسوء عقباها وتدعو الى اسوأ منها وقد احدثت عندنا من انحلال الاخلاق وتمزق الروابط ما ظهرت نتائجه فى جميع مشاعر الامة وتقاليدها

هذه المجتمعات أصبحت معدومة فى منازلنا حتى بين أهل الحرفة الواحدة بل صار هؤلاء أشد الناس نفورا بعضهم من بعض فجهل كل واحد سبيل أخيه وغابت عنه بذلك منفعته ومنفعة مواطنيه وضعفنا بتفرقنا وسهل على المزاحم أن يفوز بيننا فوزا مبينا . نعم يوجد عندنا مجتمعات كثيرة فى هذه الايام ولكنها حول الكؤوس والاكواب أو فى ميادين الملاهى والالعاب

وتلك الجرائد على كثرتها وانتشارها لا يقرأ منها فى كل يوم الا سافر

فلان وعاد فلان ونشكر فلانا ونحذر فلانا وهكذا وكله راجع الى ذلك الحال الذى استولى على الأمة فجعلها لا تقبل الا مايوافق الكسل ويلائم عدم الحركة فى كل شئ . أما ما كان فى تلك الجرائد مما يرشد الى فضيلة أو ينبه على رذيلة أو يوضح حقيقة فحظه حظ كتب الجد من جعلها خلف الظهر والاستعاضة عنها بما لا يفيد

لكن على قدر فقدان الشعور العام فى الأمة يجب العمل على تنبيهه وبمقدار اعراضها عن النافع ينبغى السعى فى حملها على الرغبة فيه

ومن الحقائق ان الأمة لا تنهض من رقدتها ولا تهب من سباتها الا اذا خلصت من قيودها وفارقتها الأمراض التى تنهك قواها وتحط من عزيمتها

ولا يتيسر للأمة ان تتخلص من آلامها وتبرأ من أمراضها الا اذا عرفت أسبابها وأحاطت بموجبات الضعف فيها

فأول واجب على من يطلب مصلحة أمته أن يبين لها مواضع الضعف الملم بها حتى اذا تم تشخيص الداء سهلت معرفة الدواء

وليس من ينكر أننا متأخرون عن أمم الغرب واننا أمامها ضعاف لانستطيع مغالبتها ولا يسعنا ان نفوز ببغيتنا مادمنا ودامت على هذا الحال

نحن ضعاف فى كل شئ تقوم به حياة الأمم متأخرون فى كل شئ عليه مدار السعادة

ضعاف فى الزراعة وهى الأس المتين الذى تقوم به حياة الامم والشعوب فلا مطمع لرجل لا يحصل عيش يومه ولا حول لامة لا تجد ماتقتات منه وبالزراعة تأمن الأمة غائلة الشقاء المادى فتتمكن من النهوض الى الحياة

الادبية وطلب الكمال . ونحن لانعرف حتى اليوم من أصولها غير شق الأرض بقطعة من حديد مركبة فى كتلة من الخشب يجرها ثوران ورمي البذور كما كان يرميها آباؤنا ثم انتظار الربح بعد ذلك من وراء الكسل والانكماش . وأهل الارض يستحدثون لاصلاح الاراضى كل يوم جديداً ويخترعون من الآلات ماتتضاعف بهِ الهمم وتشتد بهِ الايدى ويؤلفون الشركات للقيام بما يعجز عنه الافراد من جلب المياه وتصريفها وجمع الحاصلات وبيعها وغير ذلك مما جعلهم يشتغلون الصخر ويستنبتون الجبال . والزراعة عندنا حليفة الانحطاط فالفلاح هو ذلك المسكين الذى اقتفى أثر أبيه القديم فى عمله ولم يجدد بعده طريقة ولا صنفاً فاكتسى أردأ الملابس وتغذى بأخس المأكولات وقضى حياته فى أدنى المساكن . وهو أبو الجهالة المحقر المرذول فلا نزال نقول عن أنفسنا اذا أردنا ان نبالغ فى ذم أحدنا بالجهل انه « فلاّح »

ضعاف فى الصناعة لانا أهملناها وجهلنا طرائقها فأصبحنا وليس منا الا الفعلة والحمالون ومنفذوا ارادة الاجنبي . نشقى ليسعد ونموت ليحيي هذه المعامل الفسيحة والمصانع العظيمة التى أُقيمت بين بيوتنا كلها للاجنبي واذا زرتها وجدتها تنقسم الى أقسام مختلفة بحسب طبيعة العمل المطلوب وفى كل قسم رئيس من الافرنج والكل بعد ذلك مصريون . هذه المبانى الشاهقة والقصور الشامخة شيدت كلها بيد المصريين لكنهم كانوا فى تشييدها من الاجراء يعملون بمشيئة الاجنبي ولفائدة الاجنبي

أدخل بيت عظيم من عظمائنا أو بيت شيخ من علمائنا أو بيت راهب من

رهباننا أو بيت حقير من اجرائنا ثم اعدد مافيه من أنواع الاثاث والامتعة وانظر الى بنائه ومايتركب منه ووزع كل شئ على صانعه وابحث عن يد المصرى فيه لا تجدها الا فى قطع الاحجار ورصها ومابقى كله من آنية طعام وموائد واخشاب واطالس وحرائر وبسط وحديد ومقاعد ومصابيح وأكواب ومفاتيح وألوان وملابس ومطابخ وكل شئ صنع الاجنبي

ضعاف فى التجارة فلا نعرف منها غير أن الرجل منا يشترى الصفقة من المخزن الكبير ويجلس بها فى حانوته الصغير حيث يفتحه متأخراً ويقفله قبل المساء ويتحادث مع جاره طول النهار واذاجاءه طالب اجلسه مكانه وبالغ فى مؤانسته واكرامه بماينقضى به الوقت والرجل ما اشترى والتاجر مااستفاد. وهو يحسب من التجار ذوى المكانة والاعتبار مع انه لا يعرف أين تصنع بضاعته ولا من الذى جلبها اليه ولا ثمن مادتها الاولى ولله الآخرة والاولى. لذلك ضرب الاجنبى على أبواب التجارة واحاطها بسور من علمه وهمته فاستأثر بصادراتها واختص بوارداتها وأنشأ الشركات توسعافيها واستخدم الوطنيين سماسرة لا يكسبون من كدهم الا اليسير

ضعاف فى العلم اللهمّ إلا علم مداره جهل حقائق الاشياء فى الوجود اما المفيد منه فقد اقتصرنا فيه على مايختص بعلاقة الانسان مع ربه والباقى منه أخرجناه عن معناه الصحيح وحكمنا عليه بالاعدام وشهرنا المشتغلين به حتى أمتنا روح التقدم وأطفأنا مصابيح العرفان فى الاذهان . أين منا المؤرخ والنباتي والطبيب والكيماوى والمهندس والطبيعى والاديب والمنطقى واللغوى وعالم الاخلاق والحكيم والفلكى وعالم الزراعة وغير هؤلاء نعم

نحن لا نعدم نفرا منهم ولكنهم قليلون بدليل انه لو كان عندنا منهم عدد يكفينا لما وُجدَ الاجنبي بيننا على هذه الكثرة التي نشاهدها لانه ما كان يجد عندنا ذلك المرتزق الفسيح

ضعاف فى العزيمة فلا يبدأ الواحد منا فى عمل الا وقد أدركه الملل واحاط به الفشل فترك عمله وتقهقر فرحا بسلامته واذا قام أحد منا بمشروع يقتضي المعونة لبيت دعوته من كل مكان حتى اذا آن أوان الشروع فى العمل هرب كل واحد من ناحية وأصبح صاحبه يندب الوقت الذى قد اضاعه فيه بل ربما وجد فى نفسه ارتياحا أيضاً لانه كان قد عرضها لأمر يجرّ اليه ضرّا بل ان تلبية النداء أصبحت معدومة لكثرة ما كان من الفشل والخذلان فماتت بذلك روح الطلب واستولى الخمول على كل الطبقات وانفرد أولو العزيمة بمثل هذه المشروعات

ضعاف فى الالفة والمودة فكل يوم ترى الاصحاب أعداء والاصدقاء متنافرين وأهل العلم متباغضين متحاسدين

ضعاف فى النخوة والشعور الملى والجامعة القومية فالعظيم منا يهان والكبير ينتابه الزمان وأمثاله ينظرون اليه فرحين بمصيبته مستبشرين بنكبته أو آسفين من بعيد بحيث لايسمع لهم صوت لمعونته والاصاغر يشمتون جهلا أو انتقاما وما درى العظماء ان ذل الواحد منهم ذل لهم أجمعين ولا حسبت الطبقات النازلة ان زوال الطبقات العالية من الامة بمثابة زوال الروح من الجسم لانها سياج الاخلاق ومرجع صيانة العادات ومشخص الامة فى حياتها وشعورها ولاحياة لقوم لايشعرون

ضعاف فى الخيرات فما أثقل طلب الاحسان على أغنيائنا والموسرين

ضعاف في طلب حقوقنا فالرجل منا يسلب حقه ويهان ملكه وهو يقول لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل

ضعاف في اداء الواجب علينا فكل من أقام فى عمل يهرب منه . ان كان رئيسا استعمل الرئاسة فى البطالة واتخذها شعاراً لعدم العمل ورمى احماله على مرؤسيه وان كان مرؤسا طفق يندد بالرئيس ويقول كان يجب عليه أن يعمل كذا وكذا ولقد أخطأ فى كذا وكذا وعاقبونى لانى قمت بالواجب ولكنهم قوم لا يعقلون

ضعاف فى الاعتبار بالحوادث فنحن ننسى كل شئ وقد يكون النسيان حاصلا في زمن التذكير لذلك نقع فى الخطأ بعينه كل يوم

ضعاف فى حفظ ما ترك الآباء فكل يوم تشرق الشمس على بيوت دمرت واملاك تفر من أيدى وارثيها فتتلقفها أيد عرفت مكان الضعف منا وتنبأت بزوال النعمة عنا فتربصت بنا ريب الزمان

ضعاف فى التحصيل فالرجل يولد ويتربى ويهرم ويموت وقلما تراه قد حافظ على ما كان فى يده والنادر هو الذى يزيد عليه شيئاً يسيراً

ضعفنا حتى اصبحنا نرجو كل شئ من الحكومة فهى التى نطالبها بحفظ حياتنا وخصوبة أرضنا وترويج تجارتنا وتحسين صناعتنا . هى التى نطلب منها أن تربى الابناء وتطعم الفقراء وترزق العجزة وتنفى أسباب البطالة وتحفظ الاخلاق وتلم شعث العائلات وتجمع أشتات القلوب . هى التى نطالبها بتعويض ما نقص من ارادتنا وتقويم ما اعوج من سيرنا

وسيرتنا ورد هجمات المزاحمين عنا والسهر على مصالح كل واحد منا . فاذا تأخرنا فى عمل من تلك الاعمال باهمالنا رميناها بسوء الادارة واتهمناها بحب الاثرة والقينا عليها تبعة خمولنا كلها

لاريب أننا بهذا الزعم قد ضللنا السبيل فانما الحكومة وازع لا يكلف الا ما اقتضته طبيعته وشأن الحكومات في الامم تأييد النظام وحفظ الامن واقامة العدل وتسهيل سبل الزراعة ومعاهدة بعضهم بعضا على ما يضمن حرية التجارة ويشجع أهل الصنائع والحرف كما تقتضيه المصالح المشتركة وعلى قدر ما تسمح به الممكنات . وبالجملة فالحكومة وازع عام لا واجب عليه الا الامر العام مما يدخل تحته جميع الناس ولا ينفرد بالاستفادة منه واحد بخصوصه

وعلى الامة بعد ذلك أن تستفيد من هذا النظام وتنتهز فرصة الامن والطمأنينة لتسعى وراء منافعها وتطلب الكمال فى زراعتها وصناعتها وتجارتها وفى نشر المعارف واحياء العلوم وفى اداء الواجبات والمحافظة على الحقوق وهذا هو الذى أهملناه حتى اضعناه

تركنا الزراعة فى انحطاطها والصناعة فى تأخرها والتجارة فى كسادها وصار كل الذى نطلبه من التعليم لابنائنا وظيفة فى الحكومة يعيشون فيها عيشة الانكماش جريا على سنة الآباء وما درينا ان الزمان يتقلب واحوال المعيشة تتبدل وان وظائف الحكومة أصبحت آخر الحرف كسباً واشدها تقييدا لحرية العمل وأقلها مشجعاً على الهمة والاقدام لانحصار مزاياها فى ذلك الراتب الزهيد الذى لا يفي فى الحقيقة بجميع حاجات الانسان فى

حياته بعد ان كانت مصدر الثروة وموضع الراحة والامل ومظهر الابهة والفخار وعنوان الشرف والاعتبار

ولما قفل باب التوظف خصوصاً في وجه العطلة والذين اضاعوا وقتهم في اللهو واللعب ظن الناس كلهم ان ابواب الرزق كلها اقفلت في وجوههم وظهرت في الوجود نشأة جديدة نراها في الغدو والرواح مجتمعة في القهاوى ومنتشرة في الطرقات وهي اعلم الناس بطرق التخريب واسرعهم الى الانصباب على تمزيق ثروتهم وتبديد ماجمع الآباء . واصبحت الشبيبة اقل استعداداً الى العمل الذى يعود على الامة بالخير وينهض بها الى التقدم والترقى

هكذا انصرفنا عن مصالحنا وأضعنا الوقت فيما لا يفيد حتى احدقت بنا المصائب وضاقت علينا ارضنا

مصائبنا جهل بما احتجنا اليه واهمال لما يعول في حياة الامم عليه وتمسك باهداب أحلام قد اشرقت عليها شمس الحقيقة فبددت غياهبها إلا من عقولنا وبرهنت على بطلانها إلا في خيالنا فكان من ورآء اصرارنا على التعلق بهذا الخيال ان تربع الاجنبي بين ربوعنا وانفرد بمصالح دارنا وصرنا نتردد عليه لنخدمه وهو يتردد في قبولنا لكثرة مااهملنا انفسنا وقلة مااهتممنا بصوالحنا وطول غيبة الصواب عنا

بذلك ازددنا ضعفاً على ضعف فاصبحت شؤننا في ايد غير ايدينا وذهبت اموالنا الى غير اهلينا ممن لا يشفق علينا ولا لوم عليه لانه استفادها بجده من خمولنا واكتسبها بكده مما اضعفنا واستخدمنا في منافعه جزاء ما اهملنا منا فعنا . ولانه رجل ثقفته العلوم وهذبته التربية الصحيحة فانمت فيه

الادراك واستنارت بصيرته وقويت ارادته واشتدت عزيمته وعلم ان الحياة لاتقوم الا بالمثابرة على العمل والسعي المستمر فى طلب الكمال ومن سنن الله فى خلقه ان يسود العلم على الجهل وان تعلو القوة على الضعف وان يبدد النور الظلمات . وعلم ذلك الرجل نور انبعثت اشعته وراء عزيمته تضئ جوانب الجهل فالت من الغرب الى الشرق وانكشف الستار عن رجلين احدهما عالم مقدام ومدرك همام عزيز الجانب بهمته رفيع الشأن بفطنته والثانى جاهل قد استولى الجبن عليه فاستكان لحكم الزمان وأن تحت اثقال الخمول

هذا هو الدآء الذى نتألم منه وتلك هى الامراض التى تنهك جسم امتنا وبديهي أن معرفة الدواء صارت سهلة على القراء

دواءنا التربية وسلامتنا فى نشر المعارف والعلوم فعلينا بها بما بقي فينا من الشعور وما ترك لنا من الاختيار فى العمل قبل ان يتم الانحلال ويتعذر علينا القيام نعم لاانكر ان النداآء بوجوب التربية والتعليم يشعر بان المنادي بعيد عنهما ومثل هذ النداآء لايروق للذين تمكنت من قلوبهم الاثرة وحب الذات وصار احب الناس اليهم من يهش لهم ويبش فى وجوههم وان كان اقلهم رحمة بهم وحنانا عليهم — وكلنا ذاك الرجل — لكن الذى يسعي ورآء الحقيقة ويطلب النفع لقومه مضطرا الى التخفيف من تلك العزة الباطلة والاقلاع عن حب ذاته وعدم الاسراع الى النفور من النداء حتى يتبين صوابه من خطائه ويميز بين ضاره ونافعه

وحب الاثرة هذا هو الذى جعل كتاب حضرة صديقى الفاضل قاسم بك امين (تحرير المرأة) الذي نشره فى الشهر الماضي لايروق فى عين بعض

القرآء لانه يدعوهم الى ترك عادة تأصلت فى النفوس وعدت من الاعتقادات ونسبت غلطاً الى الشريعة السمحآء وليست منها فى شئ من الاشيآء مع ان المؤلف جمع فى كتابه من شوارد الافكار ورفيع الاقوال ما يعجب به كل محب لخير الامة طالب لنفعها ولكنه برهن على أن علة تأخرنا سوء حال النسآء وعدم تربيتهنّ وتعدى الرجال على حقوقهنّ فكان ذلك النفور من كتابه لمجيئه على مايخالف ماألفته النفوس وارتاحت اليه

ولعل سر تقدم الانكليز السكسونيين لايسلم من مثل هذا الانتقاد ولكنما الاعمال بالنيات ولكل امرئ مانوى

غرضى من ترجمة هذا الكتاب تنبيه الافكار الى حالتنا التى نحن فيها ومقارنتها بحالة الامة الفرنساوية لنوقن بعد علمنا بما هى عليه من التقدم والعمران وبما بلغته من الدرجات الرفيعة فى العلم والحضارة والعرفان انها احتاجت وهى على تلك الاحوال الى اصلاح شؤونها لتضارع غيرها من الامم فنحن أحوج منها الى التعليم وأشد افتقارا الى التربية وأعوز الناس الى الاشتغال بما ينفعنا فى هذه الحياة. كما انى أقصد الفات الاذهان الى ان الزمان يمر بالاقوال والامة لاتحيي الا بصالح الاعمال واننا أولى الامم بالجد فى تحصيل سعادتنا فبقدر التأخر ينبغى شد العزائم وتقوية الهمم وادامة السهر فى العمل حتى نفوز بحظنا من هذه الدنيا

كذلك أريد ان تميل الافكار الى اطالة النظر فى أحوال الامة الانكليزية التى تحتل البلاد والى ان عمال الاحتلال هم قوم من ذلك الجنس الذى ألف هذا الكتاب لبيان السر فى تقدمه وسيادته فى الوجود

وهم ماداموا فى بلادنا يجب علينا ان نقارن بين أحوالهم وأحوالنا وعاداتهم وعاداتنا ومعارفهم ومعارفنا وهمتهم وهمتنا وحركتهم وحركتنا واقتدارهم واقتدارنا وكفائتهم وكفائتنا وحولهم وحولنا وثروتهم وثروتنا . يجب علينا ان نقارن بين هذا كله وبين ذلك كله لاننا مضطرون الى معاشرتهم ومعاملتهم والاحتكاك معهم فى جميع أمورنا حتى اذا صح نظرنا وعرفنا الامر على حقيقته وتشبعت نفوسنا بما هو واقع لا بما نتخيله من غير تبصر وروية اهتدينا الى واجبنا القومي وعلمنا ان كان مجرد القول يجدينا نفعاً وهل الاجدر بنا دوام الاسترسال مع الامانى التى لا مرجع لها من عملنا وكدنا أم اطالة التفكير فى الحوادث التي تجرى علينا لتميز الصالح لنا من الضار بنا ولنقصد باب النجاة فندخل منه ولا نبتغى عنه من ذلك الخيال بديلا

غرضي من ترجمة هذا الكتاب ان يكون مرآة يرى القرآء فيها أمتين عظيمتين ودولتين فخيمتين تتنازعان اقتسام الوجود قد سبقت احداهما الاخرى فلما رأت هذه تأخرها جعلت تفكر فى أسباب تلك الافضلية وقام العقلاء فيها وأرباب الاقلام يخبرونها بأسباب ضعفها ويرشدونها الى سبل الاصلاح فلم تنفر من هذا النداء بل أجابت الدعوة شاكرة مرشديها وثارت مذعورة في طلب الكمال والتشبه بجارتها . وأخلق بنا ان نتعظ بأعظم منا ونتمثل بمن بيننا وبينه فى العلم والتهذيب والقوة والسلطان والهمة والاقدام ما بين الارض والسماء . ثم نأسف على زمن قضيناه فى التمنى وننفض عنا غبار الاوهام ونلتمس اصلاح شؤوننا بأنفسنا ولا نحجم عن سلوك طريق الكد والعمل فهو الذى فيه الحياة ودونه الموت الصحيح

غرضي من ترجمة هذا الكتاب لقومي هو غرض المؤلف من نشره على قومه لذلك يجمل بي ان أستعير في البيان عبارته حيث يقول

«ان الحياة ليست لعباً ولهواً وانما هي مغالبة دائمة ضد المتاعب والمتاعب لا تحصى والمتاعب متجددة في كل آن ولن تنالوا النصر في هذا الجهاد الا اذا جعلتم كل اعتمادكم على أنفسكم لا على غيركم اذ كل ما يمكن لاهليكم وأصدقائكم ومحبيكم وجيرانكم وحكومتكم ان يساعدوكم به أقل في الحقيقة بكثير مما يمكنكم ان تساعدوا به أنفسكم بأنفسكم اذا عولتم عليها ولم ترجعوا في أموركم الا اليها »

هذا غاية الحكمة ومنتهى الرأى الصواب فاتبعوه ان كنتم للسعادة طالبين

وانما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعول في الدنيا على رجل

مصر في أول صفر سنة ١٣١٧ — ١٠ يونيه سنة ١٨٩٩   احمد فتحي زغلول



مقدمة المؤلف

للانكليز السكسونيين أفضلية لاشك فيها لان كل انسان يشعر بها ويقدرها قدرها ومن أكبر الدلائل عليها مايجده كل واحد عند ملاقاة الانكليزى من التهيب والحذر والغبطة أحيانا

نحن لا نكاد نخطو خطوة فى العالم الا وجدنا الانكليزى أمامنا ولا نرى بنظرنا الى أملاك قديمة الا رأينا العلم الانكليزى يخفق عليها وقد احتل الانكليزى السكسوني الاماكن التي كانت لنا فى أمريكا الشمالية من كندا الى لويزيان وفى الهند وفى موريس التى كانت جزيرة فرنساوية قديمة وفى مصر وهو الان يشرف على أمريكا بكندا والولايات المتحدة وعلى أفريقيا بمصر ورأس الرجا الصالح وعلى أسيا بالهند وبرمانيا وعلى الاقيانوس باوستراليا وزيلاندا الجديدة وعلى أوروبا وعلى العالم بأجمعه بمتاجره وصنائعه وسياسته والخريطة التى رسمناها في أول الكتاب يدل بأجلى بيان على مالهذه الامة من القوة على الانتشار فيخيل انها تريد ان تقوم مقام المملكة الرومانية فى سياسة الدنيا

لغير الانكليز من الامم مستعمرات كفرنسا والمانيا وايطاليا وأسبانيا الا انها مستعمرات تنحصر منافعها على الخصوص فى الموظفين فنرى سلطتها العسكرية ممتدة فى تلك الأقاليم ولكنها لاتأهلها ولا تغير من أحوالها ولا تعود على الاقامة فيها كما هو شأن الانكليزى السكسونى وللروسيا والصين

املاك شاسعة الا ان غالبها خراب وقد لا يدخلها التمدن الا بعد زمن طويل .
أما الامم الانكليزية السكسونية فانها بلغت ذروة التمدن الفعال الذى يترقى على الدوام وينبسط فى جميع الارجاء فلا يكاد ذلك الجنس ينزل بمكان مهما كان من الارض الا بدله وادخل فيه بسرعة عجيبة اقصى ما وصلت اليه الامم الغربية من التقدم والترقى وقد تفوتنا فى ذلك غالباً تلك الامم الحديثة حتى انها تسمينا بالدنيا القديمة تسمية تشعر باحتقارها لنا ونحن في الواقع نظهر بجانبها من القدماء . انظر الى ما فعلناه فى كاليدونيا الجديدة وأملاكنا فى الاوقيانوس وانظر الى مافعلوه فى اوستراليا وزيلاندا الجديدة وقابل بين ما فعله الاسبانيون والبرتغاليون فى امريكا الجنوبية وبين مافعله الانكليزى السكسونى فى أمريكا الشمالية تجد الليل والنهار

ولنا على هذه الافضلية دليل قاطع فى الاحصائيات الرسمية التى تنشرها شركة قنال السويس فقد كان عدد المراكب التي مرت فى القنال مدة سنة واحدة كما يأتى :

مراكب فرنساوية ١٦٠

مراكب المانية ٢٦٠

مراكب انجليزية ٢٢٦٢

وعندى انه لا يكفى بيان هذه الافضلية والنداء بها على منابر النواب أو صفحات الجرائد واظهار الغيظ مشيرين بقبضة اليد الى الانكليزى كما تفعله القواعد من النساء الغضابى بل الواجب أن ننظر الى الامر من حيث ضرورة الاستعداد له كباحث يرتاض الحقائق بتأن وامعان حتى

يصل الى معرفة أسبابها لان حاجتنا هي فى الواقع اكتشاف السر فى انتشار تلك الأمة وتقدمها في المدنيـة والعمران لنهتدى بذلك الى معرفة الوسائل التى أدت اليه

والغرض من هذا الكتاب هو البحث عن تلك الاسباب لأني أرى ان حياتنا ومستقبل أبنائنا متوقفان عليه

مقدمة الطبعة الثانية

قول

﴿ فيما يدّعى من أفضلية الالمانيين ﴾

أبدأ بشكر الصحافة والقراء على حسن قبولهم هـذا الكتاب الذى انتهت الطبعة الاولى منه فى بضعة أيام وغرضى فى هذه الطبعة الجديدة ان اجيب مقـدما على اعتراض عساه يخطر بالبال وهو من المعلوم ان التجارة الالمـانيـة عظمت منذ خمس عشرة سـنة حتي احجمت امامها التجارة الفرنساوية فى جميع الجهات واضاعت جميع المراكز التى كانت تشغلها واحدا فواحدا وقد يخطر ببال المتأمل في هذا التقدم التجارى انه ربما يخشى منه أيضا على تقدم الامم الانكليزية السكسونية فى التجارة

ويكفى للاجابة على ذلك ان نوضح الفرق بين الاسباب التى توجب قوة الانكليز السكسونيين وكنه هذه القوة وبين علة قوة الالمانيين . وانى

اقتصر هنا على بيان مقدمات هذه المسئلة وتوضيح عناصرها واشير على كثير من الشبان الذين حضروا درسنا فى العلم الاجتماعى ان يتوجهوا فى هذا الصيف الى المانيا ليشاهدوا حالة تلك البلاد بأنفسهم

تكثر الجبال في القسم الجنوبى من المانيا كما تكثر الرمال والمستنقعات والجدب في الشمال ولذلك كان أهلها على الدوام من الفقراء المتعودين على التدبير فى حاجاتهم والبساطة فى معيشتهم والاكتفاء بالاجر القليل ففضيلة البساطة المشهورة عن الالمانيين هى فضيلة الجأتهم اليها طبيعة بلادهم وذلك مما يضعف من شأنها ولقلة اجور الفعلة وقلة حاجات تلك الامة انحصرت المصنوعات الالمانية بحكم الطبيعة دائما في الاشياء المستعملة عند العموم ذات القيمة الزهيدة وهى حالة تستلزم فى الحقيقة تأخر امتها الاانها صارت الآن مزية عند الالمانيين لسبب خارجى على انها لن تدوم ابداً . وبيانهُ ان اتساع نطاق وسائل النقل سهل الوصول الى البلاد الجديدة اوالمتأخرة في التمدن ومكّن من الاختلاط بالامم البسيطة او الهمجية فكثر عدد الذين يشترون البضائع العادية الرخيصة ووجدت الامة الالمانية سوقاً جديدة لمبيع سلعها واستفادت من ذلك على قدر اموال تجارها واقتدارهم فى الصناعة والبيع والشراء ولكنها فائدة صغيرة لقلة رأس مال كل تاجر على حدته وضعفه منفرداً . وطلباً للزيادة مال التجار الى عقد الشركات فجاءت لهم عوناً على نشر متاجرهم وتوسيع نطاقها وتوفر المال لديهم فاقاموا الاسواق الكبيرة لعرض متاجرهم ومعرفة الانواع التى يكثر الطلب فيها

وهذا عمل نستفيد منه علماً لدلالته على ان الشركات تسد جزءا

عظيماً من النقص الذى ينشأ عن طبيعة الاماكن والعمل والتربية التى تزيد فى الشخص قوة الميل الى الاشتراك اكثر مما تهيئه الى العمل بنفسه سنبينه فى هذا الكتاب . الا ان الشركات لا تزيل النقص وان خففته ولذلك فهي لا تفيد الالمانيين الا حيث تسهيل العمل دون ان تحدث فيهم ما احتاج اليه كل فرد من القدرة الشخصية التى تمكنه من التقدم فى الصناعة والتجارة بنفسه ولنا على ذلك ما جاء فى رسالة نشرت حديثا فى المانيا عن تجارة تلك الامة فى بلاد الترنسفال وبعث سفيرنا المركيز دى نواى بنسخة منها الى وزير التجارة مما يدل على تأخر التاجر الالمانى منفرداً عن التاجر الانكليزى السكسونى كذلك قال كاتب الرسالة «يحتاج التاجر الالمانى الى مساعدة حكومته والا احاط به الفشل كما اصابه فى منافسته مع الانكليزى اولاً فالالمانى يخرج الى العمل برأس مال صغير ثم هو على مابه من اقدام قليل الصبر غالبا» ولعله قال قليل الوسائل لان الالمانى صبور « فلا ينتظر النجاح بل تنحل عزيمته اذا خاب مرة فى مساعيه أما الانكليزى فانه يعلم أن النجاح معقود باطراف المثابرة» ولديه من الوسائل ما يساعده على الانتظار «وفى الالمانيين عيب خاص يحبط مسعاهم غالبا فى « الترنسفال » وهو جهلهم بحركة الاسواق فيأتون ببضائع لا طلب لها يضاف الى ذلك عدم اعتنائهم بربط المتاجر وتغليفها» وهذا يدلك على مقدار تمكنهم فى علم الاقتصاد المشهور عنهم قديما « وجهلهم بطرق التسفير وعدم التفاتهم الى اختلاط الاجناس فى أسواق تلك البلاد . ومن أسباب عدم نجاح التجارة الالمانية اختيار العمال ممن لا خبرة لهم بالتجارة وحاجات البلاد

التي يعملون بها ثم عدم اطلاق صراحهم في العمل كما ينبغي»

ويعلم القارئ من أقوال صاحب الرسالة وهو الماني ان الالمانيين وان توصلوا بالشركات الى توسيع نطاق تجارتهم حتى خيل انهم يهددون تلك القوة العظيمة التي امتاز بها الانكليز في التجارة والصناعة لا يتيسر لهم ان يلحقوا ضرراً صحيحاً بهؤلاء

ذلك لان طريقة الانكليزي السكسوني في التجارة والصناعة تختلف عن طريقة نظيره . فالانكليز السكسونيين انما استولوا على الأسواق في الدنيا بأنفسهم وجدهم الشخصي من غير مشاركة غيرهم لهم في العمل ولا مساعدة الحكومة وبالجملة فانهم توصلوا الى ذلك بواسطة أحوالهم الاجتماعية التي ألفنا هذا الكتاب في بيانها . وبديهي ان أفضلية الرجل الذي يأتي بنفسه من الاعمال مالم يأته غيرهُ مع الاستعانة فيه الا ناقصاً لاتحتمل الشك ولا تحتاج الى الدليل وهذا هو حال الانكليز السكسونيين بالنظر الى غيرهم ومهما اجتهد الالمانيون وبالغوا في نشر متاجرهم في أسواق الدنيا فانهم لن يسبقوهم بل تبقى لهم تلك الأفضلية لأن الفضل الذاتي أثبت قدما من الفضل المكتسب وكل انكليزي تاجر كبير بنفسه وصانع عظيم بعمله فلا خوف عليهم من صناع لاقوة لهم الا مجتمعين ومن تجار لاحول لهم الا مشتركين

ثم انه يجب على التجار ان ينوعوا تجارتهم وعلى الصناع ان يتفننوا في صناعتهم حتى تكون المتاجر والمصنوعات موافقة لرغائب الناس وطلبات الشرائين بحسب الزمان والمكان في كل آن ومعلوم انهُ يصعب على الشركات

التجارية والصناعية مهما قوى نظامها ان تتكيف بحسب الظروف لما يوجد بينها وبين بعضها عادة من تخالف المنافع وحصول المنافسة فالخلف لازم لطبيعة الشركات وهو السبب فى اختلالها وهنا يثبت ان العمل قد يخالف العقول وان كان سديداً

ان الشركات الصناعية لا يمكنها ان تقاوم هذه البيوتات الانكليزية السكسونية لاجتماع أزمتها فى قبضة رجل واحد أو رهط من الرجال متحدين فى المنافع ذى رأس مال طائل ولهم من الدراية ما يفوق الوصف مما هو طبيعى فى تلك الأمة التى يسهل عليها ان تدور مع أحوال التجارة كلما رأت ان الكسب قد وقف لتتجه فى طريق جديد . وبرهانه انه لما أحس الانكليز بغارة التجارة الالمانية صاحت جرائدهم باصوات التحذير كما هو الواجب على كل حارس أشد تيقظاً من حراسنا وذلك يدل على شدة حذرهم وقوة التفاتهم لما عساهُ يهدد ولو من بعيد أفضليتهم العظيمة فى التجارة والصناعة . ولقد أخطأنا فى فهمنا ان ذلك الصوت نذير الدمار صاحوا بهِ لكى ينجو من يتمكن من النجاة ولا يجوز ان يجول هذا بخيالنا لان الفرق بين مائتين وستين مركباً المانية تمر فى السنة بقنال السويس وبين ألفين ومائتين واثنتين وستين مركبا انكليزية لايخفى على من تأمل

على ان الصناعة الالمانية لم تتقدم فى الأسواق على الصناعة الانكليزية كما قدمنا الا فى السلع الاعتيادية ذات الثمن الزهيد ولما رأى الانكليزى انهُ لا يمكنهُ صنع مثلها بمثل ثمنها فى بلاده حيث الاجور مرتفعة حول نظره الى صنعها فى بلاد أخرى تقل فيها حاجات الأهالى فاتخذ فى تلك البلاد

بيوتا تجارية ولا يخفى ما للانكليز من سهولة التوطن فى البلاد الاجنبية وانى أودّ أن يرتاح ضميرى فتلين تجارة فرنسا وصناعتها كما لان الانكليز فيهما

ويفضل الانكليزى الالمانى بامرين مهمين لا بد أن يتغلبا فى المستقبل

الاول ان الالمانيين على العموم ما عدا سكان (هنفر ووستفالي) الذين يلحقون بجنس الانكليز السكسونيين قليلو الهمة فى الزراعة فهم حضريون يفضلون الهجرة للتجارة عنها للاستعمار والزراعة فلا يتأصل نوعهم فى البلاد كما يفعل الانكليزى السكسوني . ومن هنا جاء أنهم كلما التقوا به يبتلعهم . هكذا يصير المهاجرون من الالمان فى أمريكا الشمالية سكسونيين بسرعة عجيبة فلم يتكلم الجيل الثانى منهم الا الانكليزية ويصبحون انكليزيين فى عاداتهم وطباعهم أنهم يتعجلون فى هذا التحول فيختارون حتى من الاسماء ما يوافق أسماء الانكليز . وهذا هو السبب فى ان الجرائد التى تصدر بالالمانية لا تثبت قدمها فى الولايات المتحدة الا قليلا لان قراءها ينحصرون فى المهاجرين الوافدين قريبا من البلاد الالمانية . وبينما طلاب المصنوعات الانكليزية يكثرون لزيادة عدد المستعمرين منهم فى جميع انحاء المسكونة وانتشار جنسهم فى الاصقاع كلها يقل عدد طالبى المصنوعات الالمانية لتحول المانيين عن الزراعة واستحالتهم الى انكليز سكسونيين طوعا لما فى هؤلاء من شدة المقاومة وقوة التغلب

وثانيهما شكل الحكومة التى وجدت فى البلاد الالمانية عقب قيام الامبراطورية لانا ذكرنا فيما سبق كيف ان المانيا القديمة توصلت على فقرها بعلمها واقتصادها الى بث روح الانتشار الصناعى والتجارى فى هذه الازمان

وقلنا ان ذلك راجع الى ما فطرت عليه تلك الأمة من المزايا الحقيقية التي بقيت كامنة فيها الى ان ساعدت الظروف على نموها نموّا فجائيا وتلك الظروف هي اتساع نطاق وسائل النقل وتسهيل طرق المواصلات . فتقدم الامة الجرمانية في عصرنا هذا ناتج عن المانيا القديمة اما الامبراطورية الالمانية الجديدة فانها لا تنتج غير انتشار الجندية والادارة ومذاهب الاشتراكيين كما هو مشاهد الآن مادامت على نظامها الحالى . ولا يخفى ان تلك النتائج لا تقترن بسعادة الامم التي توجد فيها وثروتها . الا ترى انه لم يكن عندنا أيام لويز الرابع عشر ونابليون غير الداءين الاوّلين ولقد ذهبا بنا الى أسوإ الاحوال . وكذلك كان شأن البلاد الاندلسية أيام الملك شارلكان وفيليب الثاني

ومن لوازم تلك النظامات فى أول الامر انها تمثل الامة بمظهر القوة السياسية والاجتماعية لانها تجمع بسرعة جميع العناصر الحية التى تكوّنت شيئاً فشيئا تحت ظل النظامات السابقة فى قبضة رجل واحد . وذلك هو الزمن المجيد الذى كان للبروسيا أخيراً كما كانت عليه الاندلس وبلادنا فى الازمان الغابرة . غير ان اجتماع قوى الامة الحية في يد واحدة يؤدى مع الزمن الى ضعفها كلها وتعطيل منفعتها فتنحل وتصير عقيمة وحينئذ يستولى الدمار والانحطاط على الامة . واذا استمرت الامبراطورية الالمانية فى الطريق التى وصلت منها « والظاهر انها تستمر » فانها لا تنجو من نتائجها وعلى الالمانيين أن يعجلوا الاستفادة من فضائلهم الاولى فينشروا تجارتهم ويكفوا عن ملامنا على تأخرنا فانما نحن السابقون وهم بنا لاحقون . والخلاصة ان

الامة الانكليزية السكسونية تعظم وتتقدم بما لافرادها من الاعمال المفيدة المتجددة على الدوام وبمالها من حكومة نفسها بنفسها والامة الالمانية القديمة تفقد كل يوم فضائلها الاولى التي كانت أساس قوتها الاجتماعية ولا تزال تمدها الى الآن وسببه الافراط فى السلطة السياسية . وقد توخيت تمييز المانيا القديمة من المانيا الجديدة فى هذه المقدمة لان كلامى فى الفصل الثانى من هذا الكتاب راجع كله الى هذه الاخيرة وأريد أن لا يلتبس الامر على القراء . وسنبين فى هذا الفصل كيف يسعى امبراطور المانيا كما اعترف هو بنفسه الى اعدام المانيا القديمة وايجاد المانيا الجديدة بواسطة تنظيم التعليم على مثال الامة البروسيانية

الباب الأول

﴿ الفرنساويون والانجليز السكسونيون فى المدرسة ﴾

يظهر الفرق بين انجلترا والامم الغربية الاخرى منذ عهد المدرسة وهو فرق كبير اذا عرفناه سهلت علينا معرفة السبب فى أفضلية الانجليز السكسونيين

كل أمة تنظم التربية حسب طبيعتها وعلى مقتضى أخلاقها وعوائدها ثم التربية نفسها تؤثر على الهيئة الاجتماعية وسيقف القارئ على بيان ذلك بما نقدمه له من الشرح على التربية فى فرنسا والمانيا وانجلترا وبعد ذلك

نخصص مطلبا رابعا نبين فيه تغير الاحوال فى هذه الأيام ونأتى على ذكر الطريقة التى يجب أن نتبعها فى تربية أبنائنا حتي يكونوا على درجة من الاستعداد تناسب الازمان الحاضرة التى أصبحت تخالف الازمان القديمة من جميع الوجوه

الفصل الأوّل

﴿ فيما اذا كان نظام التعليم بالمدارس الفرنساوية يربى رجالا ﴾

اذا سألت مائة شاب فرنساوى عقب خروجهم من المدرسة أى صنعة يريدون أن يشتغلوا بها اجابك ثلاثة ارباعهم انهم يتطلعون الى التوظف فى الحكومة . فاغلبهم يطمع فى الانتظام فى الجندية أو القضاء أو النظارات أو المديريات أو المالية أوالسفارات أوالمصالح الاخرى كمصلحة القناطر والجسور والمعادن والدخان والمياه والغابات والمعارف والمكاتب العموميه ودور المحفوظات وغيرها . ولا يميل الى الصنائع الحرة فى العادة منهم الا الذين لم يتمكنوا من الالتحاق باحدى المصالح الاميريه

ولما كانت الوظائف فى الحكومة معدودة عمدت الى طريقة الاختيار بقدر مالديها من الوظائف الخالية . وطرق الاختيار ثلاثة الامتحان والوسائط ومراعاة الانساب والاحساب الا ان الوسائط والانساب لا يعوّل عليهما الا نادراً والامتحان هو القاعدة العمومية : لذلك أصبح النجاح فيه الشغل

الشاغل لجميع شباننا فان مستقبلهم متوقف عليه وانحصر فكر العائلات فى ايجاد الوسائل التى تمكن أبناءها من هذا النجاح وهكذا تولدت فى أذهان الفرنساويين أهمية المدارس لأنها الواسطة الوحيدة التى توصل الى تلك المطامع وتجعل للانسان مركزاً فى أمته وعنى القائمون بأمرها الى جعل نظامها بحيث يساعد على هذا النجاح وهم معذورون لأن أهالى التلامذة لا تعتبرها الا بقدر من ينجح من طلبتها فى الامتحانات السنوية . والمدرسة التى يقل عدد الناجحين من متخرجيها تنحط درجتها ويهجرها التلامذة حتى صار الفوز فى الامتحان علة حياة المدارس الفرنساوية

ولا سبيل الى تهيئة الطلبة للامتحان الا بانهاك قوى المتعلم حتى يتحصل فى زمن يسير على تعليم سطحى يتناول جميع العلوم المطلوبة فى الامتحان

فأما قلة الزمن فلسببين . الأول ملاحظة السن المقرر قانونا للدخول فى بعض الوظائف وقد لاحظت الحكومة فى تحديده تقليل عدد الطلاب الذى يزداد كل يوم وجعل الامتحان صعبا . والسبب الثانى تعجل الشبان على التوظف لكى يترقوا سريعا قبل وصولهم السن المحدد للتقاعد

ولا شك فى ان التسرع فى الزمن والاكثار من المواد يجعلان التعليم سطحيا اذ كلما زاد عدد المتعلمين كثرت العلوم الواجب تعلمها وزادت صعوبة الامتحان ولم يعد فى امكان الطالب مهما بلغ من العقل والذكاء ان يتقن تلقى تلك العلوم كلها وأصبح يكتفى منها بتصفح أوراقها . ولو ان المعلمين أنفسهم تقدموا الى الامتحان مع طلبتهم لعجزوا عن الاجابة على كثير من المسائل وخيف عليهم من الخذلان . ولو كان الغرض من هذه الطريقة ايداع

المعلومات الحقيقيــة فى اذهان التلامــذة وتربية ملكاتهم العقلية لرسخت التعاليم عندهم غير انه لا نتيجة لهـا ولا يقصد بها الا تشحيذ الذاكرة . لذلك قلنا ان التعليم لا يدوم الا قليــلا فلا يكاد التلميذ يجتاز الامتحان الا وقد أدركه النسيان . والناس لا يرون فى هذا ضرراً لحصول الغرض المقصود اذ يكفى ان يكون الطالب مستعداً لجواز الامتحان فان وفاه حقه صار كل مرغوب بعده من الكماليات . فبه يحصل التوظف وهو منتهى الآمال . وعلى هذا يتبين لك ان الامتحان أصبح السبب الوحيد فى تكليف التلامــذة مالا يطيقون ومن أجله أيضاً وجد نظام انقطاع الابناء عن أهليهم وسكناهم بالمدارس ليلاً ونهاراً وهو النظام المعروف عندهم (بالداخلية)

وقد احتاجوا الى ذلك لاعتماد الفرنساويين فى تربية أبنائهم على المدرسة توصلا الى النجاح فى الامتحان حتى ينالوا وظيفة فى الحكومة . وصعوبة الامتحان على ما قدمنا تقتضى طرقا مخصوصــة فى التعليم ووسائل تجهلهـا العائلات وان لم تجهلها فانه لا يتيسر لهـا استعمالهـا ولا ان تراقب العمل بها ومن جهة ثانية فانهم يخافون ان يضيع الوقت ويخشون من اشتغال أبنائهم بمـا يلهيهم عن الغرض المقصود ان لم يبيتوا في المدارس

وممـا لا شك فيه ان هذا النظام ملائم لذلك الغرض كما ينبغى أى انه يهيئ الطلبة الى الوظائف الملكية والعسكرية . وبيانه ان الموظف الحقيقى هو الذى يجب عليه ان يتنازل عن ارادته ولهذا وجب ان يتربى على الطاعــة ليسهل عليه تنفيذ أوامر رؤسائه من غير مناقشة ولا نظر فيها لأن المطلوب منه ان يكون آلة فى يد غيره . والداخلية من أعظم البواعث على هذه التربية

لان المدرسة نظمت على نسق ثكنة عسكرية يقوم الطلبة فيها من نومهم على صوت البوق أو رنة الجرس وينتقلون مصطفين بالنظام من عمل الى آخر ورياضتهم تشبه الاستعراض العسكرى فهم لايخرجون من الدرس الافى رحبات داخل البناء عالية الاسوار ويتمشون فيها جماعات كأنهم لايلعبون . وليس لهم من الزمن مايستريحون فيه من عناء الدرس والمطالعة فلهم نصف ساعة فى الصباح وساعة بعد طعام الظهر ونصف ساعة بعد العصر ومعدل خروجهم من المدرسة يوم واحد في الشهر ولا يتيسر للعائلات زيارة ابنائهم اكثر من مرتين فى الاسبوع مدة ساعة على الاكثر فى مكان مخصوص مزدحم بالموجودين بحيث يسمع بعضهم بعضا. ومن الواضح ان هذا النظام يضعف فى الشاب قوة العمل الاختيارى ويوهن الهمة والاقدام كما أن من شأنه أيضا ازالة ماقد يوجد بين الطلبة من تفاوت الانساب لان الدائرة التي تدور على الجميع واحدة فتجعلهم فى الحقيقة آلات معدة للعمل الذى يقصده منها . ومما يزيد فى سهولة انقيادهم وحسن طاعتهم كون النظام الذى تربوا عليه لا يؤدى الى تربية الفكر والتعقل بل الطالب يتناول مسرعا كثيرا من المواد سواء أحكم تعلمها أم لا ولا تشغل من ملكاته الا الذاكرة فكما أنه يتلقى التعليم من دون نظر فيه تراه ينحنى من غير تردد أمام الاوامر التى تصدر له من رؤسائه فى المصالح التى يوظف فيها ولا غرابة فى هذا الفن فان مصدر ذلك التعليم وتلك الأوامر واحد فى الحقيقة وهي الحكومة . وكانى بهم يقولون له : أيها التلميذ ان الحكومة قد علمتك مبادئها فصرت اليوم موظفا تتلقى أوامرها . ومرجع الصفتين واحد

كما ترى

وأول من التفت الى جعل المدارس أماكن لتربية الموظفين نابوليون الاول. ففى القرن السابع عشر والثامن عشر كانت «الداخلية» نادرة ولم تعمم الأيام الامبراطورية الاولى. فلما أسس نابوليون الاول مدارس الحكومة جعلها قاعدة عمومية لانه ما كان يتيسرله ان يدير السلطة الكلية التى جمعها فى يده الا بكثرة عدد الموظفين ووجب من ذلك الحين على الحكومة ان تلاحظ تربية الشبان الذين تضطر الي استخدامهم فمالت بالطبع الى تقرير المبادىء التى توافق مصلحتها وتعويد الطلبة عليها قبل نمو الادراك الحقيقى فيهم حتى تتوصل بذلك الى الغرض المقصود وهو اضعاف همتهم وتعويدهم على الطاعة والاشتراك فى الاحساسات والتجانس فى الافكار وبالجملة فانهم ينشأون على مامن شأنه محو الانانية فى الانسان. وقد سرت الحكومات التي جاءت بعد الامبراطورية الاولى على اختلاف أشكالها فى ذلك المنهج وهو الذى تبنى عليه اليوم سياسة البلاد فلم ينقص عدد الموظفين ولم يضعف جمع السلطة فى اليد العليا بل زاد ذلك من أول هذا القرن ونشأ عنه اتساع نطاق التعليم السطحى كما انتشر نظام الداخلية فى المدارس

ذلك هو النظام الذى يتربى عليه السواد الاعظم من الفرنساويين رجاء الفوز فى الامتحان الذى يفتح لهم باب الوظائف فى الحكومة. غير أن نجاحهم ليس على قدر أملهم فكلهم آمل وليس الكل موظفين. ويصبح الذين سدت أبواب الحكومة فى وجوههم مضطرين الى طلب

العيش من باب آخر . وهنا يجب النظر فيما اذا كان نظام المدارس الحالى وافياً بالغرض المقصود من تربية الرجال على مبادئ الارتزاق من غير الحكومة أم لا كما انهُ صار وافيا بتربية الموظفين . وهذه مسئلة كبرى ينبغى الالتفات اليها

ومن المعلوم انهُ لا يتيسر للانسان ان يحصل معيشتهُ الا اذا كان ذا ارادة وهمة وكان متعوداً على الاعتماد على نفسه . والنظام الذى شرحناه لا يساعد على تربية هذه الملكات بل انهُ يضعفها ويميتها ويعوّد العقل على انتظار المراكز المجهزة من قبل حيث لا يكلفهُ التقدم فيها الا ان يكون صبوراً لا ان يكون صاحب عمل اذ الترقى فى الجيش وفي مصالح الحكومة انما يحصل بالاقدمية والاستصناع وكل الذى يجب على الطالب ان يعملهُ هو الدخول فى الخدمة . ومتى استقر فى وظيفته يترك نفسه فينتقل بحكم العادة من وظيفة الى أخرى . ومن كان هذا شأنهُ قل ان يكون شجاع النفس ذا قلب يميل الى التعب حبا في الحياة . وينبغى أيضا لمن يطلب الرزق بنفسه ان يكون شاباً لأن الشبوبية تسهل للانسان اجتياز العقبات التي تصادفهُ بالطبع في بداية العمل أياً كان . ثم هى لازمة على كل حال لمن يريد أن يتعلم صنعة من الصنائع . وطالب التوظف فى الحكومة مضطر الى البقاء بغير كسب حتى يبلغ الحادية والعشرين أو الخامسة والعشرين وربما كانت الثلاثين وأكثر منها . فاذا ضاع أمله فى الاستخدام أمسى وقد سدت أمامه أبواب حرف كثيرة ولات حين اعتناقها لفقد وسائلها ثم الحرف فى الغالب صعبة المنال قليلة النفع فى أوائلها ولا تنسَ ان الطمع يشتد فى الانسان كلما

تقدم فى العمر . وكلما زاد الطمع صعب نوال المطلوب . وهكذا يفوت الوقت وتتعاقب الأعوام وتزداد الصعوبات والمرء واقف بين الأقدام والأحجام

وليست الشبوبية بكافية وحدها بل لابد معها من ان يكون فى الشاب استعداد وميل للصناعة التى يطلبها وان يكون على معلومات تليق بها اذ لا يصير المرء من أرباب الزراعة أو الصناعة أو التجارة دفعة واحدة بل كلها أعمال تقتضى التدرّب ولا تنال الا بالعمل واقتفاء أثر الآباء والأجداد

ونظام مدارسنا لا يهيئ الى مثل تلك الأعمال بل انهُ يبعد المتعلمين عنها لانهُ يغرس فيهم الاعتقاد بأفضلية الوظائف فى الحكومة . وكثير ممن لا حياة لهم الا بالزراعة أو الصناعة أو التجارة يندهشون عند ما يسمعون أبناءهم يوم يخرجون من المدرسة يقولون انا لا نريد أن نحذو حذو آبائنا . وما للدهشة موجب فان المدرسة قد بغّضت اليهم صنائع آبائهم حتى صار الناس لا يلومون الشبان على فرارهم من المهن والصنائع الجارية مع كونها أشرف الأعمال وأنفعها . ومن يرجعون منهم اليها بعد خذلانهم فى الامتحان لا يعملون فيها الا عن قهر واضطرار على غير استعداد ولا ميل . فهم يدخلونها وشروط النجاح غير متوفرة لديهم

ومع ما تقدم فان نظام المدارس عندنا يهيئ المتخرجين منها الى عملين آخرين غير التوظف فى الحكومة وهما الاستخدام فى المصالح الحرة واعتناق الحرف الادبية . فاما كونهُ يهيئ الى الاستخدام فى المصالح الحرّة فظاهر لما بين مصالح الحكومة والمصالح الحرة من الشبه فان هذه لا تطلب من مستخدميها استقلالا فى العمل ولا قوة فى الارادة ولا اجتهاداً أكثر مما

تلك . وهى مثلها فى ضمان المعيشة . والتقدم فيها محقق بطبيعة نظامها وان كان بطيئاً . فان لم ينجح فى الامتحان يركض نحو تلك المصالح حتى كثر عدد الطلاب وتعذر عليها أن تستخدمهم جميعاً . وكذلك كثر الميل الى الاحتراف بالحرف الادبية لان نظام المدارس من شأنه أن يوجد عند الطلبة معلومات عامة لكثرة عدد المواد التى يدرسونها فيخرج الطالب منها وهو على اعتقاد تام بأنه عالم بكل شئ لانهُ مرّ على كل شئ وفى وسعهِ أن يتكلم عنه أو يكتب فيه فيصير رجلا أديبا من أى صنف كان . على انهُ مضطر للالتجاء الى تلك الحرفة فان المدرسة لم تحسن تربيتهُ أو انها جعلتهُ غير صالح لان يكون ذا صنعة مستقلة غيرها . ومما هو مشاهد للعيان ان نظام التعليم عندنا يربى أذهان الذين يحترفون بتلك المهنة على كيفية مخصوصة وهى ضعفهم فى البحث فلا يكاد الواحد منهم يجيد النظر فى مسئلة الا قليلا . لكنهم من ذوى الاقتدار التام فى التخيلات والحكم بالاستقراء الناقص مما يقرب الى الخطأ أكثر منهُ الى الصواب . ومن أحسن مايستدل بهِ على ذلك مطالعة (جريدة المطبوعات) التى تنشر كل يوم مايؤلف من الكتب الادبية فى فرنسا اذ يتبين ان المؤلفات التى تقتضى وقتا وعناء تقل يوما فيوما . والذى يؤلف منها هو فى الغالب نقل من كتب متعددة على شكل كتب دائرة العلوم لا مؤلفات شخصية وضعها صاحبها بعد اطالة الفكر وامعان النظر . بل تلك رسائل مطولة سهلة التناول . والغرض منها جمع عدة مسائل بكيفية تسهل الوقوف عليها ولم يعد يوجد فى فرنسا من مؤلفى الكتب الشخصية وقرائها الا عدد يسير . ومن هنا جاء ان ملتزمى طبع الكتب يحجمون عن

طبعها اذ زادت عن مجلد واحد أو مايقرب منه . وليلاحظ ان هذا الضعف وعدم القدرة على درس المسائل كما ينبغى ليس ناشئا من طبيعة الامة الفرنساوية بدليل الفرق بين مؤلفات القرنين السابقين وأول القرن الحالى وبين المؤلفات التي ظهرت منذ أربعين سنة . بل مرجع هذا الضعف صيرورة التعليم سطحيا فى المدارس لعلة الامتحان . ومتى تعوّد الفكر على الاخذ بظواهر الاشياء . وأن لا يطالع الانسان الا فى كتب صغيرة . وان يكون سريع الفهم لاقويم الحكم . وأن يكثر من الاحاطة بعدد كبير من المسائل فى أقرب وقت تشبها بواضعيها من غير تأمل استحال عليه أن يجيد البحث لصيرورته غير قادر عليه . ويزداد هذا الضعف بمقدار زمن ذلك التعليم السطحى . وأشده عند طلبة المدارس العالية فهم يفضلون غيرهم بقوة الذاكرة وسرعة الخاطر وسهولة فهم المراد وهى الملكات التى عنى بتربيتها فيهم وكان سببا لنجاحهم فى الامتحان . الا أن عجزهم يظهر اذا طلب منهم ان يعملوا عملا من وظائف تلك الملكات التى ارتفعت صورة وانحطت حقيقة والخلاصة ان وظيفة المدارس عندنا فى هذه الايام قد انحصرت فى تربية الموظفين ولم تعد صالحة لغيرها وبعدت الشقة بينها وبين مايجب لتربية رجال حقيقيين

الفصل الثانى

﴿ وفيما اذا كان نظام التعليم فى المدارس الالمانية يربى رجالا ﴾

من نكد الطالع انه لا يدوم لنا موضع رجاء . كانما روح خبيثة سلطت على كل عمل نرجو الفلاح منه . وقد حان الحين على المدارس

مضي علينا زمن لم ندخر ثمينا الا بذلناه فى سبيلها حتى بلغ اعتناؤنا بها درجة العبادة . والسبب فى هذا الاهتمام انه لما انتصر علينا الالمانيون ظننا ان علة انتصارهم تقدم مدارسهم فاكثرنا من مواد التعليم وزدنا عدد المدارس وبذلنا النفيس حتى اصبحت اماكن التعليم قصوراً عالية وعم الاهتمام جميع افراد الامة ثم صيرنا التعليم مجانا ثم اجباريا على جميع الناس . فدخل المدرسة ابن الفلاح وابن الحضرى ومقتنا كل من ارتاب فى نفعها . وكانت الافكار متجهة الى تقليد الالمانيين فى كل شيء فاخذنا عنهم نظامهم العسكرى وجاريناهم فى أساليب التعليم وطرق التربية وعلم أصول اللغات الذى اشتهروا فيه بتعمقهم وسفسطتهم اعتقاداً منا بانه لا تقوم لنا قائمة الا اذا تعلم أطفالنا متون اللغة اللاتينية . هكذا كان رأى المدرسين وفى أثرهم جميع الفرنساويين

ولم يمض زمن طويل حتى انقلب هذا الاعتقاد وقال أهلوه انهم كانوا فى رأيهم مخطئين واجمعوا فى البلدين على عدم فائدته كما كانوا على استحسانه من قبل مجمعين

اما عندنا فبدأ المتأملون يهمسون برأيهم فلما وضح الامر جهروا بان

المدارس لم تأت بالفائدة التى كانت تنتظر منها . وان الاكثار من مواد التعليم قد أوجب ضعف المعلومات . وان عدد الناجحين فى الامتحان يميل كل يوم الى النقصان . واستشهدوا بالوقائع والارقام . وقال المتطرفون ان توسيع نطاق المدارس كان سبباً فى كثرة من لا صناعة لهم ومن لا قدرة فيهم على العمل . وان فى ذلك خطراً عظيماً . وصدرت هذه الاقوال فى مبدإ الامر عن قوم لاعلاقة لهم بجماعة المعلمين ورجال الحكومة فلم يلتفت احد اليها وظنها الناس تحاملا على المعلمين . وما كان الا قليل حتى قام رجال التعليم فى فرنسا ومنهم الرؤساء العظام كوزراء المعارف ورفعوا أصواتهم بتلك الشكوى وصاح بعضهم فى صحن مدرسة السربون [1] انه لا بد من ادخال الاصلاح على نظام التعليم . وان الحال يقتضي التعجيل بلا مهل . ولولا ان الالمانيين كانوا يضجون فى برلين عاصمة بلادهم بمثل هذه الشكوى لظن الناس ان صراخنا من قبيل ما عرفنا بهِ من حب التغيير وسرعة الانتقال بين حدى التفريط والافراط . وناهيك ان صاحب الشكوى الالمانية هو الامبراطور نفسه . وكانت النتيجة ان اتفق البلدان على الجهر بان نظام المدرسة لم يأت بما كان ينتظر منه بعد ان كانا يطنطنان بانه لا فضل فوق فضلهِ

ولافادة القراء نذكر لهم خطاب امبراطور المانيا [2] لعرفوا السبب فى شكواه ويقف على الذى يريده من المدارس فى بلاده وطريقة التعليم التى يميل اليها ويتبينوا ان كان فى الامكان تحقيق امانيه

---

(١) هى أكبر مدرسة جامعة وفيها مركز الجمعية الكبرى للتعليم (٢) هو خطاب القاه الامبراطور غليوم الثانى على جمعية المعارف الالمانية منذ سنتين

خص الامبراطور القسم الاول من خطابه بشرح هذه الجملة «ان المدارس لم تعطنا ما كنا نرجوه منها» ومن رأيه ان المدرسة لم تنجح فى التعليم نفسه أي فى ايجاد المعارف فى الاذهان . «قال ما كنت فى احتياج لاصدار الامر الذى تفضل حضرة الوزير بذكره لولا ان المدارس لم تصل الى الدرجة اللائقة بها . وليعلم عنى انى ماقصدت بالشدة واحدا من الناس . ولكن فكري موجه الى نظام التعليم نفسه وأقول ان المدرسة لم تأت بما كنا ننتظره منها . وسببه الخطأ فى أمور كثيرة» ثم أخذ يندد بالتعليم وبالمواد التى يجرى فيها والطريقة المتبعة وبدأ بفن تعلم اللغات الذى كانوا يبنون عليه آمالا كبيرة معتقدين انهُ سيصير علماً يكون من أكبر الاسباب فى تضلع الطلبة من علوم الادب فقال «ان الامر المهم الذى يجب الالتفات اليه هو ان مدرسي اللغة وجهوا جل اهتمامهم الى مادة التعليم والى التعليم نفسه منذ سنة ١٨٧٠ لكنهم لم يلتفتوا الى تربية الاخلاق والنفوس على ما يحتاج اليه فى هذه الاوقات وانك ياحضرة المستشار هنزبيتر وأسألك العفو فيما أقول «من علماء اللغات ذوى الخيال . غير انى أرى الامر وصل الى حد لا يجوز أن يتعداه»

ويرى القارئ من ذلك ان الامبراطور شديد على النظام اشتداده على موضوع التعليم وهو اللغة اللاتينية التى اعتبرت الى الآن أساسا لكل تعليم فان الالمانيين يفتخرون بعلماء تلك اللغة منهم افتخارهم بعلماء اللغات الاخرى وقد آن أوان انصرافهم عن هذا الخيال قال ملكهم «يكثر الناس أيها السادة من الاعتراض فيقولون ان اللاتينية لازمة لتعويد المرء على مطالعة اللغات

الاجنبية الى غير ذلك من الاقوال . على انى أيها السادة كنت أيضا أتعلم اللاتينية وأعرف كيف كان يكتب التلميذ درسه فيها . كان الواحدمنا ينال الدرجة الرابعة فى درسه الالمانى وهى الدرجةالمتوسطة فى الغالب وينال الدرجة الثانية فى اللغة اللاتينية وهى درجة عال . ولو كان الامر بيدى لعاقبته بدل المدح والثناء . اذ من الواضح انه ليس هو الذى كتب درسه اللاتينى بنفسه بل انهُ لم يوجد واحد فى الاثنى عشر كتب درسه بغير معين ومع ذلك كانت كلها ملحوظة بعين القبول والرضاء . هكذا كان يتعلم الشبان تلك اللغة على انه لما كنا فى المدرسة الابتدائية ما كان الواحد منا ينال الدرجة المتوسطة فى كتابته على (مينا برنهلم) أو على (ليسنج)[1] الا بالمشقة والعناء لهذا أقول تباً للدرس اللاتينى انه يضاقنا ويضيع علينا وقتنا»

ثم انتقل الى الكلام على خيبة التعليم من الجهة العمليه أعنى من جهة تكوين الرجال وأعدادهم للنجاح . وهو أهم قسم فى خطابه . وعلى كل حال فانه توسع فيه كثيراً وكان ناظر المعارف شرح فى خطابه الافتتاحى فكرة الامبراطور وبحث فيما اذا كان ينبغى للامة الالمانيه «ان تبقى أمة تفكر وتصورات تبحث عن راحتها فى مخيلتها مع ما حصل من التغيير فى حالة البروسيا وألمانيا» وقال بان ذلك لم يعد فى الامكان «اذ قد اتجهت انظار الامة الى الخارج بل ومالت الى الاستعمار» وهو قول واضح لا ابهام فيه يدل على ان الغرض مساعدة انتشار الامة الالمانيه واعدادها الى مشاركة الامم الاوروباوية فى الاستيلاء على العالم . لذلك أشار الوزير الى وجوب

(١) اثنان من رجال الادب الالمانيين ولد الاخير سنة ١٧٢٩ وتوفى سنة ١٧٨١

العدول عن طريقة التعليم فى المدارس العالية المتبعة الآن . واشتد الامبراطور فى الكلام على كيفية التعليم فقال «ألاحظ أولا أن الغرض من كلامي توجيه الافكار خاصة الى طريقة التعليم والتربية التي يجب علينا اتباعها فى تهذيب شبيبتنا حتى تكون مطابقة للضرورات الحالية التى أوجدنا فيها مركزنا بين الامم وقادرة على احتمال متاعب التزاحم فى الحياة » هاقد نطق الامبراطور بما كان مكنونا يريد اعداد الالمانيين الى التزاحم فى الحياة وجعلهم رجال عمل قادرين على التحصيل ومقاومة مزاحميهم من الامم الاجنبية فى البلاد الخارجية . وقد أخفقت مساعي المدارس فى هذا الموضوع لانه لا يخرج منها الا قوم لا حرفة لهم أولا أهلية فيهم أو أنهم لا يقدرون على غير الاشتغال بتحرير الجرائد . ومنهم من أنهك الدرس قواه فصار أعشى وأمسى ضعيف القلب فاتر العزم في أى عمل يحتاج اليه . ذلك ماصرح به الامبراطور فى كلامه قال مبتدئاً بتكليف التلامذة فى التعليم فوق طاقتهم مما أضعف أبدانهم وحط من قوة الارادة فيهم ما يأتى « واذا رجعنا الى أوقات التعليم رأينا من الضرورى تغيير ساعات العمل الذى يكلف به التلميذ فى بيته اذ يذكر حضرة المستشار (هينزبيتر) أن شكوى العائلات وعدم رضاهم عن الطريقة المتبعة الآن موجودان منذ كنت انا بمدرسة (كاسيل) الابتدائية وأن تلك الشكوى بلغت مسامع الحكومة فامرت بتحقيقها وتبين منها أنه كان يجب على كل تلميذ أن يقدم لناظر مدرسته فى كل صباح شهادة بمقدار الساعات التى قضاها فى تحضير دروس اليوم الثانى بمنزله . أما أنا فكنت أشتغل سبع ساعات كما يشهد به حضرة المستشار يضاف اليها

ست ساعات فى المدرسة وساعتان فى الاكل والباقى من اليوم معلوم»
وهو فى الحقيقة تكليف شديد لم ينج الامبراطور من اضراره الا باستعمال
طرق لاتتيسر لجميع الناس كما قال «ولولا أنى كنت أركب جوادى وانطلق حرا
فى غير الاوقات لما عرفت شيئاً من أحوال الدنيا»

نعم ركوب الخيل يخفف ضرر الافراط فى الدرس ولكنه لا يكفي
لمعرفة أحوال الدنيا . ومهما كان فى قوله من مواضع الانتقاد فأنه أصاب
منشأ الضرر وحث على وجوب ملافاته فقال «وأرى من الواجب مداواة
هذا الداء فقد بلغ السيل الزبى أيها السادة ولا قبل لنا على ترك الحال كما هى
اذ تجاوزنا الحد الذى ينبغى لنا الوقوف عنده وأتت المدارس بما فوق طاقة
البشر وتخرج منها من المتنورين مازاد على المطلوب زيادة لا تحتملها الأمة
ولا تطيقها الافراد» هذا كلام يخالف رأى الذين يزنون عظمة الامم وقوتها
بقدر عدد المتنورين من رجالها . قال الامبراطور «وقد أصاب البرنس
بسمارك فى قوله ان لنا من حائزى الشهادات صعاليك . لأن السواد الاعظم
ممن رشحهم الجوع وعلى الخصوص حضرات أرباب الجرائد من متخرجى
المدارس الذين لم يفلحوا» . أما قوله «ممن رشحهم الجوع» فجاف وأما قوله
«لم ينجحوا» فصواب من بعض الوجوه قال . «وفى هذا من الخطر مالا يخفى
لان هذا الافراط الذى بلغ حده قد جعل بلادنا شبيهة بأرض غصت
بالمياه فلم تعد تحتمل السقاية من جديد . لذلك لن أسمح من الآن بزيادة
عدد المدارس العالية الا اذا قام الدليل على ضرورة تلك الزيادة أما الآن
فعندنا منها عدد يكفينا) . وهذا القول أيضا يخالف رأى الذين يزنون

عظمة الامم وقوتها بقدر عدد مدارسها . ومما هو جدير بالنظر أن الذى يقيم هذه القيامة على المدارس ليس متبربراً ولا جهولا خرج من غابات جرمانيا . بل هو ثمرة من ثمار أكبر تقدم وصلت اليه المدارس فى الدنيا وناشيء فى البلاد الالمانية التى اشتهرت بالاجتهاد والتمكن من العلوم والتعمق فيها

ردّد الامبراطور الكلام فى آخر خطابه على مضار طريقة التعليم الحالية بأجسام التلامذة فقال « وما الذي نرجوه من رجل لا يرى الاشياء بعينيه فقد قلّ الابصار بين تلامذة المدارس حتى بلغ الاعشون منهم أربعا وسبعين فى كل مائة . ومع أن غرف التدريس فى مدرسة كاسيل مذ كنت فيها كانت نقية الهواء اجابة لرغبة والدتى ولم يزد عددنا على واحد وعشرين تلميذاً كان منا ثمانية عشر يلبسون العيون الصناعية (نظارات) وقد تولانى الفزع من ذلك وأؤكد لكم أن كثيراً من العائلات قدّمت عرائض لا تحصي شاكية من تلك الحال وراجية توجيه أنظارى اليها . ولما كان أمر ذلك راجعا الىّ لانى أبو الوطن فمن الواجب علىّ أن أعلن للناس بان تلك الحالة لن تدوم أيها السادة لا ينبغى أن ينظر الناس الى الدنيا بعيون من الزجاج بل بأعينهم الطبيعية . وانا أعدكم بأنى سأوجه الافكار نحو ما ذكر »

والذى يتلخص من ذلك كله أن المدارس لم تنجح فى التعليم العملى كما حبطت مساعيها من الجهة العلمية

ثم انها لم تأت بالمراد ايضا من جهة ثالثة وهى الجهة السياسية وهى أهم الجهات التى تلام على النقص فيها . اذ لا يخفى أنه كان ينتظر من المدارس توجيه افكار الشبان الى الخطة السياسية المطلوبة . وهذا الامل هو الذى

مال بالاحزاب عموما والحكومات خصوصا الى رئاسة المدارس والقبض على زمام التعليم فيها لاعتقاد الكل يقينا انها أنجح الوسائل فى الوصول الى الغرض المقصود فلا يختلف فى ذلك اثنان . تلك هى العلة فى اشتداد الخصام بين الاحزاب على المدارس وطرق التعليم فيها وما يجب تعليمه حتى صارت فى البلدين فرنسا والمانيا من أهم الوسائل التى تستعمل للفوز فى الانتخابات . وقد كثر اختلاف الاحزاب على قوانينها حتى سنت كل بلد قانونا مخصوصا تحرت فيه حكومتها تأييد النظام الذى يوافق مصلحتها فاصبحت فى يد الحكومة تقلبها كيف تشاء ولعب الامبراطور بالمدارس الالمانية كما لعبنا بالمدارس الفرنساوية من غير معارض ولا منازع

ومن المستغربات بعد هذا ان يقول الامبراطور نفسه اليوم ان المدارس لم تأت بما كان ينتظره منها سياسيا وهو اعلم من غيره بما يقول

ولقد بدأ رجال السياسة عندنا يقولون مثل ذلك القول لان عدداً غير قليل من الاغلبية وهو الاكثر فطنة وذكاء يجاهرون بانهم لم يستفيدوا من المدارس ما كانوا يرجون ويشيرون بالعدول عنها ويلاحظون بان عدد الذين نفروا منهم بسبب القوانين التى سنوها لها اكثر من الذين استمالوهم بواسطتها

ثم افصح الامبراطور عن الذى كان يرجوه من المدارس سياسيا فقال «ولو أتت المدارس بالفائدة المقصودة منها لقاومت أحزاب الجمهورية . أقول هذا عن خبر وعلم لانى كنت فى المدارس وعالم بما يجرى فيها » وقوله هذا يطابق قول الفئة القليلة فى مجلس النواب الفرنساوي بالتمام أيام كان الامر بيدها فى البلاد ويطابق أيضا قول الاغلبية الحاضرة لانها كانت ترى وجوب

الاستظهار على الحزبين الملوكى والدينى بواسطة المدارس وهذه المطابقة تدل على ان الافكار واحدة فى الجهتين وصيغ القول متحدة والغرض واحد هو اتخاذ المدارس سلما للتسلط السياسى . ولنرجع الى خطاب الامبراطور لنتبين حقيقة مراده قال «كان من الواجب على المدارس ان تلتفت الى المطلوب منها كما ينبغى فتنشر فى الامة تعليما يجعل الشبان الذين من سنى أى الذين قاربوا الثلاثين على صفات تسهل لهم ان يهيئوا من أنفسهم ما أنا محتاج اليه من المعدات والوسائل فى خدمة الدولة فأتمكن من الاشراف على حركة البلاد فى وقت قريب» والحق يقال ان الملك لم يسلك فى خطابه سبيل الابهام بل قوله واضح صريح . يريدان تعدله المدارس عمالا وأعوانا يتمكن بهم من الاستيلاء على زمام الحركة فى بلاده . هذا هو رأيه فى التعليم . وهذا هو الشأن الذى يريد ان يكون للمدارس . وليس لنا ان نبحث فيما اذا كان رأيه مقبولا عند المدرسين والعائلات فى تلك البلاد . ثم أشار الى ان المدارس لم تقم بالواجب فقال «ولم تأت المدارس بما ذكر وليس من زمن نجحت فيه مدارسنا فى جميع أدوار حياتنا الوطنية وساعدت على تقدمنا الا سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ففى ذلك الحين كانت المدارس البروسيانية والمكاتب مودع فكر الوحدة الالمانية ثم سرى هذا الفكر منها فى جميع الناس وشخص الكل الى غرض واحد وهو اعادة الامبراطورية الالمانية واسترداد بلاد الالزاس واللورين غير ان تلك الحركة بطلت من سنة ١٨٧١ لما أعيدت الامبراطورية ونلنا ما كنا نرجوه فوقفنا عنده وكان من اللازم علينا الآن ان نعلم الشبان طريق المحافظة على ما

كسبنا . ولكننا لم نعمل شيئاً بل أخذت الأفكار منذحين تتحول عن هذا المبدأ . أقول هذا لأنى فى مركز يمكننى من النظر فيه وقد اشتغلت به وعلمت انه ناشئ عن التربية» . ثم بحث الامبراطور عن السبب فى ذلك وقال انهُ ناشئ من طرق التعليم وموادهِ وشدد النكير كما تقدم ذكره على أحزاب اللغات وبالأخص اللغة اللاتينية فوجه قوارص الكلام الى المدرسين الذين يقولون بأن وظيفة المدرسة انما هى تدريب العقول وأردف تعنيفهُ بقولهِ «وليس من الممكن ان يستمر العمل على هذا المنوال» ولو التفتنا الى ان الامبراطور أمير بروسيانى ساد على قومهِ بقوة السلاح وان أمة البروسيا لم تتوصل الى ابتلاع المانيا كلها وتنظيم القوة العسكرية التى بيدها الامر فى (برلين) بواسطة ذلك التدريب العقلى وانهُ لا يكفيها وحده فى حفظ ما نالته حكمنا بأن الامبراطور مصيب فى قوله وسلمنا لهُ اعتبارهُ تدريب العقول آلة ضعيفة فى الحكم والسيادة وجاريناهُ فى ان المدارس لم تعطه ما كان يرجوه منها سياسيا كما خابت من الجهتين العلمية والعملية

وعلى هذا يكون الاخفاق فى المدارس حاصلا من جميع الوجوه ولا بد من اصلاح هذه الحال فالامبراطور مصمم على ذلك ومن الواجب ان تثنى جميع الارادات أمام ارادته لانه الملك

فاما رأيهُ فى اصلاح التعليم من الجهة العلمية فبسيط يرجع الى ابطال اللغة اللاتينية من جميع المدارس الاخصوصية وهى التى لا يميل الى الاكثار منها لقولهِ «لن أسمح من الآن بزيادة عدد المدارس العالية الا اذا قام الدليل على ضرورة تلك الزيادة أما الآن فعندنا منها عدد يكفينا» والمدرسة

الخصوصية هى التى يتعلم فيها أبناء الطبقة العالية فى الامة أو المدرسون .
ورغبته فى ابطال اللغة اللاتينية صريحة لا تقبل التأويل كما دل عليه بقوله
«تبا للدرس اللاتينى انه يضايقنا ويضيع علينا وقتنا ومن الواجب أن نبحث
للتعليم عن أساس غير هذا هذا الاساس الذى عاش عدة قرون لانه انما كان يفيد
فى تعليم القسس والرهبان أيام القرون الوسطى مع قليل من اللغة اليونانية»

وليس من غرضنا أن نطيل القول فى اللغة اللاتينية وكونها لازمة فى
المدارس أم لا وفى استحسان الطريقة المتبعة فى تعليمها أو تقبيحها وكونها
لا تنتج فائدة كبرى وانهم أفرطوا فيها الى حد يستغرق من الزمن ما يزيد
على الحد الذى لا ينبغى . ونكتفى هنا بان نلاحظ للقراء ان الاصلاح الذى
يقصده الامبراطور سلبى مرجعه حذف شئ موجود فى المدارس الآن

وأما رأيه فى الاصلاح من الجهة العملية فعلى خلا ما تقدم وهو الذى
وجه اليه كل اهتمامه لانه يريد تربية الشبان على المبادئ التى تمكنهم من
احتمال متاعب التزاحم فى الحياة وتساعد على انتشار الامة الالمانية فى انحاء
المسكونة وتعينها على أن تسبق فى ذلك الامم المنتشرة فى الدنيا وبالجملة
فانه يريد تربية العقل على العمل واجتهاد حتى يكون المتخرج من المدارس
عالما بما يجرى فى الوجود . وقد تقدم ان الامبراطور آسف لكونه لم يصل
الى معرفة ذلك الا وهو راكب جواده

أما الطريقة التى يراها لازمة للوصول الى غايته فمما لا يخطر على بال
أحد ومثله فى رأيه مثل رجل يحاول تعليم الطفل المشى فيشد ساقيه شداً
متيناً أو كالذى يريد أن يطلع تلميذه على مشاهد الكون كلها فيحبسه فى

مكان ضيق مسدود المنافذ بحيث لا تبصر عيناه من خارجه شيئا . فلا فرق بين هذين المعلمين فى تعليمهما وبين الامبراطور فيما يريده من النظام لمدارسه وهو من المستغربات . لكن حتى أكون صادقا فيما أقول أذكر للقراء نص عبارته فى هذا المطلب قال «يجب أن تكون اللغة الالمانية هي الاساس لجميع التعاليم الاخرى ومتى نجح التلامذة فى امتحانها التحريرى كان ذلك دليلا على ذكائهم ومقدار استعدادهم . اما تعلم اللغة اللاتينية فانه يضيع علينا من الوقت ما نحن محتاجون اليه فى تعليم اللغة الالمانية »

وليلاحظ ان الامبراطور لا يريد بهذا تعليم الالمانيين لغتهم الالمانية فقط بل هو يريد ان لا يتعلم الالمانيون شيئا الا ما كان المانيا حتى لا يدخل بينهم شيء أجنبى من أى نوع كان . قال « ولقد يفرحنى ان لو استعملنا كلمة المانية للدلالة على مداولاتنا هذه بشأن المدارس بدل الكلمة الفرنساوية التى نستعملها الآن فلنقتصر على اللفظ الالمانى الذى يدل عليها » ولقد يحمل هذا العداء حتى فى الالفاظ على شدة وطنية الامبراطور

ثم انه أفصح عن غرضه من المدارس بقوله « انى أريد أن يعرف الالمانيون تاريخ بلدنا وخططها وقصصها معرفة حقيقية اذ يجب علينا أن نبتدئ بمعرفة الدار التى نسكنها » والدار التى يعنيها ليست البلاد الالمانية المعروفة منذ القدم بل هى الدار التى شادها ملوك البروسيا وضموا اليها طوعا أو كرها جميع الامة الالمانية . وعليه فالتاريخ الذى يشير اليه هو تاريخ الزمن الذى نهضت فيه الامة البروسيانية فادخلت تحت سلطتها رويداً رويداً جميع البلاد الالمانية حتى يتيسر للشبان الذين يتلقونه أن يتربوا منذ

نعومة أظفارهم على محبة النظام الحالى والاعجاب به . هذا هو مراد الامبراطوار كما صرح به فى قوله « لما كنت في المدرسة ما كان التلامذة يذكرون (المنتخب الكبير) الا كالخيال ولم يكن لحرب السبع سنين ذكر فى درس التاريخ كما أهمل حرب سنة ١٨١٣ الى سنة ١٨١٥ مع أن معرفته لازمة لكل شاب المانى . ولولا الدروس الخصوصية خارج المدرسة لما عرفت من ذلك شيئا» الى أن قال « مع أن فى تعليم ذلك أهمية عظمى ولا موجب للتضليل على شباننا بتوجيه الملام على حكومتنا والاعجاب بما عند الاجنبى »

هذا غاية فى الصراحة فليحرزه السامعون . يريد الامبراطور أن لا تشتغل أفكار أمته بأجنبي عنها فلا تعرف ما يجرى فى البلاد الاخرى وان تصير معجبة بالحوادث التى أوجدت وحدة ألمانيا اذ هى الامر المهم . وبهذا التضييق على الافكار ينقطع التنديد بالحكومة وتتغير أفكار الشبان فى الزمن الحاضر الى أحسن منها كما يشاء الامبراطور . ولا شبهة فى أن أفكارهم تتغير اذا لم يتعلموا من التاريخ الا ما اختص بشجاعة البروسيا لان في ذلك ابعاداً لهم عن الاشتغال بألمانيا القديمة وماضيها الطويل ولكى لا تبقى شبهة فى مراد الامبراطور من التربية العملية قال « أيها السادة انى في حاجة الى الجند فلا بد لى من نسل قوى قادر على خدمة البلاد ولهذا ينبغى ادخال نظام المدارس الحربية فى المدارس العالية » ولعمري أن هذه التربية لا تجعل الشبيبة الالمانية قادرة على احتمال الحياة الحقيقية وكسب عيشها اليومى حيث لا موجب للقتال ولا محل للنزال بل الغرض الارتزاق

وما ذلك النظام هو الذى يربى الرجال ويهيئهم الى الاعمال المفيدة ويولد فيهم قوة الارادة التى تناسب حركة الترقى الشديدة فى عصرنا هذا . وكيف تكبر عزائمهم وهم لم يتعلموا غير النظام الالمانى حيث يسود النظام العسكرى فى المدارس . انما الواجب تثقيف عقولهم وتوسيع نطاق تهذيبهم وتدريبهم على جميع الاعمال النافعة التى تساعد الامة على نشر سيادتها الاجتماعية لا العسكرية حتى تسبق غيرها من الأمم التى لم تبلغ شأوها فى التقدم . ولكنهم يريدون أن يضعوا فوق أعينها عيونا لا تمكنها من النظر فى أحوال الأمم الماضية ولا فى حركة الامم الحاضرة الا ما كان ألمانيا . فلا ترى من هذا المشهد العظيم المفيد الا تاريخ البروسيا وهو يسير ولا تعرف للفوز معنى الا ما كان بحد المرهفات وأفواه المدافع لا الذى يكتسب بالجد والمثابرة والهمة والارادة . وكأنى بالامبراطور يريد أن يجعل جميع الامة الالمانية فى حالة بعض فقراء الهند الذين يقضون حياتهم فى مشاهدة ما دون بطونهم معتقدين انهم ينالون بذلك تمام السعادة . اذ هو يريد أن لا تعرف أمته غير طرف واحد من هذا العالم الشاسع وان يحجب عنها كل شىء سوى ذلك

وانا نترك الفصل فى امكان تحقق هذا الخيال الى الامة الالمانية نفسها غير أنا نستفيد منه لنعرف موضع النقص عندنا وما منا من يجهل اعجابنا بأنفسنا واعتقادنا بأن أمتنا اكبر الأمم وفى مقدمتها حضارة وتمدنا وان كل شىء لدينا اصله الثورة الفرنساوية . ثم ننقل هذا الاعتقاد الى ابنائنا غير شاعرين باستمرار الزمان في تقدمه من دون اشتراكنا فى حركته

ثبت اذن ان الاصلاح الذى يشير اليه الامبراطور عقيم الفائدة من

الجهة العلمية قليل النفع من الجهة العملية فلنبحث عن فائدته من الجهة السياسية علنا نراه يؤدي الى الغرض المقصود والا لذهبت أماني الامبراطور ادراج الرياح خصوصا اذا لوحظ انه لا يقصد من سعيه كله في الحقيقة ونفس الامر الى المنفعة السياسية أو ما يتصوره كذلك بدليل قوله « ومن الواجب علينا الآن ان نعلم الشبان طريق المحافظة على ما أحرزناه ولكننا لم نعمل شيئا من هذه الجهة بل أنا أشاهد منذ حين في الأمة شخوصا الى الميل عنه »

وعلى هذا يكون غرض الامبراطور من ذلك النظام هو التغلب على هذا الميل الذي يخشاه ولكن أمانيه لا يمكن تحقيقها الا اذا كانت المدارس كما يريدها . وهي ليست كذلك لأن غاية ما يريد استحداثه هو الزيادة فيما جرت عليه أمته من قبله تحت رعاية اسلافه وبأمرهم . وهم أيضا كانوا يقصدون الغاية التي يرمي عليها وهي اكبار شأن الدولة البروسيانية واعلاء كلمتها وقد جرب ذلك بنفسه

لذلك نجد رجال المدارس في برلين على خطابه وأجمعوا على اظهار أسفهم واستيائهم من اللوم الذي وجهه اليهم وقالوا «انهم كانوا يعتبرون على الدوام ان أقدس واجب عليهم هو غرس محبة الوحدة الالمانية في قلوب تلامذتهم واعدادهم لحفظ النظام الاجتماعي الحاضر ومقاومة أهل الثورة ومن يسعى بالفساد » ومع كون هذه الطريقة لم تجد نفعا باعتراف الامبراطور نفسه نراه يميل الى تعزيزها والزيادة فيها . ولن ينال ما يرجوه منها بل من المحتمل القريب جداً انها تؤدي الى عكس ما يتمنى لأنها تزيد في ضعف

أهلية الأواسط من الناس وفى عدم قدرتهم على تحصيل عيشهم من الصنائع الحرة . فتضعف فيهم قوة التزاحم في الحياة والانتشار فى الخارج ومباراة غيرهم من الامم التى سبقتهم فى معرفة مقتضى أحوال المجتمع الانسانى . ومعلوم ان المدارس التي يريد الامبراطور تنظيم طرق التعليم فيها هى التى يدخلها أبناء الأواسط فى ألمانيا . أما عدم أهلية تلك الطبقة من الناس فى الأمة الالمانية فقد برهن عليه موسيو (بوانسار) فى الجزء التاسع من مجلة (العلم الاجتماعى) صحيفة ٤٦٨ تحت عنوان (الالمانيون خارج بلادهم وطموح الحكومة الامبراطورية الى الاستعمار) وأبان ان أهل الطبقة المذكورة يفضلون الوظائف العسكرية والاداريه والحرف الادبية على الصنائع الحرة المفيدة أى التى تستفيد منها الامة والافراد كسبا كبيراً . فاذا زيد أيضا فى ضعف تلك الطبقة من هذه الجهة زاد الضنك وعظم اشتداد الحال اذ ليس فى قدرة الحكومة الالمانية ان تتكفل بمعيشة جميع الذين يخرجون من مدارسها بعد ان أبعدهم ذلك النظام عن وسائل الكسب الحقيقية فتضيق دونهم ثكنات العساكر ومصالح الحكومة مهما تشعبت فروعها . ثم هم يرجعون طبعا باللوم عليها وينسبون خيبتهم اليها . تلك سنة الامم لا يشذ عنها ولا ينفر من حكومتها الا الخائبون . وحينئذ يزداد النفور ويشتد حرج النفوس الذى تظهر علاماته الآن للامبراطور

وفيما تقدم أكبر برهان على فساد نظام الحكومات التى يتولى الملك فيها النيابة عن الافراد فى جميع الاعمال حتي التى هى من خصائصهم . وأعظم عمل تختص به الامة والافراد دون الحكومة هو التربية . ومامن

مرة تولته الحكومة الاساءت العاقبة من جميع الوجوه . تلك حقيقة سيعلمها الامبراطور كما عرفها قوم سابقون

هذا وفي يقيني أن الامبراطور يستغرب كثيراً اذا قرأ ما تقدم من كلامي لما هو عليه أوما علم عنه من اعتقاده بان النظام الذي يريد ادخاله في المدارس هو الذي يفتح للامة الالمانية باب التقدم الذي اتجهت نحوه الامم في هذا العصر وأنه هو النظام الذي يليق بمستقبل الايام ولا يحسبني القارئ مبالغاً فيما اسنده اليه فهذا ختام خطابه قال « نحن في زمن انتقال الامم من حالة الى أخرى وفي استقبال فريد جديد . وقد كان من خصوصيات القياصرة أسلافي على الدوام أن يسبقوا الى معرفة تقلب الزمان ويتبصروا الحوادث المقبلة وينهضوا في مقدمة الكل رغبة في توجيه حركة الامة نحو الغرض الجديد . وأني قد عرفت مصير الافكار الجديدة وأدركت الغاية التي يرمي اليها هذا القرن المنصرم . لذلك حولت عزيمتي كما فعلت أيام اشتغالي بالنظامات العمومية الى تربية الشبيبة الالمانية على نظام جديد يفتح أمامها أبواباً لا بد لنا من الدخول منها لنصل الى التقدم المقصود لاننا اذا لم نفعل ذلك اليوم ألجأتنا الضرورات اليه بعد عشرين عاما »

ومن المدهشات أن ينطق بهذا اللسان ملك عرفناه يقف بالتعليم في المدارس عند معرفة الوقائع الحربية التي انتصر أسلافه فيها ويقضي على التربية العلمية الحقيقة قضاءه المبرم ويجعل جميع الاجيال المستقبلة من أمة كبيرة غير قادرة على احتمال ذلك التزاحم في الحياة الذي طنطن بذكره واطنب في الكلام عليه .

على أنه لا موجب للدهشة لان القائل رجل بروسيانى وبلاد البروسيا قسم صغير من ألمانيا وقد تكاد تكون كامم الشرق فهى آخر أمة دخلت فى عداد الدول الاوروباوية العظمى كما فى اصطلاح السياسيين . وما صارت أمة كبيرة الا بعد جميع الامم الأخرى فهى أشبه برجل ولد متأخراً عن أقرانه بربع ساعة وليس فى امكانه أن يستعيض عن هذا التأخير . فالبروسيا متأخرة عن غيرها من أمم الغرب بقرنين كاملين ولا يزال أهل نهر (سيرى) على بعض العوائد التى كانت مألوفة أيام الملك (فيليب) الثانى و (لويز) الرابع عشر كأنهم لم يشعروا بان الأرض قد ضمت أجسام أولئك الملوك الفخام من زمن مديد فبادوا وبادت حكومتهم وانطوت سياستهم كما أنهم لا يزالون يعدون مامضى مستقبلا يرجونه

وحيث أن البحث دائر على المستقبل والتزاحم فى الحياة ومساعدة الامة الالمانية على الانتشار فى الخارج والمنافسة مع الامم التى تستولى على الدنيا فمن المفيد أن نعرف الطريقة التى اتخذتها تلك الامم فى تربية أبنائها واعدادهم لهذا الحرب الجميل حتى تكون لها الارجحية فى جميع البلاد على غيرها وسيرى القرآء أن السبيلين مختلفان

وبينما أنا اكتب هذه السطور اذ دخل علىّ أحد الاصدقاء زائراً وهو رجل لهُ ولد يريد أن يربيه تربية تمكنهُ من التزاحم فى الحياة وكسب عيشه بنفسه فلا يود لهُ أن يكون موظفاً فى احدى مصالح الحكومة وهو نادر عندنا والخلاصة أنه يريد أن يربى ابنه تربية عملية ارادة صحيحة لا كما يريد الامبراطور . وهى التربية التى يستحسنها كل انسان ولا يعمل بها

الا القليل . وكان لهذه الغاية تحصل على نظامات عدد من المدارس الاجنبية فاعجبه واحدمنها وهوالذى قدمه الىّ . فلماتصفحته رأيت من الفائدة تلخيصه القراء مستعينافى ذلك بما علمته بنفسى عن المدرسه المتعلق بها

المدرسة الانكليزية أنشأها صاحبها لتعليم الشبان طرق الارتزاق فى غير بلادهم والتمكن من اجراء تلك الاعمال الزراعية التى مهدت للامم الانكليزية السكسونية سبل الاستيلاء على العالم شيئاً فشيئا وجعلتها تفضل من سواها . وهى توافق غرض الامبراطور الا انها لا تنسج فى التعليم على منواله

وأما النظام المذكور فهو رسالة صغيرة يطالع القارئ فى أولها قولين حكيمين أحدهما عن (جون ستيوارت ميل) وهو «مما لا شبهة فيه الآن بالنظر الى أحوال الامم الحاضرة ان الاستعمار هو انجح الوسائل فى استعمال الاموال المدخرة فى خزائن الامم الغنية القديمة» والثانى عن (فوستر) وهو «تزداد حاجة الناس الى الهجرة كل يوم ولا فرق فى ذلك بين الغنى والفقير»

ويتبين منه ان الغرض من المدرسة تتميم ما نقص من التعليم فى المدارس الاخرى للشبان الذين يحتاجون الى تربية خصوصية . ولا يغيب عنا ان التربية فى المدارس الانكليزية على العموم هى تربية عملية كما ينبغى . وان التزاحم فى الحياة الذى قرأناه فى خطاب الامبراطور هو الغاية من تلك التربية . وان بين رؤساء المدرسة وجميع المستعمرات الانكليزية مراسلات يقفون بواسطتها على ما يحتاج اليه التلامذة فى المستقبل فلا يقدمون على أمر الا وهم به عالمون . وقد أفادت تلك التربية كثيراً من متخرجى المدرسة

فساعدتهم على تحصيل رزقهم فى البلاد الأخرى . ثم بيّن واضع الرسالة
موقع المدرسة والحقهُ برسم بنائها تتميما للفائدة . وهى موجودة فى الريف
وكان ذكر ذلك من قبيل تحصيل الحاصل لولا ان جمعية الزراعة العلمية
الفرنساوية تسكن فى وسط مدينة باريس الجميلة . وبناؤها قائم على مرتفع
يحيط به البحر واحد الانهار من جهة ويمتد من الجانب الآخر سهل
منزرع . وهذان شرطان يعوّدان التلامذة على الهجرة والاستعمار وتحمل
اتعابهما أكثر من جمعهم فى المدارس بالمدن الالمانية . وذلك السهل منقسم
الى أجزاء تسهيلا لتجربة طرق الزراعة وغرس جميع المزروعات على اختلاف
أنواعها فهذا قسم العزبة . ثم قسم الالبان . فمكان تربية الطيور المنزلية .
فالمعامل . ومخازن المراكب وغيرها . ولكي يحافظ التلامذة على دينهم بنى
لهم معبدان على مقربة من المدرسة

أما موضوع التعليم فيدل على ان المدرسة عملية محضة وانه لا اشتغال
لاصحابها بالسياسة بل هم منصرفون الى تسليح التلامذة بجميع المعارف العملية
التى يحتاج اليها . وان أعظم مكان فى المدرسة مخصص لتطبيق العلم على العمل
لا كما هو حاصل فى جمعيتنا العلمية الزراعية . وان الغرض من
تدريس العلوم هو شرح ما يشتغل به التلامذة من الاعمال ولدى المدرسة
عدد من أهل الزراعة والصنائع لتعليم طرق الاستعمار . وان أهم عمل هو
الزراعة . لذلك يأتى التلامذة بانفسهم جميع أعمالها وعندهم من آلاتها ما
كمل صنعه . وباستعمالها تعرف قوة كل واحد منهم . وهنالك دوحة تبلغ
أربعين ألف متر مربع تزرع فيها الفواكه المختلفة الانواع والخضر باجناسها

وتشاهد فيها التجارب لانماء الزرع بقدر ما يصل اليه الامكان . ولهم اعتناء خصوصي بتربية النحل لما فيه من الفوائد فى المستعمرات اذ يخرج منه العسل والشمع وهما سلعتان نادرتان فى تلك الجهات وقيمتها عالية . وفي هذا السهل قسم تغرس فيه أنواع الأشجار ويتعلم التلامذة كيفية تغذيتها وطرق تربيتها وهو عمل لازم لمن يريد استيطان (كندا) أو (استراليا) ولهم عناية لا مزيد عليها بتربية الماشية لضرورتها فى أغلب المستعمرات لأنه يبدأ عادة فى الاستعمار بتربية المواشي . فعندهم سبعون حصانا ومهرا من أحسن الأنواع وكلها من الخيل المستعملة في المستعمرات ثم أنواع من الاثوار والغنم والخنزير والطيور . ويتعلم التلامذة طبائعها وفائدة كل نوع منها ويقضون طول السنة فى اختبار أحوالها وتنويع استعمالها مع المكلفين بخدمتها . وفى معمل اللبن خمسون بقرة من أجود نوع . والمعمل على أحسن طرز تشاهد فيه أنواع طريقة صنع اللبن وما يخرج منه بحسب البلادين الباردة والحارة وفي المدرسة مدرسون للطب البيطرى حتى لا يحتاج المستعمر فى غربته الى غيره لتمريض ماشيته . ويتلو العلم تطبيقه على العمل . ويقضون وقتاً كل يوم فى ركوب الخيل وان لم يكونوا فى حاجة مثل امبراطور ألمانيا الى هذه الرياضة ليقفوا على مجرى الأحوال فى الدنيا . وانما هم يعلمون ان الخيل أحسن واسطة للمواصلة في البلاد الجديدة وانها أحسن طريقة لتفقد الاملاك الواسعة . كذلك لهم وقت لتعلم فن مساحة الأراضى وأخذ موازينها وطرق اصلاحها وريها وصرف المياه الفضلة عنها . ولتمام استقلال كل واحد تراهم فوق ذلك يتعلمون بعض الصنائع العادية فاتخذت المدرسة معامل

عدة . هذا للبناية وطرق الحديد وفيه تصنع آلات الزراعة كلها واصلاح ما فسد منها وتطبيق الخيول . وذاك معمل التجارة وصنع العربات واصلاحها وصناعة الخشب واقامة المساكن والبيوت منه . وذلك معمل البراذع والسروج . والتلامذة يتعلمون كل ذلك كما يتعلمون العوم فى البحر والسباحة فى النهر والتجذيف والملاحة وصنع القناطر القائمة واتخاذ الرواسى وغير ذلك . وفى المدرسة أحد رجال خفر السواحل منوط بحفظ المراكب وتعليم التلامذة ما يتعلق بها حتى انه يعلمهم كيف يجمعون بين طرفى الحبلين من دون ان يعقدوهما . ولقد يلذ لى هذا البيان لأنه يدل على شدة التفاتهم الى ما يحتاجه الانسان عملا واعتنائهم بتعليمه كل شئ وتعريفه بانه لا شئ غير مفيد

ويجب عليهم ان يعرفوا طرفا من فن الطب على قدر ما يحتاج اليه فى المستشفيات النقالة المعروفة بشركة (صان جان) وجمعية مساعدة الغرقى وكيف يربط العضو المكسور والمرضوض ويرد المخلوع ويوقف النزيف وتضمد الجروح وتعالج الحروق وغير ذلك من العوارض الاعتيادية حتى يكونوا على علم بتمريض أنفسهم ومعالجة غيرهم

ولقد توسع صاحب المدرسة فى شرح ما بيناه من الأعمال الزراعية والعملية لكونها الشاغل المهم فيها ولأن الغرض منها تربية رجال يعملون فى الخارج لا تعليم أناس يتربعون فى مقاعد المصالح . لذلك جعل الكلام على القسم العلمى فى آخر الكراسة واختصر فيه لأنه كما قدمنا عبارة عن شرح ما يشتغل به التلامذة من الأعمال . فلا يطلبون العلم وحده الا ساعتين اثنتين

فى اليوم (وليس فى هذا افراط كما ترى) يلقى فيهما ناظر المدرسة ومعلموها دروسا فى علم الزراعة وعلم طبقات الارض والمعادن والنباتات وفن الغابات والمساحة والعمارة والطب البيطرى وغير ذلك . ثم يتلى عليهم من الكتب الواردة من حكومات المستعمرات ما تهم معرفته

ويجد المطالع فى آخر الكراسة خمسا وعشرين صورة تمثل مبانى المدرسة والطلبة يشتغلون فيها بالاعمال التى سردناها . وانى لآسف على عدم تمكنى من نقلها فى هذا الكتاب لان صورة أولئك الطلبة وهم يعملون بتلك المدرسة تلقى فى النفس شعورا بانهم من أمة ذات همة واقدام ميالة الى العمل الحقيقى قد تعودت احتمال المتاعب فلا تخشى العناء . فهى تعمل بجد فى عمل جد لا يعتمد الانسان فيه الا على نفسه بعد الله

ومما يزيد الفائدة من مشاهدة أولئك الشبان انهم ليسوا من الفقراء الذين قد لفظتهم الايام فالتجأوا الى الهجرة بدافع الفقر . ولكنهم كما جاء فى الرسالة نفسها أبناء عائلات غنية أو تقرب من الغنى أعنى من أواسط الناس الذين يريد امبراطور المانيا ادخال الاصلاح بينهم . على ان أجرة التعليم فى تلك المدرسة كافية فى اثبات ذلك لانها ألفان ومائتان وخمسون فرنك فى السنة الى أن يبلغ الطالب سبع عشرة سنة . وألفان وسبعمائة فرنك الى عشرين سنة . وثلاثة آلاف ومائة وخمسون فرنك الى ما زاد عن ذلك . وقد كان فى قدرة أولئك الشبان أن يطلبوا الرزق فى بلدهم بلا تعب ولا عناء غير انهم لم يرضوا لانفسهم مثل هذا العيش بل فضلوا عليه ما يقتضى الكد واستعدوا الى مغالبة الصعاب فطوحوا بانفسهم فى المستعمرات ونزحوا الى

البلد الاقصى .

وللرسالة ملحق يدل على ان أولئك الشبان انما يعتمدون على أنفسهم دون سواها وهى خطب كبار القوم الذين حضروا حفلة توزيع الجوائز فى السنة الماضية بتلك المدرسة التى هى من مبتكرات الهمم الشخصية كما هو الشأن فى أغلب المنشئات الانكليزية . وقد جعل أولئك الكبراء هذه المدرسة تحت حمايتهم وأكثرهم من الذين اشتغلوا بالاستعمار أو المشتغلين به الى الآن . ويجد القارئ فى خطبهم تحذيراً للشبان من الصعوبات التى هم قادمون عليها وتنبيها لهم الى وجوب مغالبتها بقوتهم الذاتية ومن الغريب ان قولهم هذا لا يثنى من همم أولئك الطلبة بل انه يزيد فيهم روح الغيرة . ذلك لان تصور الصعوبة يثير عزيمة الاقوياء كما يثبط همة الضعفاء ومن كلام اللورد « كنونسفورد » اليهم ما يأتى « يجب عليكم ان تقسوا على أنفسكم فان امامكم من المتاعب ما لا بد لكم من التغلب عليه وربما هلك زرعكم وماتت ماشيتكم فلا تنحل عزائمكم أمام المصيبة بل قوموا كما يقوم الشجاع وغالبوا تلك الحوادث واسعوا فى تعويض ما خسرتم » . ذلك حقا هو التزاحم فى الحياة . وكانى بهذا القول نشيد تترنم به الجموع يوم تقوم الأمة سائرة نحو افتتاح العالم لا كفتح البروسيا . وقال السير « جراهام برى » وهو الوكيل العام فى مستعمرة فيكتوريا « انكم تجدون فى جميع انحاء المسكونة أرضا يخفق عليها العلم البريطانى . فلكم أن تسيروا من أقاليم كندا الباردة الى نواحى أفريقيا الحارة أو الى بلاد أوستراليا . وحيثما وجدتم ترون العلم الذى يقاوم الحروب وعواصف الرياح منذ ألف عام .

واليوم يومكم . فافقهوا الخطة التي يجب عليكم اتباعها . وتبينوا ماأردتم من الاعمال قبل الشروع فيها . واتخذوا لكم في ذلك سبيلا معروفا ولا ترددوا في أمركم بل كونوا شجعانا ذوى اقدام وجد واحتمال . على أني لاأظن أن شاباً انكليزيا تقعد به الحاجة وأمامه مستعمرات كثيرة كلها مفتوحة الابواب اليه ومعول نجاحه فيها عليه . لست الآن شابا مثلكم فقد مضي أربعون عاماً من يوم أن سافرت وما كنت أملك من المزايا ماأنتم تملكون . كنت غريباً قليل المال لاخبرة لى بالمسائل الفنية ولا صديق في البلاد التى قصدتها . ومع ذلك قد وصلت الى رتبة الوزير الاول في تلك المستعمرة وترأست ثلاث مرات على سلطة التشريع فيها»

هذا واذا ذكر القارئ أن ذلك التعليم ليس قاصراً على شبان مدرسة واحدة بل هو عام في الامة بتمامها . والغرض منه الاستعداد لذلك التزاحم في الحياة . وعلم أن الذى ينتشر في الخارج هو تلك الامة بتمامها صاحبة تلك التربية القوية الفعالة . تجلت أمامه الاحوال كما ينبغي . وعلم لمن المستقبل ولمن الدنيا . واختار لابنائه التربية الانجليزية السكسونية لا التربية الالمانية ان أراد أن يدرأ عنهم طوارق الأيام . وكيف يتأتى أن يعيش الشاب الالماني بجانب ذلك الرجل الجبار الذى تربى تلك التربية التي شرحناها وهو انما تلقى في احدى المدارس الالمانية تعليما قاصراً على تمجيد الحكومة البروسيانية والجندية البروسيانية فلا يعرف من تخطيط الارض الا البروسيا . ولا من التاريخ الا البروسيا أو تاريخ ملوكها . ولا يعرف شيئاً من حالة الدنيا الخارجية لاحتجابه عنها . ولا كيف تكون مزاولة الاعمال الحرة

ثم ألقى به فجأة بعد هذا فى احدى الاقاصى كانى بك أيها القارئ وقد عرفت أي الرجلين اعدا للمستقبل الذى قضت به حالة الدنيا الجديدة على الامم القديمة وأيهما يكون ذا الهمة في الاعمال العظيمة التى لم تعد من خصائص الملوك بل من لوازم الامم كما قال امبراطور المانيا

ها قد بينت لك نظامين أحدهما صادر من أقوى ملك . وينتسب الثانى الى بعض الافراد . ولعل الملك العظيم لم يفطن الى ان أحسن طريق فى تشجيع الامة وتحريضها على العمل الذاتى انما هو أن ينسحب الملك لان الهمة الشخصية تبتدئ حيث ينتهى تداخل الحكومات

الفصل الثالث

﴿ فيما اذا كان نظام التعليم بالمدارس الانجليزية يربى رجالا ﴾

لو أردنا تلخيص المسئلة الاجتماعية فى صيغة صغيرة لقلنا ان مرجعها التربية اذ المراد بحل المسئلة الاجتماعية هو تعويد الشخص على حب الاحوال الجديدة في العالم وكلها تطلب أن يصير المرء قادرا على الارتزاق بنفسه لان الوسائل القديمة التي اعتاد الناس على استعمالها صارت غير مفيدة ولا وافية بالمراد ولا شبهة فى اننا صائرون الى زمن يتم فيه التغير الذي تبدوا لنا اشاراته سواء كان فيه سعادة لنا أو شقاء وليس الحرج الذى نشعر به آنيا الا من التناقض بين وسائل تربيتنا المؤسسة على طريقة تقادم عهدها وبين ماتقتضيه ظروف الحياة الجديدة . فانا لانزال نربى رجالا لا يصلحون

الا لجمعية قد انقضى نحبها . ومن الصعب ان نعدل عن تلك التربية .
ولست أدرى ان كان القرآء يشعرون بما أقول بالنظر لأنفسهم . غير انى
شاعر به فى نفسى فأحس اننى رجلان . رجل درس علم الاجتماع ورأى
مايجب فعله . ورجل حبس فى دائرة تربيته الاولى ورزح تحت اثقال
ماضية فهو غير قادر على العمل بمقتضى علم الاول وان أتى عملا فهو صعب
وناقص . كأن رأسى دخلت فى نظام التربية الاستقلالية التى تقوّى الهمة
الذاتية وظل جسمى محجوراً عليه فى نظام التربية الاتكالية التى تضغط
عليه . ومن هنا جاز علينا قول (فيرجل) الشهير « ان من الصعب ان
يتحول الانسان عن تربيته الاولى » . ذلك لان الامم قسمان : فمنها من
تربت على الاتكال وهو عبارة عن ميل افرادها الى الاعتماد على الهيئة أو
الحزب من عائلة وعشيرة وقبيلة وحكومة وغيرها لا على أنفسهم . وأكبر
مثال لتلك الامم هو الشرق . ومنها من تربت على النشأة الاستقلالية أى
ان كل فرد منها يعتمد على نفسه لا على الجمعية . وأعظم مثال فيها هى الامم
الانكليزية السكسونية

الا ان ماصار صعبا علينا وغير ممكن فى السن الذى وصلنا اليه ليس
كذلك بالنظر الى أبنائنا لانهم لا يزالون كالعود الاخضر يسهل تقويمه
والتعليم فى الصغر كالنقش فى الحجر . واذ قد حكم علينا بالاقامة على شاطئ
النهر وجب ان نمد اليهم يد المساعدة كي يعبروه . ذلك هو أكبر الاعمال
بالنظر للآباء فى هذه الاوقات فمن لم يفعله فقد أهمل أول واجب عليه .
ولا بد ان يعاقب على اهماله فى أبنائه . أما أنا فقد عقدت النية على آدائه

بالنسبة لابنآئى . ولهذا انتهزت فرصة وجودى المرة الاخيرة ببلاد الانكليز واختبرت أحوال التربية هناك من جهتها العملية . وهاأنا أعرض نتيجة اختبارى على اخوانى آباء العائلات الفرنساويين لعلهم يستفيدون منه كما أفادنى

يجتهد الانكليز أكثر منا فى اصلاح تربية شبانهم على الدوام مع ان التربية الانكليزية توافق حالة الحياة الحاضرة أكثر من تربيتنا والنجاح فيها عندهم أكثر من النجاح عندنا . لذلك ترى فيهم رجالا أكبر همة وأقدر فى الاعتماد على أنفسهم وهم متقدمون علينا فى التمشى مع تقلبات العصر الجديدة فيشعرون أكثر منا بوجوب الاستعداد لما تقتضيه . وهى تقتضى على الخصوص تربية شبان قادرين على الارتزاق بأنفسهم مهما صعبت متاعب الحياة وتنوعت ظروفها . ومن أجل هذا كان منهم رجال ذوو عمل وعزيمة لا موظفون أو أديبون لا يعرفون من الحياة الا ماتعلموه فى الكتاب وهو فى الواقع شئ يسير . أما الثمرة التى يطلبها الانكليز فانها توافق كل الموافقة ظروف التقلبات الاجتماعية فى عصرنا هذا . وتلك الثمرة هى الرجال

دار الحديث ذات يوم فى (أدمبرج) بينى وبين أحد المعلمين فى مدرسة (دونديه) على التعليم فى انجلترا فقال لى « غداً سيخطب رجل لعلك تستفيد منه فى مدرسة (صوميد ميتنج) وهو مؤسس مدرسة فى داخلية البلاد ومديرها واسمه الدكتور (سيسل ريدى) وقد اندهشت فى اليوم الثانى لما تعارفنا ببعضنا . فعهدى بنظار المدارس والمعلمين عندنا ان لهم زيا مخصوصاً : ينمقون لباسهم ويختارون الالوان الداكنة . ويفضلون الرداء

الطويل حتى تلوح عليهم علائم الاحتفال والترفع كرجل مقتنع بانه ذو سلطة روحية يريد أن يظهرها . يمشون ببطء متجهمين . ويكثرون فى حديثهم من القواعد والجمل التى تليق بتربية عقل الشبان ولبهم . وقد بلغت منهم الأنفة منتهاها لكنى وجدت الرجل الذى قبض على يدى بشدة على خلاف ذلك بالمرة . فهو أشبه برجل يزاول الاعمال الشاقة طويل القامة نحيف الجسم . قوى العضلات . تركيب يوافق جميع الاعمال التى تقتضى سرعة الحركة واللين والاقدام . بلباس يوافق تلك الصفات كانه سائح انجليزى . فقد ارتدى ثوباً (سترة) صغيرة من الجوخ رمادى اللون فى وسطها حزام . ثم سراويل قصيرة . وشرابا طويلا ينثنى تحت الركبة وحذاء متيناً . وعلى رأسه قلنوسة صغيرة وقد وصفته لأن هيئته تمثل المدرسة التى سأشرح حالها للقراء . فالرجل مثال العمل بالتمام

ولما كان اليوم الموعود وهو يوم السبت حيث الدروس معطلة ركبت مع الدكتور (ريدى) فى احدى العربات المخصصة لنزهة أعضاء تلك المدرسة . وقضى مسافة الطريق ووقتاً كبيراً من النهار يشرح لى حالتها ونظامها ويجيبنى على ما كنت أسأل عنه ويسألنى عما يريد . ومما قاله لى (أن التعليم الحالى لم يعد موافقا لظروف الحياة العصرية فانه يربى رجالا هم اليق بالماضى منهم بالزمن الحاضر . وأكثر شباننا يقتلون قسما كبيرا من وقتهم فى درس اللغات المندثرة ولن يستعملها النزر اليسير منهم فى حياته الا قليلا . وعلى العكس من ذلك يكادون أن يمروا كالخيال فى تعلم اللغات العصرية والعلوم الطبيعية . ثم يمضون على جهل تام بجميع ما تجب معرفته

فى الحياة الحقيقية أريد استعمال الاشياء والوقوف على منفعتها فى الهيئة الاجتماعية . كذالك تحتاج العابنا الى الاصلاح كما يجب اصلاح طرق الشغل فان الافراط فى العمل حاصل كالافراط فى الدرس . غير أن الاصلاح صعب لخضوع مدارسنا الى تأثير المدارس الكلية التى تأخذ طلبتها من تلامذتنا . وتلك المدارس الكلية غير متمكنة من نفسها شأن جميع المجتمعات القديمة . كأنّ عاملا خفيا يحوم فوق رؤس نظارها ومعلميها ولا أراه الا تمسكهم بالتقاليد القديمة والعوائد السابقة وهى أشد قوة من القوة نفسها) ولما سألته وكيف حينئذ يتأتى لمدرستكم أن تغير هذا التعليم أجابنى (أن غرضنا هو الوصول الى تربية جميع الملكات الانسانية على نسبة واحدة إذ يجب أن يصير الطفل رجلا كاملا حتى يكون قادراً على الوصول الى الغرض المقصود من الحياة . لذلك ينبغى أن لا تكون المدرسة وسطاً صناعياً لا يخالط فيه الطالب الحياة الا بالكتاب . بل ينبغى أن تكون وسطاً عملياً يقرب بين الطفل وبين طبيعة الاشياء وحقيقتها بقدر الامكان . فلا يتعلم العلم وحده بل يصطحب العلم بالعمل اذ هما أمران يجب أن يكونا متلازمين فى المدرسة كتلازمهما فى الخارج حتى اذا خرج الشاب فى الحياة لا يخيل له أنه يدخل فى عالم جديد لم يتأهب اليه وحتى لا يصبح فى حيرة لا يدرى أين قبلة الاعمال . ذلك لان الانسان ليس عقلا مجرداً عن المادة بل هو عقل يلازمه الجسم . فيجب أن تعم التربية همته وارادته وقوته المادية ومهارته اليدوية وخفته فى حركاته) وكلما أوغل الدكتور ريدى فى حديثه ازددت الماما بالغرض الذى قصده من مدرسته . غير أنى لم أقف عليه تماما

لذلك طلبت منه ان يبين لى كيف يشتغل الطلبة فى يومهم ساعة فساعة . ولما أحرزت جوابه ووعيت بيانه وضح لى المراد وأدركت حقيقة نظام تلك المدرسة وسأذكره فيما بعد . ثم انتهى بنا المسير الى كنيسة (دونفرملين) وخرجنا منها الى منزل أحد الموسرين لتناول الشاى اسمه موسيو (هنرى بيفردج) وهو من قرآء مجلتنا (العلم الاجتماعى) ومن المواظبين على سماع درسنا منذ ثلاث سنين . وقد رغب الىّ ان أقيم عنده الى موعد شروعى فى القاء خطبى يوم الاثنين صباحا . فسألته اذا كان يعرف شيئاً عن مدرسة الدكتور (ريدى) فأجابنى انه زارها وانه سيرسل ابنه الأول اليها بعد شهرين وعمره الآن ثلاث عشرة سنة وانه لم يكتف بزيارتها بل كتب الى كثيرين يسألهم رأيهم عن تعليم أبنائهم فيها فأجمعوا على استحسانها وفوائدها . ثم قدم الى رسائلهم واليك نصها

سيدى العزيز

مكث ابنى سنة ونصفاً فى مدرسة (ابوتصولم) وكان عمره خمس عشرة سنة . وقد ازداد عقله فيها أكثر مما ناله فى المدارس الاخرى وترعرع جسمه . وزكت أخلاقه . وسررت جداً من نتيجة تعلمه . أما الدكتور (ريدى) فرجل قوى الاستقلال . ولدمربيا . وعندى ان طريقة التعليم فى تلك المدرسة ومبادئها جيدة . وكان ابنى يحبها ويميل الى أعمالها وأظن ان جميع التلامذة مثله . وهى كاملة من الجهة الادبية . وفى اعتقادى انكم لا تجدون أحسن منها لتربية نجلكم

وهذا كتاب آخر

سيدى العزيز

رداً لخطاب حضرتكم المتعلق بمدرسة (ابوتصولم) أعد نفسى سعيداً باجابتكم على ماسألتم

لنا فى (ابوتصولم) ولدان قد حسنت صحتهما جدا فيها . وجاءنا منهما خطاب يخبرنا بان الثلاثة الاشهر الاولى انقضت بهدو وأنهما ممتعان بالراحة والهناء . وقد توفرت فيها شروط الصحة فى المعيشة . ويتعلم التلامذة كفاية حاجاتهم بأنفسهم . وان يكونوا على استقلال تام . وأرى ان التربية الادبية فى تلك المدرسة رفيعة . وان التلامذة ينتخبون باعتناء وبين المعلمين والطلبة حرية تامة فى المعاملات . واتفق ان أحدهم أقام عندنا فسحة العيد فاندهشنا من عدم التكليف بينه وبين أنجالنا . ولهؤلاء شغف بأساتذتهم وقد تقدم نجلانا البكرى تقدما سريعا فى التعليم أما الثانى فتأخر الا انه ذو تيقظ أكبر من ذى قبل وصار الاثنان أكثر نشاطا . ففى المدرسة مجال فسيح لتربية الانانية الشخصية

وليس فيها تعليم دينى مخصوص فقط تتلى الصلوات فى الصباح والمساء وماخلا ذلك يذهب التلامذة الى كنيسة الابرشية اذ نحن من مذهب الجماعة ويرتاح أولادنا بذهابهم الى معبدهم . وفى عزمنا ان نرسل نجلنا الثالث فى تلك المدرسة لكنه لا يزال صغيرا لأن عمره ثمان سنين ونصف

وهذا خطاب آخر

سيدى العزيز

أجيب حضرتكم بكل ارتياح على سؤالكم على مدرسة (ابوتصولم)

لان أبني فيها منذ سنة . وحالته مرضية وهو يستفيد كثيرا . ولا بد أنكم عرفتم شأن المدرسة من نظامها . وهي لا تهتم بالتعليم المدرسي المشهور . الا انها تعتني باللغات العصرية وبكل ما يفيد الشبان في حياتهم . ولها اهتمام عظيم بالصحة وتربية الاخلاق . وأطعمتها جيدة متنوعة تخالف الاطعمة التي تقدم عادة في المدارس . والمبادئ التي ذكرت في النظام يعلمها بغاية الضبط والاحكام رجل امتاز بالعقل والاقدام . ذو ميل خصوصي الى تربية الشبان . اما عدد طلبتها فخمسون . ولذلك يعتني بكل واحد منهم على حدته . ولم امكث فيها سوى يومين غير اني أعجبت كثيراً بما شاهدته من المعيشة الراضية . ولم أجد فيها نقصا الى عدم تعليم التوراة المقدسة ولعلك لاترى ذلك عيبا أما موقعها فصحي قد كملت فيه وسائل الراحة ومدرسوها على جانب من الظرف والعلم الوافر لان الدكتور «ريدى» يختارهم من ذوى الاخلاق الفاضلة والفضائل الكاملة لكي ينشوا حب الخير في التلامذة وكثير منهم ماهرون في فن الموسيقى اهـ

فلما قرأت هذه الرسائل وأخذت حظي من محادثة موسيو «بيرفردج» عولت على اختبار الأمر بنفسي واليك ما وصلت اليه

افتتحت مدرسة الدكتور «ريدى» في شهر اكتوبر سنة ١٨٨٩ بمدينة «أبو تصولم» من اقليم «دربيزير» وهي واقعة في الخلاء وسط حقل زراعي هو من أعظم وسائل التربية فيها وليس حولها مدن كبيرة ومع كونها قريبة العهد فان أحد المتخرجين منها وهو موسيو «بادلى» أنشأ مدرسة على مثالها في جنوب انجلترا باقليم «صوصكص» في مدينة «بيدال» وبين

يدى الآن مقالة نشرت فى « مجلة المجلات » تحت عنوان « تجربتان » « أبو تصولم » و « بيدال » وصف فيها صاحبها هاتين المدرستين وأضاف الى الوصف صوراً تمثل ما احتوتا عليه وقد توجهت الى مدرسة بيدال مرتين وشاهدت بنفسى نظام التعليم وحركة الاعمال فيها

ليس من شبه بين هاتين المدرستين وبين مدارسنا الكبيرة الكثيرة المجردة عن الظواهر بل هما أشبه شئ ببيتين خلويين من بيوت الانكليز يشعر فيهما الانسان بالحياة الحقيقية لا الصناعية وعليهما سيماء البيوت العائلية لا مظاهر ثكنات العسكرية أوديار السجون. يكتنفهما الهواء والضوء والخلاء والخضرة لا الرحاب الضيقة المحصورة بين المبانى العالية . وهذه الهيئة الخارجية تحدث فى الانسان شعوراً بان المقام هناك لذيذ إذ ليس من موجب يقتضى أن تكون المدرسة فى بناء خشن ثقيل . فاذا دخل الانسان في تلك الدار طابق شعوره الواقع فغرفة الاكل عائلية صرفة ذات منظر بهج مقبول آنيتها لطيفة ومائداتها مفروشة بالقماش الابيض واثاثها نقى مزخرف وفيها آلة طرب « بيانو » وصور وتماثيل وكراسي مما يدل على الاعتناء بالجمع بين النافع والمقبول . ومن يقابل بينها وبين عنابر الطعام القبيحة فى مدارسنا يتبين له من هذه المقارنة وحدها الفرق بين طريقة التعليم فى المدرستين

ومما يزيد هذا الشعور حسناً وقبولا اشتراك المعلمين وناظر المدرسة وزوجته وبناته مع الطلبة على المائدة كأنهم جميعا عائلة واحدة وبهذه الواسطة لا يشعر الطفل انه انتزع من الحياة الحقيقية لانه لم ينتقل الى عالم صناعي جديد بل خرج من منزل الى منزل مثله بلا تغيير . وصحيح ما جاء

فى كراسة نظامها من أنها « منزل كامل لا مكان يقتصر فيه على التعليم » واذ قد عرفت الظرف فلنشرح لك المظروف وأرى انه ينبغى الابتداء بذكر ساعات العمل في اليوم ثم نرجع بعد ذلك الى التفصيل

دقيقة	ساعة	
١٥	٦	قيام من النوم « وفى الشتاء الساعة السابعة » وفطور خفيف
٣٠	٦	رياضة جسمية واستعمال السلاح
٤٥	٦	الدرس الاول
٣٠	٧	صلاة
٤٥	٧	فطور وهو غذاء كامل من بيض ولحم وغيره يعقبه اصلاح أماكن النوم وكل تلميذ يعد سريره بنفسه
٣٠	٨	الدرس الثاني
٤٥	١٠	طعام خفيف فان كان الوقت صحواً اشتغل التلامذة بالرياضة الجسمانية فى الخلاء عارين عن الملابس بطناً وظهرا
١٥	١١	الدرس الثالث
٤٥	١٢	الحان أو عوم في النهر بحسب الفصول
	١	طعام الغذاء
٣٠	١	تمرين بآلات الطرب
٤٥	١	ألعاب وأشغال فى البستان والزراعة أو رياضة بالمشى على القدم أو الدراجة
	٤	اشتغال فى المصانع والمعامل

دقيقة	ساعه	
	٦	تناول الشاى
٣٠	٦	غناء ومذاكرة روايات مضحكة وموسيقى ورقص وغير ذلك
٣٠	٨	طعام العشاء ثم الصلاة
	٩	نوم

وأول شئ يلاحظه القارئ فى هـذا البيان تنوع الاعمال فى ساعات النهار . ويؤخذ منـه ان ادارة المدرسة تخشى تكليف الطلبة فوق جهدهم . ورغبتها فى تربية جميع الملكات على السواء . لذلك يقترن التعليم العامى بالتعليم اليدوى والتعليم الصناعى . وينقسم بين الاعمال كما يأتى :

دقيقة	ساعة	
	٥	أشغال عقلية
٣٠	٤	تمرينات جسمية واشغال يدوية
٣٠	٢	اشغال صناعية ورياضات عادية
	٩	نوم
	٣	اكل وخلو عن العمل

فالمجموع أربع وعشرون ساعة

وليس فى يوم الاحد عمل ما بل يقضيه الطلبة كما يشاؤون . وبالجملة فان اليوم ينقسم الى ثلاثة أقسام : الصباح وعمله عقلى وبعد الظهر وعمله يدوى فى الغيط أو المصانع والمساء وعمله الفنون والموسيقى والرياضات العادية ولنبحث فى كيفية استعمال كل قسم من هـذه الاقسام الثلاثه لنقف على نتائجه

أما التعليم العقلي فمداره على القواعد الآتية (تقريب المسميات من أسمائها بحيث يتعود الفكر على الانتقال من المادة الى معقولها وتربية الطلبة على استعمال ماتعلموه والرغبة فى التعلم لفائدة أنفسهم من دون تحريض عليه بمكافأة أو امتياز) ومما اشتهر فى انجلترا وفى الولايات المتحدة بأمريكا ان طريقة التعليم التى يحث فيها التلميذ على العمل بالمكافأة والتمييز معيبة لأنها تجعل الغيرة أساس التقدم بدل تأسيسه على محبة الواجب وهى طريقة تولد فى الانسان احدى الرذائل . والواجب فى تربية الاطفال وجعلهم رجالا ان يعاملوا معاملة الرجال . فيستفزهم المربى بمخاطبة وجدانهم على قدر الامكان وقد أخبرنى الدكتور (ريدى) ان هذه الطريقة لا تضعف من رغبة الاطفال فى العمل بل تقويها لأنها ليست متعلقة بمكافأة أو امتياز بل راجعة الى العمل نفسه اذ يجب ان لا يفهم الطفل ان المكافأة أو الامتياز هو الغرض النهائى من التربية وان الحياة مقامرة أو ارضاء لشهوة التفاخر والاعجاب

وانى أخشى أن يندهش الفرنساويون من مطالعة ما تقدم لان طريقة التعليم عندنا مناقضة لتلك الطريقة على خط مستقيم . غير ان الطريقة التى شرحناها مقول بها من كثير من معلمى الانكليز الذين وصلوا فى تربية الرجال الى درجة عالية . والامريكانيون على هذا الرأى أيضا كما أخبرنى به موسيو (بول بيرو) فى خطاب أرسله الىّ جاء فيه ان مدير مدرسة القديس (بول) فى مدينة (مينيزوتا) كتب اليه ضمن رسالة ما يأتى (انا لانعطى جوائز لتلاميذنا ولا نطلب منهم ان يكتبوا مقالات أبدا

نعم قد يتفق أنهم يبحثون جميعاً فى موضوع واحد غير انى عند ماألقى عليهم نتيجة عملهم أجعل كلامي بحيث لا يتبين واحد منهم من هو أحسنهم عملا بل أقول له ان عملك هذه المرة أحسن من عملك في يوم كذا أو أقل منه . لأنى اعتقد أنه لايليق أن يرى الطفل نفسه أرقى من غيره بل ينبغى أن يعرف أنه تقدم عما كان عليه هو منذ أسبوع) ولهم فى تعليم اللغات العصرية اعتناء عظيم وطريقة تخالف ماجرى عليه غيرهم . وليس من المدهشات أن أقول انا نتعلم اللغات ولكننا لانعرفها . فمن البديهى ان طريقة التعليم عندنا سيئة ويظهر لى أن طريقة موسيو (ريدى) اضمن للوصول الى الغرض المقصود . فيبدأ فى التعليم باللغة الانجليزية مدى السنتين الاولتين أى من العاشرة الى الحادية عشرة . ثم يختار الكلام فى السنتين الثانيتين بالفرنساوية . ثم تستعمل اللغة الالمانية سنتين ثالثتين . ولا تقرأ اللغة اللاتينية الا بعد ذلك . وكذلك اللغة اليونانية لمن أرادها من الطلبة ومن الواضح أن هذا التعليم بتلك اللغات المختلطة لاينتج الثمرة المقصودة الا اذا كانت الطريقة المستعملة عملية ترجع بالنظر الى اللغات الحية الى التكلم أولاً وحفظ النحو ثانية على قدر اللازم فى الاستعمال . وهى طريقة جهلها مدرسو اللغات غالبا مع أنها طبيعية لان الطفل يبدأ بتقليد أبويه فى الكلام من غير عناء ولا التفات ويتمكن من استعماله وهو شئ غير يسير . فلى أربعة أطفال سن أكبرهم تسع سنين . وكلهم يتعلمون الالمانية على هذه الطريقة بواسطة الكلام مع احدى المربيات . واراهم يتقدمون فيها تقدما سريعا فانهم بعد أربعة أشهر صاروا يتكلمون بتلك اللغة فى ألعابهم . ومن

العجيب أنهم صاروا يستعملونها فى خصامهم وهم اليوم يتعلمون نحوها بواسطتها كما يقرأون النحو الفرنساوى باللغة الفرنساوية . وقد أتيت بهذا المثال الحاضر بين يدى لا برهن على طريقة التعليم في المدرسة الجديدة ان كان هناك احتياج للدليل . ولكى لا ينسى التلاميذ اللغة التى تعلموها فى اشتغالهم بغيرها وجب أن يتكلموها ساعات معدودة فى النهار . كذلك هم يتعلمون علم الحساب فبعد أن يقرأوا القواعد يطبقونها على العمل كأن يكلفوا بصنع شئ يحتاج الى التنسيب بين أجزائه . ومن ذلك اشتغالهم بالمساحة . وتعطى اليهم مصاريف العزبة والبستان والمصنع والالعاب وأدوات الكتابة والعمل الكيماوى والرسم والمأكل وحطب التدفئة ليحسبوها ويفصلوا كل شئ عن الآخر . ومن الظاهر أن هذه الطريقة تجعل الدرس مقبولا اذ تتبين فائدته لكل طالب . فيتعلمون من الارقام كيف يديرون حركة المنزل . ويتولون ادارة المصنع أو المتجر . . وهكذا يصيرون رجالا عاملين متصفين بما تقتضيه معيشة الاجتماع

ويبنى تعليم العلوم الطبيعية على النظر الذاتى وهو سهل لان المدرسة قائمة فى الخلاء فلا يتعب الطلبة فى جمع العناصر من جماد ونبات وحيوان . ويتعلمون كيف يعيش الحيوان كما يتعرفون عاداته ويفرقون بين أجزائه الخارجية قبل أن يعرفوا أعضاه الداخلية وهيكله الخفى . ويعرفون شكل النبات وتركيبه قبل معرفة أقسامه وأنواعه . وأسماء النجوم ومظاهرها قبل قوانين حركاتها . ويتوصلون الى ذلك كله بالرياضات التى قدمنا ذكرها . وبهذه الواسطة يصير العلم طبيعياً عندهم فيقفون عليه كما ينبغى ويقبلون

عليه اقبالا ويدخل أذهانهم بسهولة ثم يرتسم فيها ارتساما . ويخرج الطالب من الدرس ميالا الى الاكثار من معلوماته حتى بعد خروجه من المدرسة لان فائدته ظاهرة لديه لا كالميل الذى يشعر به المتعلم على طريقتنا اذ يتولاه الملل غالبا

وتقرب طريقة تعليم التاريخ من الطريقة المتبعة عندنا فى تعليم العلم الاجتماعى . فيجتهد المعلم فى بيان الفائدة منه بتقريب العلل من معلولاتها وبيان مدلولات الوقائع لا فى تعبئة الذاكرة بالحوادث والتواريخ كما يجتهد فى بيان النسب بين طبيعة البلاد وسياستها وتقدم تجارتها . ويبدأ بتعلم التاريخ الانجليزى ثم بمقتطفات من التاريخ العام . فيتعلم الطلبة من تاريخ اليونان أصول الامم الحاضرة . ومن تاريخ الرومان مثال حكومة عظمت فيها السلطة وكانت من أكبر المساعدات على انتشار الامة فى الخارج . ثم التعليم واحد لجميع الطلبة حتى يبلغوا الخامسة عشرة وبعد ذلك يختلف لكل واحد بحسب العمل الذى يتوخاه بعد اتمام درسه . وهم يريدون أن يكونوا مدرسين أو من أرباب الحرف الادبية أو موظفين أو الزراع أو الصناع أو التجار أو المستعمرين وكل واحد يجتهد فى العلم الذى يوافق ارادته . وفى ذلك من التسهيل واللين فى التعليم ماتعظم فائدته مما لا يضطر معه جميع المتعلمين الى قراءة درس واحد لا يفيدهم أجمعين . وهنا يقال أن التعليم مقصود لمنفعة الطلبة لا ان الطلبة خاضعون للتعاليم

وخلاصة القول يدور محور التعليم على الجمع بين العلم والعمل والغرض منه تحصيل المعارف النافعة فى الحياة

ولتلقى الدروس التى بيناها ثلاثة أوقات كلها فى الصباح وما بعد الظهر من النهار مخصص الى الاعمال اليدوية والرياضات الجسمية . هكذا يربى الجسم بعد العقل . ولا شك فى ان الآباء من الفرنساويين يندهشون كثيرا من القسم الاخير لان تربية الجسم عندنا فى غاية الاهمال فقد رأيت أخيراً تلميذا عمره تسع سنين من طلبة مدرسة « سانيسلاس » الخارجين يشتغل طول النهار فيها ثم يذهب الى البيت منكبا فى المساء على درسه الى الساعة التاسعة أو العاشرة . وهو تكليف مضر بالصحة وغير مفيد فى تحصيل العلم . وسببه وهم البعض بأن التلميذ يحصل من العلوم على قدر الزمن الذى يشتغل فيه

ويقضى الطلبة من الساعة الاولى والدقيقة الخامسة والاربعين الى الساعة السادسة بعد الظهر مشتغلين فى البستان والزراعة والمصانع والرياضة بالمشى على القدم أو الدراجة . والغرض من ذلك كما هو مذكور فى الكراسة « انما التربية الجسمية والاحاطة بالاشغال الصناعيه وفائدتها وتشجيع العزيمة على المشروعات وتقدير العمل الذى تمت مباشرته ليكون كل واحد عارفا ما يأتيه بنفسه أو ما يكلف بملاحظته من الاعمال . ولما كان فتور العزيمة عن العمل اللازم فى الحياة ناشئا فى الغالب من ضعف الجسم وجب ان يتريض التلامذة فى كل يوم على الاعمال الجسمانية والاشغال اليدوية فانها تزيد فى تقوية الهمة وانعاش الجسم والتخفيف من تأثره مما هو لازم للافراط فى الدرس وعدم الحركة »

وقد لاحظوا فى ذلك اختيار الاعمال ذات الفائدة العملية حتى يكون

الطالب غير بعيد عن شواغل الحياة الحقيقيـة فيكاد ان يكون الطلبة هم الذين بنوا مدرستهم ونظموها وهم الذين صنعوا القسم الاكبر من الاشياء التى يتمتعون بها فيها كما فعل « روبانسون » فى جزيرته

كان البستان أيام افتتاح المدرسة مملوءاً من الحشايش الرديئة . والعزبة مفعمة بالانقاض . فأصلح الطلبة كل شئ . ثم أحـدثوا الطرق . ونظموا المصارف . وطلوا الحواجز بالقطران . ودهنوا الاخشاب والمحلات بالالوان واتخذوا ميدانا فسيحا للالعاب . وصنعوا كثيراً من أثاث البيت بما تعلموه فى المصانع من أنواع النجارة . واتفق ان رجـلا من رجال العزبة مرض ثلاثة أيام فقام الطلبـة بأعماله وملاحظة المـاشية . ومال بعضهم الى اقتناء جواد فاشتروه من السوق وعلمهم المتقدمون عنهم ركوبه وقيادته

ويزداد العمل مدة الصـيف فى البستان والعزبه كما تتغير الالعاب . ولا يلهى التلامذة بأخذ صور الاشياء بواسطة الآلة « الفتوغرافية » أو بالرياضة على الدراجة الا فى أوقات الفراغ . وقد شاهدت من صنعهم مائدة ودولابا وآلة للنزول فى جوف المـاء وبيتا للبط وآخر للحمام ومظلة كبيرة من الخشب « عنبر » ومركبين تامتين وثالثة غير تامة وغير ذلك

وبينما أنا أكتب هذه السطور ورد على كتاب من مسيو « بيفردج » يخبرنى بأنه ذهب بابنه الى المدرسة ويحكى ما رآه فيها فاقتطفت من كتابه ما يأتى « لمـا وصلت الى المدرسة وجدت عددا من الاطفال مشتغلين بطلاء آلة لعب صنعوها بأنفسهم فى السنة المـاضية . وقد شرعت المدرسة فى اقامة قنطرة على النهر المجاور لهـا وعرضه من ثلاثين مترا الى أربعين قوائمها من

البناء حتى تصير متينة وسيقوم التلامذة بجميع تلك الاعمال وشاهدت واديا صغيراً مغروسا بالاشجار يمتد من أرض المزارع الى مبانى المدرسة الموجودة على مرتفع عظيم يعلو عن النهر بمائة قدم تقريبا . وفى وسط ذلك الوادى غدير صغير من الماء قد اتخذ التلامذة فيه حياضا صغيرة جمعوا بينها بطرق ضيقة وقاموا بجميع ما استوجبته من الاعمال ولم يستعينوا ببنّاء الا فى حالة الضرورة المطلقة . وعولت المدرسة على توسيع بنائها حتى يسع مائة تلميذ وهو اكبر عدد يرى الدكتور « ريدى » امكان قبوله ليتمكن من ادارته كما ينبغى . وقد شرع التلامذة تمهيداً لذلك فى مقاس الارض وتخطيط البناء . ويوجد على مقربة من المدرسة معمل كيماوى ومصنع للنجارة يشتغل فيهما الطلبة تحت ادارة مسيو « هيرنومان » الذى رأيتموهُ فى « ادنبورج » باعمال متنوعة لانفسهم وللمدرسة . ومن نيتهم فى الثلاثة أشهر القابلة أن يعلموا التلامذة صناعة الخشب على طريقة « لويد » التى شاهدتموها مدة وجودكم هنا . وليس فى داخل المكان شىء من الزخارف التافهة غير ان أساس الغرف قد استجمع موجبات الراحة كلها ثم انى شاهدت على وجوه الطلبة وهم يتناولون طعام الضحى علائم الهناء والعيشة الراضية فاجتمعوا حول ست موائد صغيرة برأس كل واحدة منها أحد المعلمين وأنشدوا دعاء الطعام بهمة واشتياق ورأيت بينهم وبين معلميهم حرية تامة واطمئنانا كاملاً ومن عادة هؤلاء أن يمشوا مع الطلبة وقت التريض ويعاملوهم كأنهم اخوة اكبر سنا لا باعتبار أنفسهم قوما ممتازين وهم يتحرون على الدوام استعمال الالفاظ المألوفة عندهم وقد ينطقون أحيانا

بما يألفه الطلبة عادة من كلمات العامة ولا فرق بينهم وبينهم الا رداء يلبسونه علامة على انهم من العلماء . وللدكتور « ريدى » شغف بتعويد التلامذة على الاشغال الخارجية لذلك ينتدبهم فى مهمات جسيمة كأن يرسلهم الى البيوت المالية ليأتوا له بالنقود منها وغيرذلك وظاهر ان غرض موسيو « ريدى » من هذه الاعمال الجارية والاشغال اليدوية ليس قاصرا على تعليم الطلبة مالا يكتسبونه بالدرس والمطالعة بل يتناول تربيـة أجسامهم وتقويم صحتهم واعـدادهم الى التغلب على متاعب الحيـاة . وله اعتناء فى الوقوف بنفسه على ما يحصـلونه من ذلك كله فمن كلامه ما يأتى « لقد أردنا ان نقف على تقدم الاطفال وترعرع أجسامهم حتى نعرف جودة غـذائهم وموافقة أحوال معيشتهم لصحتهم . لذلك نقارن بين تقدم جسم كل واحد منهم مدة وجوده فى المدرسة ومدة وجوده فى المسامحة ولو انا رأينا تقدمه فى المدة الثـانية أعظم منه فى الاولى لتبينا ان حالة المعيشة عندنا سيئة . نعم ان الموازين التى نزنهم بها لا تدل على مقدار ما اكتسبوه من الخفة وسهولة الحركة غير انه يهمنا أن لا يكون كسبهم من هذه الجهة مضعفا لاجسامهم وقد دلتنا تجاربنـا على ان النتيجة حسنة » ويلى هذا بيانان أحدهما فى الوزن والثانى فى الطول يعلم منهما القـارئ ما كسبه التلميذ فى المدتين ويرى ان مدة المدرسة راجحة على زمن الاجازة ولا غرابة فى هـذا فان نوع المعيشة فى المدرسة من أحسن ما يطلب لتربية الاجسام قال موسيو « ريدى » « وتدل هذه الارقام من أول الامر على ان مدرستنا تعتبر من جهة تغذيتها وملبسها وحالة معيشتها معمل يتخرج منه رجال أشداء أقوياء . فالامراض

عندنا قليلة حتى دوار الرأس والزكام اذ من طريقتنا تعليم الشبان ان الرجل ينبغي أن يكون في صحة تامة وان الامراض انما تنشأ عن الخطأ والجهل والافراط في الشغل وعدم ترتيبه أو من الفساد . ولذلك نجتهد كثيراً في تعويدهم على حب النظافة والتمسك بالقواعد الصحية » ولكل طالب اناء ماء بجانب سريره . وقد ذكرت هذه الجزئية لاقابل بين تلك المدرسة وبين مدارسنا حيث لا يستعمل الماء الا بالتقتير والتدقيق الكلى كأنه من جملة الزخارف . كذلك نحن نقتصد في الهواء كما نقتصد في الماء . اما في « أبوتصولم » و « بيدال » فان الطلبة ينامون في غرفة فتحت منافذها حتى في الشتاء .

الى هنا بينا كيف يقضي التلامذة وقتهم من الصباح الى الساعة السادسة بعد الظهر وهو وقت تناول الشاى وبقي ثلاث ساعات حتى يأتي موعد النوم وهذا عملهم فيها

قال « بونالد » في تعريف الانسان « الانسان عقل تخدمه الاعضاء » وقد علمت كيف انهم في تلك المدرسة استخدموا الصباح لتربية القسم الاول وما بعد الظهر لتربية الثاني . الا ان الرجل نزيد على هذا التعريف بكونه مدنيا بالطبع لا محيص له عن الاجتماع . فينبغي أن تكون تربيته موافقة له . والاجتماع يطلب من المرء أن يكون مهذب الاخلاق حتى يكون أنيس العشرة مقبول المسامرة بين أمثاله . وقد خصصت تلك المدرسة الساعات الثلاثة الباقية لهذه التربية قال موسيو « ريدى » « من غرضنا ان نعود الشبان على ما ينفي عنهم الخجل وسوء الحركة ويدعوهم الى الارتياح

من الاجتماع باكبر منهم سنا . لذلك يجتمعون كل مساء فى غرفة واحدة مع سيدات المدرسة والزائرين . وقد نظمت تلك الغرفة على مثال منتسق تستريح له النفوس وانتخب اثاثها والصور والتماثيل التى فيها لهذا الغرض » فاذا اقبلت الساعة السادسة تحولت المدرسة الى بهو يتسامر فيه الحاضرون ويلعبون بآلات الطرب وأهمها الموسيقى ويترنمون بالاناشيد ويمثلون المضحكات ويقيمون المراقص والملاهى . جاء فى الكراسة « ان الموسيقى من أهم اشتغالاتنا فلنا فى كل أسبوع ليلة موسيقية وفى كل ليلة ألعاب على « البيانو ولذلك تأثير عظيم فى التلامذة ولهم أيضا كثير من آلات الطرب الاخرى وآلات الرسم والتصوير » وقد بني التلامذة ملهىً لتشخيص الروايات لانهم لا ينظرون الى هذه الالعاب كأنها رياضات بسيطة بل يعدونها من أعظم وسائل التربية . ولهم ليلة فى كل أسبوع يقرأون فيها مؤلفات « شكسبير » . وقد تألفت جمعيتان منهم للمناقشة فى المسائل المختلف عليها . ولهم جريدة تسمى « مجلة المدرسة » ينشرون فيها اخبارها وحوادثها مصحوبة بصور وفيها قسم للادبيات . ويقول صاحب الكراسة ان الغرض منها تربية الملكات الادبية والفنية وتمثيل المدرسة فى اذهان التلامذة كأنها عالمٌ تام صغير . ومما يزيد فى نمو الملكات الفنية دار للتحف شرع فى تأسيسها وقد وجدفيها نسخ من صور أكابر المصورين وتماثيل واثاثات جميلة وغيرذلك . ثم ينتهى اليوم بالصلاة كما بدأ الا ان المدرسة ليست تابعة لمذهب مخصوص من مذاهب « البروتستانت » فهم فيها غير مقيدين بطريقة دون أخرى ولاهمّ لهم بما يسمونه « الاعتراف » ويقتصرون في صلاتهم فى المعبد

وقبل الطعام على تلاوة بعض آيات التوراة و نشيد بعض الالحان والاستغاثة ببعض التضرعات الادبية الدينية العمومية

وللتلامذة من يوم الاحد فسحة يعبد كل واحد منهم فى الكنائس القريبة من المدرسة على حسب قواعد مذهبهِ الخاص ويذهب الكاثوليك منهم لسماع القداس فى كنيسة قريبة

واليك ماجاء فى الكراسة مختصا بالدين « للدين شأن خطيرٌ في الحياة فوجب ان تكون ممزوجة بهِ . غير انّا لا نعلّمه التلامذة كأنه جزء منها بل باعتباره كلاًّ منتظما ينتشر فى الذات كلها وان اختلفت المذاهب وتشعبت الطرق . فيجتمعون ربع ساعة فى الصباح . ومثل ذلك فى المساء ليشتغلوا بالدين ويتوجهوا الى ربهم باشارات ظاهرة »

تلك هى المدرسة وذاك هو نظامها . وهى تجربة أراها مفيدة للغاية لانها تدل على ميل الافكار الى اختيار طريقة فى التعليم توافق مقتضيات الهيئة الاجتماعية فى الاعصر الحاضرة وهى تخالف كل المخالفة جميع الطرق المألوفة فى غيرها لما هى عليهِ من التعليم العملى وافراغ جهدها فى تربية الرجل من جميع الجهات والوصول بملكاتهِ الى الممكن من التقدم وانماء قدرته وعزيمته وهمته الى الحد المستطاع . وفى هذا ميل الى التربية الاستقلالية التى تنتشر الآن فى جميع انحاء المسكونة

يجب فى العالم الجديد تربية جديدة يشب المرء فيها معتمداً على نفسه لا على الجمعية أو حزب من الاحزاب فينظر فى عمله الى المستقبل ليكون هو قبلة حياته التى تشخص اليها ويهمل الماضى فلا يربط أعمالهُ بما كان يقتضيهِ

وبينما كنت ذات يوم احادث صديقا لى بهذه المدرسة قال لى « انها لتجربة مفيدة غير انى أرى فيها عيبا هو ان نظامها داخلى » والداخلية كما هى عندنا فى البلاد الفرنساوية نظام مضر فى الحقيقة بالتلامذة جسما وعقلا لانها تجعل المدرسة ثكنة تحشد المئات من الاطفال فى أماكن ضيقة وفى نظام اشتدت مقتضياته وذلك ادعى الى اضعاف الهمم وأولى بتربية العساكر والموظفين منه بتربية عزيمة الافراد واطلاق الصراح لما فيهم من القوى وما فطروا عليهِ من الاقتدار . لكن من الخطأ الواضح عدم التمييز بين هذه الحال وبين التى شرحناها فلا جامعة بينهما الا فى الاسم . ومن الواجب التحرز من الالفاظ لانها تطلق غالبا على مسميات لاشبه بينها فعدد الطلبة فى تلك المدرسة محدود لا يزيد اليوم على الخمسين ولن يزيد فى المستقبل على المائة كما صرح به الدكتور « ريدى » لعلمه ان الزيادة عن ذلك تعيق سير التربية . ثم انهم لا يخرجون من عائلاتهم الا ليدخلوا فى عائلة أخرى وهى عائلة ناظر مدرستهم التى تقاسمهم الحياة فى المآكل والمقام . فحياتهم فى الواقع حياة عائلية على مثال أوسع . ثم انقطاعهم عن عائلاتهم أقل منه عندنا لان اجازاتهم أكثر من اجازاتنا ومدتها أطول : يسامحون سبعة أسابيع فى الصيف وأربعة فى الميلاد وثلاثة فى الربيع وبذلك يقيم التلامذة بين عائلاتهم ثلاثة أشهر ونصفا فى السنة على مرات متعددة ويظلون ذاكرين عوائدها وتقاليدها

لكل نوع من أنواع الجمعيات تأثير خاص فى طريقة التربية وهو الذى تنتزع منه الامة نظام مدارسها

فنها الجمعيات الاتكالية العائلية وتمتاز بانضمام عدد من تلك العائلات الى بعضها فى منزل واحد . وهو المثال الذى تأخرت فيه أغلب الأمم الاسيوية وأمم الشرق الاوروباوى . هنالك لا يعتمد الاطفال على أنفسهم فى كسب حياتهم بل اعتمادهم على جمعيتهم العائلية حيث يبقون فيها لتقوم بحاجاتهم أو يرجعون اليها ان أدركتهم الخيبة فى طريقهم . ومن كان هذا شأنه ضعف شعوره بالحاجة الى التعليم الشخصي فيهبط ذلك التعليم الى أسفل الدرجات وربما اقتصر فيه على معارف العائلة مستعينة بنصائح أحد رجال الدين . ومن المعروف ان شأن المدارس فى تلك الجمعيات غير خطير ففيها مثال التربية المحصورة فى العائلة والموكول أمرها الى العائلة

ومنها الجمعيات الاتكالية الحكومية . ومميزها قيام الحكومة مقام العائلة التى انعدمت فتنحصر آمال الشبيبة فى وظائفها الادارية . والعسكرية وهذا شأن أغلب الامم الغربية الاوروباوية وأخصها فرنسا والمانيا . وينبغى للطلبة فى نوال تلك الوظائف ان يفوزوا فى امتحان تزداد صعوباته كل يوم تخلصا من تكاثر الطالبين . واذ ذاك تحول المدارس وجهتها الى طريقة جديدة فى التعليم فتكلف الطلبة مالا طاقة لهم على احتماله وتطلب من الذاكرة حفظ المعقولات من غير تفقه . فما الغرض من التعليم . تربية رجال قادرين على احتمال متاعب الحياة بل المراد اعداد الطلبة للمخاطرة فى الامتحان . وأعظم المدارس نجاحا فى ذلك هى التى اختارت نظام الداخلية لانها تضحى كل فائدة الا ما قصد به الامتحان كانما حياة المرء تنتهى بالامتحان فيجتهدون فى توصيله اليه بتكليفه مالا قدرة له عليه . ومن

فائدتهم انه يوجد فى المدرسة الواحدة خمسمائة تلميذ أو ألف أو أكثر من ذلك لأن المعلمين لا يعتنون بكل واحد على انفراده كي يصير رجلا كاملا يقوم مقام رب عائلة . وعليه ليس للاختلاط فائدة وليس أحسن المعلمين فى تلك الاحوال أكثرهم علما أو أكملهم وقاراً أو أبعدهم نظراً بل أحذقهم فى حشو رؤوس التلامذة بكثير من المواد فى أقرب وقت ممكن وأكثرهم خبرة بطرق النجاح فى الامتحان وأدراهم بطرق الممتحنين وأخلاقهم

والنوع الثالث هو الجمعيات الاستقلالية ومثالها الامم الاسكنديناوية والانجليز السكسونية . وتختلف مدارس هذا النوع عن مدارس النوعين السابقين . هنالك لا يعتمد المرء على العائلة لانحلالها ولا على الحكومة لقلة وظائفها وعدم انحصارها فى يد واحدة بل كل اعتماده على نفسه وهمته واقدامه

ومن هنا وجب ان يكون الغرض من التعليم تربية تلك الملكات كلها حتى يكون مفيداً للرجال فى أعمالهم وان تكون المدرسة قريبة الشبه فى نظامها من الحياة الخارجية على قدر الامكان . وهى لا تصل الى تلك الدرجة الا اذا كانت صغيرة وعدد تلاميذها غير كبير وأولى فى المدينة ان ينام الطلبة فى بيوتهم ليلا وفى الريف ان يقيموا فى المدارس على الدوام . وينبغي فى هذه الحالة الاخيرة ان تكون حالة المعيشة فيها شبيهة بمعيشة العائلة كي لا ينفصل الطفل عن عاداته فى بيت أبيه

ومن هنا يتبين انه لا يكفى تقسيم المدارس بحسب كونها داخلية أو خارجية بل تلاحظ أنواع كل من القسمين فلكل نوع نظام مخصوص

ومعيشة ممتازة ونتائج على حدتها

ويؤخذ مما قدمناه ان السبب فى عدم امكاننا اصلاح مدارسنا على النحو الذى شرحناه هو حالتنا الاجتماعية أى أخلاقنا التى تدفع الشبان نحو الامتحان والوظائف التى تؤدى اليها . وقد يظن البعض ان نظام تلك المدرسة لا يفيدنا الا من قبيل العلم به وهو خطأ لانا نعلم انه لما كان عدد التلامذة قليلا كان أمل النجاح فى الامتحان مع الاجتهاد كبيراً . ولكن الاحوال تبدلت وتزاحم الشبان على الوظائف وجرت الطبقات الوضيعة من الامة على مثال الطبقات الوسطى حتى صار لكل وظيفة مائة طالب فلا يجد الطالب بعد الامتحان باباً يدخل منه على الوظائف بل سورا منيعا بعيد المنال وليس من الحكمة حمل الشباب على مناطحة هذا السور . لذلك أخذ المتأملون يخففون من احتقارهم للمهن الحرة غير انها يجب لها صفات لا تنتجها تربيتنا الحالية كما هى من ثمرات تلك المدرسة التى بينا نظامها

الفصل الرابع

﴿ كيف ينبغى ان نربى أولادنا ﴾

اعتدنا معشر الفرنساويين فى ايجاد مرتزق لابنائنا على امهارهم بشئ من المال نجمعه بالاقتصاد ثم نتبع ذلك بالبحث لهم عن زوج أو زوجة متناسب فى الثروة . وبعد ذلك نجتهد فى انالتهم احدى الوظائف العمومية

متى تيسر . وقد قامت العقبات هذه الايام فى سبيل النجاح بهذه الواسطة لانخفاض فائدة النقود فبعد ان كانت خمسة فى المائة صارت أربعة ثم ثلاثة وصار من المتعذر جمع المال اللازم للابناء . وقد كانت هذه الصعوبة خافية عنا الى هذا اليوم لوفرة المال عندنا فانك تسمع الناس من كل جانب يقولون ان فرنسا بلدة غنية لديها كثير من الأموال وهو صحيح بدليل ان أكبر سوق للنقود يوجد فيها غير انه لسوء الحظ ليست وفرة المال من عمل الأمة خاصة بل سببه أحوال عرضية لا تدوم طويلا وتلك الاحوال فى الحقيقة من أمارات الانحطاط لا من علامات التقدم والرخاء

فمن تلك الاسباب الاقتصاد فى النسل اذ لا شبهة فى ان عدد الفرنساويين يقل سنة عن سنة فقد دل التعداد الاخير على ان الوفيات تزيد على المواليد وهى حالة نادرة الا انها اليوم خاصة بفرنسا حتى جعلتها فى مؤخر الامم ومن هنا أى من قلة عدد الذرية يكثر المال لان الرجل الذى يصرف ستة آلاف فرنك فى السنة لتربية ستة من الاولاد لا يصرف الا الفاً فى تربية ولد واحد ويقتصد خمسة آلاف فى كل سنة . وللفرنساويين ميل شديد الى هذا الاقتصاد لذلك تراهم أكثر مالا من الامم التى يكثر فيها عدد أفراد العائلات . وهذا من الأسباب التي جعلت في فرنسا أكبر سوق للنقود

ثبت اذاً ان لقلة الاولاد دخلا فى وفرة المال . وهناك سبب آخر هو تباعد الفرنساويين عن المهن الجارية وهربهم من الزراعة والصناعة والتجارة فلا يميل اليها الا القليل والكثير يفضل عليها الوظائف الادارية

لهذا اجتمع الاطفال كلهم حول مدارس الحكومة حيث يضيع مستقبلهم في جوانبها . فكل من كسب درهما أو درهمين من الزراعه أو الصناعة أو التجارة يمسى ويصبح مفكراً في الخروج من مهنته وفي تربيـة ابنه ليكون ضابطا في الجيش أو موظفاً في الحكومة أو من الكتاب وأهل الأدب . وعليه فالفرنساوى لا يدبر ماجمـع من المال بنفسه بل يدخره حتى يرمى به في أسواق البيع والشراء المالية « البورصة » وهكذا كان هرب الفرنساويين من الحرف والصنائع موجبا لزيادة المال المخزون . الا أن هذه الاسباب التى تدعو الآن الى وفرة المال تؤدى أخيراً الى النقص فيه سنة بعد الاخرى وتنتهى بضياعه في زمن يتخيلون أنه بعيد . فكما ان نقص الاطفال يزيد في الاموال فانه من جهة أخرى يضعف القدرة على الاعمال فان كان للرجل ستة أولاد لزمه أن يشتغل كثيراً وكثرة شغله تزيد في ثروة الامة . فان لم يكن له الا ولد واحد قل عمله وضعف تأثيره في انماء الثروة العمومية . وكذلك اذا خرج الطفل من عائلة كبيرة العدد قل أمله في ثروة أبويه وعول في رزقه على نفســه فيزداد اقدامه على العمل وتكبر فيه الهمة بخلاف ما لو خرج من عائلة هو وحيدها فانه يجعل كل اعتماده عليها ولا يعول على نفسه الا قليلا . وزد على هذا أن نفورنا من الصنائع ذات المكاسب وأن سهل لنا أن نلقى بجميع ما اقتصدنا من المال في الاسواق المالية يبعـدنا عن منابع ذلك الاقتصـاد اذ لامصدر للثروة العمومية الا الزراعة والصناعة والتجارة وقد نسينا أن غيرها من المهن والحرف دخيل ليس بالاصيـل وأن مرجعها كلها الى تلك المنابع الثلاثة

وربما قال بعضهم أن تلك الحالة تدوم لنا بدوامنا فنجيب بان ذلك غير مأمون وعلى كل حال فمن المحقق أنها لاتدوم لاطفالنا . ألا ترى أن كثيراً من أولئك الشبان التعساء لا ينجحون اليوم في الامتحان لكثرة عدد الطالبين مع ازدياد عدد الوظائف الى حد الافراط فهم أشبه بالظمآن يرى السراب فيظنه ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا . وليت شعري ما ذا يفعلون بعد ذلك كما لست أدري ماالذى في امكانهم أن يفعلوه

وما الذى أهلتهم اليه تربيتهم في العائلات والمكاتب والمدارس غير الحرف الادبية والمصالح العمومية والوظائف الحربية . كم قالوا لهم انها أشرف الصنائع وأنه لا يليق بهم سواها لافرق في ذلك بين عائلات الطبقة الوسطى وعائلات الدرجة السفلى حتى صار كل الناس يذكرون ذلك في القصور والحوانيت والمدن والأرياف وأصبح كل شاب يحلم بالوظائف في الحكومة وأمسى على باب بعض الوظائف آلاف من الطالبين كما تشهد به التقارير الرسمية وظل أولئك التعساء يتقلبون على جمر الانتظار وقد غصت بهم رحاب المصالح وملأوا جيوبهم من رسائل التوجيه وجعلوا يندبون حالهم وينتحبون ولا يحجمون عن امر الا استعملوه اللهم الا رجوعهم الى انفسهم وطلبهم الرزق بعملهم مما ربما كان أوفر حالا وأعظم ثمرة ومما هو بلا شك ادعى الى الاستقلال وأولى بحفظ الكرامة . وما عدولهم عن ذلك الا من خوف الخيبة لذلك فضلوا التردد على الوظائف مهما صغرت وأن ردوا . وطال عليهم أمل الانتظار وظنوها حالة يحسدون عليها فطالب الاستخدام يلتحق بالمستخدمين في رأى هذه البلاد التي سادت فيها

الوظائف واسفاه وان ذابت مرارته من الانتظار على مقاعد الحجاب وصغر المطلوب وعز النوال . كذلك هم يعدلون لكونهم لا يقدرون على تلك الصنائع المستقلة لان تربيتنا الفرنساوية كما بلغت الممكن من تخريج الموظفين قد وصلت الى العدم فى تربية الرجال المستقلين ممن لهم همة وقدرة على مغالبة متاعب الحياة . فلا يليق شباننا لغير تلك الوظائف التى يكونون فيها تابعين ويفرحون لكونهم يتناولون بلا عناء فى آخر كل شهر راتباً معدوداً ويعرف كل واحد منهم مصيره قبل دخوله فى الوظيفة وانه اذا بلغ من العمر كذا صار وكيلا لرئيس واذا بلغ كذا صار رئيساً لاحد الاقلام ثم اذا بلغ كذا تقاعد وأخذ المعاش . ولا يجهل من تلك الازمان الا زمن الموت . وظاهر انه لا يمكن حصر دائرة الحياة في حدود أشد ضيقاً من هذه الحالة

ويستخلص مما تقدم انه ينبغي لنا التنويع فى تربية ابنائنا اذا اردنا ان يكونوا قادرين على حياتهم فى الازمان التي استهلت مستعدين لمقاومة سوء الحال الاجتماعى الذى قد فتحت ابوابه

الحرج الاجتماعى اليوم عام ولا بد معه من وضع مسئلة التربية موضع النظر والتفكير . والحقيقة التى يجب ان نتخذها قاعدة للبحث فيها هى ان طريقة التربية المستعملة الآن لم تعد صالحة فى الغرض المقصود منها وانه لا بد من العدول عنها لانه لا نجاح فيها . ألا ترى ان الرجل يأتي كل شئ يعتقده مفيداً لابنائه ولا يهمل شيئاً مما أفاده هو ومع ذلك لا يصل ابنه الى ما وصل اليه حتى اصبح الآباء المجدون ذو الافكار ممن حسنت تربيتهم واستقامت عشرتهم يتساءلون وهم حيارى كيف يربون ابناءهم

ويجعلون لهم مرتزقا . هذا خذلان لا تتخلص منه ومهواة لا تتحرز منها الا بالعلم الاجتماعي . نقول ذلك لان الخذلان موجود فالناس تحمر وجوههم من هذه الحال ثم يغضبون ثم يرون الجو مظلماً ويقولون ان روحا خبيثة انتشرت في العالم وان الناس جبنوا فتركوا المبادئ الصحيحة ثم يشتد الغضب فيصخبون ولكنهم يبقون على ما كانوا عليه معتقدين انه هو الذي يجب الرجوع اليه فيخيبون خيبة كاملة

أما العلم الاجتماعي فهو أكبر اعتدالاً وأصدق مقالاً يختبر الحوادث ويقارنها ببعضها ويميز اشكالها ويعلم الناس ان العالم منتقل من حال الى حال احسن منه غير موقت بل دائمي . وهذا الانتقال يفصل الدهر الى قسمين ماضٍ ومستقبل وهو الذي يريهم اسباب الحرج الحاضر ووجهته وغايته وانه حرج لا يشابه غيره من بعض الوجوه

فمن تلك الاسباب تغير طرق الكسب والمواصلات على الدوام اعني تغير طرق المعيشة . لان العامل كان في الماضي يعمل في مصنع صغير أو في بيته أو بيت المصنوع له وكان المقبلون على سلعه قليلين لا يخرجون عن اهل قريته وكان صنعه في الغالب يدويا أو بآلات صغيرة وكانت طرق العمل واحدة يتلقاها الخلف عن السلف وكان الجديد في الصنع معدوماً او نادراً ولم يكن من مسابقة الا بين المتجاورين لان طرق المواصلات كانت قاصرة لا تساعد على تسفير المصنوعات الى البلاد القاصية وجلب غيرها منها وكانت المنافسة ضعيفة لما الفوه في ذلك الزمن من وضع النظامات التي لا تجعل للتزاحم محلا حيث تقررت طرق العمل وتحدد عدد

المعلمين والمتعلمين وغير ذلك . وبالجملة كانت الافكار متجهة الى المحافظة على طرق المعيشة المألوفة . ومن أجل هذا كانت التربية موافقة لمقتضيات الزمان تعلم الشبان ما تعلمه آباؤهم وتهيئهم الى ما عرفه الماضى من الاعمال وبقيت كذلك تنتج النتائج الحسنة زمناً طويلا . أما الآن فقد تغيرت الازمان وتبدلت احوال الاجتماع الانسانى وصار العامل يشتغل في مصانع كبيرة بآلات ضخمة ويبيع سلعه فى طرفى المسكونة وكل يوم يزداد عدد الطلاب وطرق العمل تتغير فى كل حين تبعا لتقدم العلوم . وقام الجديد مقام التقليد والاتباع واشتدت المزاحمة ووجب على الصناع تفاديا من شرها ان يبحثوا دائماً عن طرق تمكنهم من اكثار سلعهم او تحسينها أو تخفيض اثمانها . وتحولت المعيشة من هدو واستقرار الى حركة وتجديد واختراع . ومن أهم ما تجب ملاحظته انه ليس فى وسعنا اختيار احدى الحالتين لان الحالة الجديدة صارت ضربة لامفر منها

ومعلوم ان تغير طرق المعيشة يستلزم تغيير حالة العالم باجمعه . ومن هنا تولدت المسئلة المعروفة الآن بالمسئلة الاجتماعية وهي عبارة عن البحث فى وسائل الحياة

والسبب فى ظهور هذه الحالة الجديدة ظهور العلوم الطبيعية التى لم يقف العلماء على منتهاها بل هى لاتزال فى مباديها كما يراه ويشهد به كل انسان . فمن ذلك الحين انحدر المجتمع الانسانى في طريق تبدل احواله المادية انحداراً لايقاوم وانحلت الجامعة بين الحاضر والماضى لما اعتاد هذا من البقاء على حالته الاولى ولما اضطر اليه ذاك من ايجاد الوسائل التى تمكنه

من استخدام تلك التقلبات فى فائدته ورفع مضارها عنه والفرق بين الزمنين كالفرق بين الجندى الذى يحارب من داخل الحصن والجندى الذى يحارب في البيداء وهو فرق جسيم كلى . وليس بصحيح انه نتيجة ميل الناس الى الشر فى هذه الازمان وجبن طباعهم كما هو رأى من لم يتدبر الحوادث ويتفقه الاحوال بل هذه حالة مادية جديدة في العالم قضت بها القدرة الاهلية بما هدت اليه من العلوم الطبيعية التى من خصائصها التقدم والترقى . وما على المرء الا ان يكون بحال تطابق هذا التقدم فان فى ذلك مصلحته بل ان هذا صار من واجبه

قلنا ان العلم الاجتماعى يوضح اسباب الانحطاط كما انه يبين الغاية التى يسوق الناس اليها وهى واضحة

يسوق الانحطاط الناس الى حالة جديدة غير التى هم فيها . فلن يتأتى لامرء ان يعيش محصوراً فى دائرة محدودة ولا ان يعتمد فى معيشته على غيره ممن تعود الآن على مساعدتهم ولا على الاسترسال مع العوائد التى الفها بين قومه لان الوسط الذى يعيش فيه مائل أيضا الى التمزق والانحلال بتأثير ذلك التغيير المستمر فى حاجاته المادية كما أشرنا اليه . والرجل اذا تربى فى وسط مخصوص حتى صار يعتمد عليه فى جميع أموره لا يستطيع البقاء اذا فسد ذلك الوسط بل انه يتغير بتغيره ومن هنا وجب ان يكون الغرض من التربية تعويد الانسان على الاعتماد على نفسه فى حياته فلا يحتاج في طلب الرزق لغيره وان يكون قادرا على ان يدور مع الزمان كيف يدور . وهى الآن لا تنتج الا التمسك بالوسط الذى نشاء فيه

والاستعانة بعائلته وطلب المساعدة من معاشريه والاتكال على بعض الصنائع العرضية كالتوظف فى مصالح الحكومة أو الاحتراف بالاعمال الهينة التى لا تكلفه جدا ولا كدا

وبالجملة لافائدة اليوم من التربية اذا اقتصرت على تعليم المرء أن يعيش فى وسط مخصوص كالعائلة أو أهل المدنية أو السياسة . وانما هى تفيد اذا علمته ان تكون ذاته الوسط الذى يتكل عليه فيتمكن من استعمال قواه فى جميع الاحوال كما خلقه الله

وهذه التربية مخالفة لما جرت عليه الامة الفرنساوية من أول هذا القرن الى يومنا هذا . فترى الآباء اذا تكلموا عن أبنائهم يكررون هذه الكلمات « ماعليهم الا أن يعملوا عملنا — كفى بالمرء أهله وأصحابه أن يتقدم ويترقى فى الحياة — يلزم لاولادنا أن ينالوا وظيفة فى الحكومة كأن يعينوا فى المحاكم أو الجيش أو الادارة لان الرزق هناك معروف مأمون فلا نخشى عليهم من المحن فيها — لنا من الثروة مايدرأ الحيرة عن أبنائنا فسنترك لهم كفايتهم متى عينوا فى وظيفة بمرتب مضمون وتزوجوا بمن تأتيهم بمهر جزيل » ومثل ذلك من الافكار التى نعرفها كلنا وربما وردت على ألسنتنا

غير انها لم يعد لها فى الخارج معنى صحيح ولن تكفى العائلة ولا تنفع الاصحاب والوظائف والمهر عامة الناس لانفسهم ولا ولادهم . وليس للانسان الآن ماسعى وان يكون قادرا بنفسه على كفاية نفسه مستعداً بذاته الى اقتحام مصاعب العيش ومغالبة صروف الحياة . وهنا الصعوبة كل الصعوبة لان الناس لم يتعودوا ذلك ويجهلون أى طريق فيه يسلكون . على ان الفائدة

عظيمة فلا ينبغي افلاتها اذ التربية الجديدة التي يستصعبها الناس تربي الرجل على فضيلة الاعتماد على نفسه وتخلق فيه من الشجاعة ما يساعده على مقاومة تقلبات الاعصر الحاضرة . والفرق بيننا من حيث اعتمادنا على أهلنا وأصدقائنا وبين الامم التي تربت افرادها على القيام بشؤون أنفسهم بجدهم وعملهم كالفرق بيننا من حيث قوة التغلب وقابلية الاستظهار وبين تلك القبائل المتوحشة التي تدخل في ديننا تبعا لدخول رؤسائهم فيه

تلك هي أسباب الانحطاط في التربية وغيرها . وهذه وجهته وغايته ولا بد لنا من تخطي هذه العقبة طائعين أو مكرهين . ولا بد من العمل على نقيض ما نحن فيه الآن

في التجارب هاد يرشد الى الطريقة المثلى لنوال الغرض الذي ندعو اليه . فيها امان من التخبط والزلل . ومعلوم انه لا تجارب عندنا لان كل شيء في بلدنا يجري على نقيض المطلوب . وجب اذن ان نستعير تجارب غيرنا من الامم التي اجتازت هذه العقبة . وصارت تربي شبانا قادرين على العمل بانفسهم من دون احتياج الى أهليهم أو أصدقائهم أو حكومتهم . وتلك الامم موجودة لا ينكرها الا الذين ليس لهم أعين يبصرون بها وهي التي اصبحت تغير على الدنيا وتستخرج مجهولاتها وتستعمرها وتقصي عناصرها الدنيا القديمة في تقدمها وتأتي هذه المعجزات كلها بقوة الهمة الشخصية وسلطان رجال لا يعتمدون في عملهم الا على أنفسهم . ولنا في المقابلة بين ما فعله رجل التربية الجديدة في أمريكا الشمالية وما فعله رجل التربية القديمة التي لا تزال تربيتنا من سوء حظنا في أمريكا الجنوبية ما يكفي للاقتناع

بصحة قولنا

الفرق عظيم كما بين الأبيض والاسود فأهل الشمال قد بلغوا في الزراعة منتهاها وحازوا من الصناعة والتجارة أقصى المراتب . وفي الجنوب أمة أقعدها الخمول واستولى عليها الارتخاء وفترت عزائمها داخل المدن وفي مصالح الحكومة وفي الاشتغال بالثورة السياسية . في الشمال ترى المستقبل مشرقا وفي الجنوب ترى الماضي موليا . نعم قد تولى ذلك الماضي وأصبح رجال الشمال الأشداء الاقوياء يهبطون الى أمريكا الجنوبية التي ساء بختها وجعلوا يضعون أيديهم على أعظم مواقع الزراعة التي أماتها الكسل الاندلسي أو البرتغالي فأصبحوا قابضين على السكك الحديدية والبيوتات المالية ومعامل الصناعة الكبرى ومحال التجارة العظمى

كنت أتحادث في هذا أيام المعرض العمومي في باريس مع رئيس قسم جمهورية « ارجنتين » فخبرني بغارة الانكليزي وأخيه « اليانكي » وكان محزونا يتأسف ويشدد النكير على غيره شأن الضعيف على الدوام لان القول أسهل من حمل النفس على الجد حتى تساوي الأقوياء . على ان أولئك الذين ينافسونهم لم يتعودوا على غير هذا الاجتهاد والدأب المستمر فهم أمم لا يخاف فتيانها عيشة التزاحم والتنافس . وما حفظت تلك الامم قوتها الادبية والدينية الا بتمسكها بأنابيبها واعتمادها على نفسها . نعم ليس الدين متينا فيهم كما هو في الكنيسة مثلا غير انهم أقل عداء للدين بكثير منا معشر الفرنساويين . والسر في ذلك شعور كل فرد منهم بأن تبعة عمله راجعة اليه دون سواه

وليس هذا بغريب لأن المرء فى الجمعيات القديمة كان يعتمد على وسطه ويتبعه قوة وضعفا وسعة وضيقا أكثر مما كان يعتمد على نفسه وهمته وارادته الخاصة . وذلك الوسط اما أن يكون العائلة أو الداخلية فى المدارس أو الفرقة العسكرية (الاى) أو المصلحة التى هو موظف فيها أو السياسة وهكذا . وكانت اللحم التى ترتبط بها حياته فى الافكار والمعتقدات والتقاليد السياسية والعوائد الاجتماعية والدينية خارجة عن ذاته لا مستمدة منها . فهو يفكر أو يعمل على هذا النحو أو على ذلك لأنه رأى الوسط الذى عاش فيه يفكر هكذا ويعمل هكذا . ومتى انفرط عقد نظام هذا الوسط ذهب كل فرد على أم رأسه لا يدرى أين يضع قدميه لانه انما كان يقوم بذلك الوسط . ولقد كان الوسط فى الهيئة القديمة قويا متينا مقوما لجميع الافراد وان ضعفت منهم العزائم وانحلت الارادة . وكان بين الوسط وافراده تفاعل هذا يقوى ذاك فكان المجموع متمكنا فى وجوده كالبيت العتيق لا يزال قائما لارتكازه على المنازل التى تجاوره . غير انه لا يلبث ان يلبى داعى السقوط اذا هدمت تلك المنازل . وعليه ينبغى الحذر منها

هذا هو الذى كان من أمر وسطنا الاجتماعى القديم فانك ترى اليوم بقاياه بعد ان تهدم منثورة فى جميع الارجاء . وما كنا مستعدين لنخرج منه ونستعيض بغيره عنه . لذلك ضل رشدنا وبقينا نطلب المعونة من الملاجئ التى تعودنا الحياة تحت حمايتها كالعائلة والطائفة والحكومة الجمهورية فى نظر قوم أو الملوكية المقيدة فى نظر آخرين ومن الكنيسة ومن كل شئ الا من أنفسنا وقد ملأنا الفضاء بالعويل بدل ان ننظر الى

الامم التي لا تعتمد على غير همة الافراد الذاتيـة فنقلدها ونحذو حذوها كما يفعل الرجال

واذا اردت الوقوف على معاملة تلك الامم لابنائها فاليك البيان :

أولاً لا يعتبر الرجل فيها ان الابنـاء ملك له وجزء من ماله متمم لذاته كأن الاب يعيش في بنيه بعد وفاته بل ينظرون اليهم بصفتهم افراداً مصيرهم الى الاستقلال عنهم . ولذلك لاهمّ للآباء الا تعجيل هذا الاطلاق المحتم على النحو الاكمل ولا مرجع لابوتهم الا هـذا . فلا يحملهم حبهم لانفسهم على ابتلاع ابنائهم والصاقهم بجانبهم وتعويدهم ما اعتـادوا واتخاذهم حاشية يتلذذون بالنظر اليها ويرتاحون لطاعتها وقلة متاعبهـا . اما نحن ففي ميلنا لابنائنا جزء عظيم من حب الذات وان كانوا مستوراً بستر جميل فأنى رأيت وكلنا رأى كثيراً من الناس رغبوا عن الزواج بعد ما رغبوا فيه لان الزوجين لا بد ان يقيما فى مدينة غير التي يسكنها الوالدان وما ظنك بما لو وجب ان يقيما فى بلاد أجنبية . والسبب فى هـذا شدة حب الوالدين ولعمري لست أدري ان كان يراد بهذا الحب منفعة الآباء او مصلحة الابناء

ثانياً من عادة أولئك القوم ان يعاملوا ابناءهم منذ نعومة الاظفار كأنهم رجال كل واحد منهم قائم بذاته مستقل عمل سواه . وبهذه الواسطة يصير كل واحد منهم رجلا كبيراً وذاتا حقيقية اذ لكل امرء من دهره ما تعودا اما نحن فنعامل ابناءنا كالاطفال وهم صغار وهم كبار وبعد ان يصيروا رجالا لاننا تعودنا ان نعتبرهم اطفالا لعلة انهم اطفالنا

ثالثاً يلاحظ الآباء فى التربيـة حاجات الامة المستقبلة فى الحياة غير

ملتفتين الى ما اقتضاه الماضى ودرج عليه الجيل المتقدم . فلا ينصبون انفسهم امام ابنائهم مثالا يمشون عليه ولا يشخصون الوسط الذى عاشوا فيه ليتبعوا خطواتهم فيه . اما نحن فنجرى فى التربية على نسق اشراف السنين الاخيرة من القرن الماضى حيث كانوا فى أول القرن الحالى يربون أولادهم على تقاليد الزمن القديم وعلى ما كان لهم فيه من المنزلة الممتازة والثروة التى فرت من بين أيديهم والبلاط الملوكى الذى كانوا يمرحون فى جوانبه وآثار ليس فيها اليوم فائدة لكونها عفت واصبحت خيالا

رابعاً لتلك الامم عناية كلية بصحة الابناء وتربية قوتهم الجسمانية الى الحد الممكن انماء لهمتهم المادية لا كما نفعل نحن من الاقتصار على الاعتناء بالصحة ثم نضحيها فى الدرس والمطالعة وننهكها بالامتحانات ولوازمها والاقامة فى المدن وما يتبعها . وهم لا يطلبون تلك القوة بالافراط فى الرياضة البدنية او اجهاد الجسم بما يؤدى فى الحقيقة الى ضعفه او التفنن فى الحركات الجمنستيكية وانما هم من ذوى الحذق فى معرفة لوازم الاجسام

على اننا اليوم نحاول طرق ادخال الرياضة الجسمية الانكليزية فى مدارسنا لنعتاض بها على الجمناس المضر عندنا وليس هو الا أثراً من آثار التفنن الجديد فى التربية لا فائدة فيه وليس من حاجة صحيحة اليه ولكننا نحافظ دواماً على الوسط الذى يحدق بنا انى وجدنا . ولا نجهل ان قومنا لم ينجحوا على الدوام فى استعمال الرياضة الانكليزية عندنا لانهم يضيفون اليها كما هى عادتهم فى كل شيء كثيراً من الخلاعة والاعجاب كما لا نجهل انهم ينظرون اليها كأنها وظيفة ادارية يشددون فى تنظيمها وترتيب أوقاتها

واعمالها وان كثيراً من التلامذة يميلون اليها هرباً من الدرس والمطالعة . غير ان هذا المثال الناقص يدل على اصله . ومما لاشك فيه ان تلك الالعاب تلائم نموّ الجسم كما ينبغي وتساعد كثيراً على تعويد النفس السكون فيصير صاحبها متمكناً من ذاته وهذا شرط لا بد منه لمن طلب النجاح

خامساً يعود الآباء ابناءهم فى تلك الامة منذ الصغر على الاشتغال بالاعمال المادية فلا يخافون ان يتركوهم وحدهم يروحون ويغدون ويكلفونهم بعض الاعمال او ببعض المأموريات التى تليق بسنهم ويقصدون احيانا انها تكون فوق ذلك . وهى عادة يستغرب منها الفرنساويون اذا ذهبوا الى بلاد انكلترا أو الولايات المتحدة كما يستغرب الانكليز من استغرابنا اذ يرون ان الامر الذي يدهشنا طبيعى وهو فى اعتبارهم أحد عوامل التربية والتعليم وان الغرض منه أولا وبالذات تكوين الرجال لا مجرد المتنورين والموظفين . ولولا انى اخشى من أن خجل القراء عندنا لخبرتهم انهم لا يفرقون فى هذه التربية بين البنين والبنات الا قليلا فالدواعى واحدة بالنظر الى الفريقين . ومع ذلك فان تقليدهم فى هذا الباب من غير ان يستعد الوسط لقبوله يضر اكثرهم مما يفيد فهو عندهم أكثر فائدة وأقل ضرراً مما هو عندنا . والمقام لا يحتمل ان اوفى البيان حقه فى هذا الموضوع فربما جر الايضاح الى أكثر مما يراد

سادساً يعلم الآباء عادة ابنائهم صنعة يدوية لان تلك الامم لا تحتقر تلك الصنائع ذلك الاحتقار العظيم الذى نجده من نفوسنا بل انهم تخلصوا منذ زمن طويل من هذا الوهم الذي اضربنا اكثر من مائة كسرة

في مواقف القتال فلا يعتقدون بان من الصنائع ماهو شريف ومنها ماهو وضيع بل يرون كما هو الاصح ان الناس رجلان كفوء وغير كفوء . وانهم عامل وكسول . هكذا يصير ابن (اللورد) زراعا أو صاحب مصنع او تاجراً ولا ينقص مثقال ذرة من شرفه ومنزلتـه لان الامر عام في أمته . أجل هناك صنعة يحقرونها ويعدونها ادنى من البقية الا وهي صناعة الموظف والمشتغل بالسياسة وهم ينتقدونها من الجهتين الاولى انها صناعة لا يربح صاحبها كثيراً الا في الوظائف الكبرى . الثانية انها تفقد الرجل حريته . ومن هنا يرى القارىء ان التربية الانكليزية السكسونية تميل قبل كل شيء بالانسان الى الحرية والاستقلال لذلك قلت تلك الصناعة في بلادهم وهي في بلاد انكلترا موكولة في الغالب الى الذين من أصل (سلتي) او ايرلندي او ايقوسي او من بلاد الغال ويشغلها الارلنديون والالمانيون اصلا في الولايات المتحدة وقد قرر صديقي موسيو (بول روسيه) هـذه الحقيقة باجلى بيان في كتابه (الحياة الامريكية) الذي ألفه بعـد زيارته للولايات المتحدة لاستطلاع أحوالها على طريقتنا

ولشدة الميل الى تعليم الاطفال صناعة يدوية تجدهم يتعلمون الكثير منها بالتدرب والاستعمال وذلك لا يتأتى عنـدنا بغير المدارس . مثاله ان الرجل عنـدهم يصير مهندساً بالشغل في المصانع لا بالدرس في المدرسة وليست النظريات لديهم الا متممة للعمل في جميع الصنائع والحرف . ونحن على العكس من ذلك نحتقر بالعـلم العمل . ودليـله ان جمعية تقدم الزراعة عنـدنا تقيم في مدينة باريس وهي مع ذلك لا يتخرج منها الا موظفو

نظارة الزراعة وان من المتنميات ان تنتقل أيضاً مدرسة البحرية فى تلك المدينة

سابعاً يسبق الآباء أبناءهم على الدوام فى معرفة جميع البديئات النافعة شأن الأمة التى تهتم دائماً بالمستقبل وتهمل الماضى وتلتفت الى الصنائع الجارية التى يتقدم التفنن فيها كل يوم لاالى الوظائف الادارية التى لا تغيير فيها ولا تبديل وتبنى آمالها فى النجاح على قوتها الذاتية لا على الوسط بأنواعه . وهذا الاستعداد هو الذى ولد فى الانكليزى السكسونى اشتغاله المستديم بملاحظة الوقائع المادية بعد تحقيقها تحقيقاً صحيحاً . وقد لا يرتبها كما ينبغى وانما غرضه ان يجتمع اليه منها ماعساه يحتاج اليه فى كل شأن من شؤونه . وهذا هو الذى يطلبه من قراءة جرائده التى تشبه جرائدنا كما يشبه النهار الليل . لأن الغرض من جرائدنا تسلية النفس كما يقولون والجديدة منها تتوخى اثارة النزعات السياسية وهى طريقة أخرى للتسلية والنتيجة واحدة هى قتل الوقت بلا جدوى . أما جرائدهم فانها تقصد الافادة مع الاختصار والاجادة . وهى قليلة الخوض فى النظريات والاكثار من العموميات . وكلها محشوة وقائع تحكى وقائع وتخبر عن وقائع

ولو لم يكن لدينا من المعلومات غير ماعليه الصحافة فى الأمتين لكفى ذلك موضحا للفرق بينهما

اذا علمت هذا علمت من غير دهشة ان محادثة الرجل لابنه تدور عندهم على الامور الحقيقية النافعة فلا يقضون وقتهم فى ذكر من يتحرى الجديد فى لباسه وزيه واعادة ماملئت به المجالس الباريسية وتكرار حوادث

الزمن القديم زمن الهناآء والصفاآء . بل حديثهم التزاحم فى الحياة وقدرة كل فرد على كفاية حاجاته بنفسه

ثامناً لا يستعمل أولئك الآباء سلطتهم على أبنائهم فى الظاهر الا قليلا بل يدخرونها للاحوال العظيمة الاستثنائية . ذلك لأنهم يعتبرونهم مستقلين عنهم كانهم رجال كما قدمنا ولا يتأتى ان يربى الرجل مقهوراً على الدوام تحت سلطة غيره ولو كانت السلطة أبوية . وعليه فانهم يرون ان التربية الحقيقية المثمرة هى التى تكون بالتدريب والتدريج . لذلك تراهم يستعملون الايماء والنصح أكثر مما يستعملون القسر والامر مظهرين فى ايمائهم ونصحهم انهم مجردين عن المنفعة ولا يجعلون أمرهم باعثا الى العمل بمقتضاهما بل يتركون الولد يفكر فيهما ويتدبرهما حتى يعتقد انهما صواب فيجرى عليهما

تاسعاً وهو أهم الوسائط وأنجحها وقد اخترناه ختاما علم الابناآء بأن الآباء لا يتحملون نفقتهم بعد تربيتهم . أما الفرنساويون فكل يسأل صاحبه ماذا تريد ان يكون ولدك فيجيبه سأجعلهُ قاضيا أو موظفا اداريا وهكذا وما هذا الا لاعتقادهِ انه يكون والداً حقيراً اذا لم يتدبر مستقبل ابنه ويهتم باستنباط الحرفة التى يحترف بها على حسب ما يراه صوابا نافعا ثم يبالغ فى حنوه فيتجرد عن قسم من مالهِ ليمهر أولادهُ . لكن الآباء من الانكليز والامريكان لا يمهلون أبناءهم بل على كل جيل ان يحصل حاجات نفسهِ بنفسهِ . وعلى العكس منهم يجب على كل جيل سابق عندنا ان يوجد أسباب الرزق للذى يليه واليك ما يترتب على ذلك من النتائج

لزيد من الناس ثلاثة أولاد أو أربعة أو خمسة فيجب عليه أن يهيء ثلاثة أموال أو أربعة أو خمسة بخلاف ثروته الخصوصية قبل أن يبلغ الاولاد رشدهم أعني فى مدى عشرين سنة حتى لا يهزأ به الناس ولا يسقط الابناء عن درجتهم فى الهيئة الاجتماعية والا لما وجد سبيلا لزواجهم فانهم لا يتزوجون الا باموالهم . وهو فى عمله هذا يشبه أهل الليمانات الذين يعملون في الاشغال الشاقة أو كمن يقدم الذنب قبل الرأس . وليس من يجهل أن الآباء الفرنساويين قد أهملوا الرأس والذنب معا وعد الواحد منهم نفسه من السعداء بولد وواحد أو اثنين

كنت أقرأ أخيراً رسائل فرنكلان فوجدته فى خطاب لوالدته يتكلم عن أحد أولاده وكونه غير مهتم بتحصيل ما يقوم برزقه معتمداً على ثروة أبيه فقال « سأزيل عنه هذا الخيال وسيعلم من حالتي وما أنفقه كل يوم انني لن اترك له شيئا لكن الرجل منا يرتعد اذا رأى أنه لن يترك ما يرثه عنه الابناء ويغضب رحمة واشفاقا وننسي أن الاب الانكليزي السكسوني الذى لا يترك شيئا لاولاده يعطيهم في الحقيقة أكثر مايعطي الوالد الفرنساوى لاولاده . يعطيهم ما نهتم به نحن ولا نصل الى تحقيقه . يعطيهم همة فى العمل وقدرة على طلب الرزق وعزيمة يلقى بها زمانه ثابت الجأش وهو مالو وجدناه لاشتريناه بأغلى الاثمان وما لا يفيد المال الذى نجمعه بالكد والنصب الا لأطفائه وأماتته فى نفوس أبنائنا لاننا فى الحقيقة نجاهد فى سبيل الاقتصاد ونعيش كالصعاليك ونتخذ العقم شعاراً لكي نسهل على أولادنا أن لا يعملوا شيئا أو لكيلا يعملوا الا

القليل ما استطاعوا ونظن بهذا اننا جعلناهم على المستقبل أمنين . غير اننا اذا التفتنا الى ماحولنا رأينا ان تسعة أعشار الذين يتقدمون على غيرهم ويحوزون قصب السبق في كل شيء وينجحون النجاح الحقيقي فيما يزاولون من الاعمال يخرجون من صفوف الواصلين بانفسهم . أولئك الذين غالبوا الزمان فغلبوه وناجزوا كل صعب حتى استظهروا عليه وانسابوا بهمتهم في المجتمع الانساني فنالوا فيه مكاناً علياً . واذكر أبناء العائلات (وما سموا كذلك الا لاعتمادهم على عائلاتهم وأموال عائلاتهم أكثر من اعتمادهم على انفسهم وركنوا الى مهر زوجاتهم أكثر من ركونهم الى عملهم) تراهم يسقطون كل يوم الى أسفل الدرجات لانهم أقل من غيرهم في كل شيء مع أنهم تربوا (تربية جميلة) كما يقال . وقد فقدوا في هذه البلاد ما كان لهم من النفوذ كله وفرت من بين يديهم زعامتهم فاصبحت الملوكية لاحياة لها وأمست لارجاء في اعادتها ثم أنهم صاروا غير قادرين على نوال المنزلة واكتساب الجاه بكدهم وعملهم فباتوا يرجون البقاء من عدم وجود شريك لهم في الميراث ومن المال الذي تقدمه اليهم زوجاتهم

أما الشبان الذين تربوا تلك التربية التي شرحناها فهم أقوياء الاجسام متعودون على مزاولة الاعمال الحقيقية وممارسة الاشياء المادية . تربوا على اعتبارهم رجالا وتمرنوا على الاعتماد على أنفسهم . يرون الحياة كحرب ونزال (وهو موافق لما جاء به الدين المسيحي كل الموافقة) لذلك يقتحمون متاعبها بشبيبة متجددة وعزم أكيد بل أنهم يحبون تلك المتاعب ويشعرون بالحاجة اليها ويستظهرون عليها ولديهم من وسائل مقاومتها ما يجعلهم

يرتاحون لملاقاتها ويتزقون في مجاهدتها

وعلى القارىء ان يقارن بين الاثنين ويحكم على نتيجة التربيتين . اما انا فقد كشفت له القناع عن العوامل التي تحرك تلك الامة التي تغار اليوم على جميع الشعوب القديمة وتهدد وجودها . اغارت تلك الامة على الدنيا باجمعها ومعجزتها هي تلك الغارة نفسها مع انه لم يكن لها من سلطة الحكومات الا النزر القليل الا ان لديها من القوة الاجتماعية اعظمها والقوة الاجتماعية اشد بأساً واكبر فعلا من الحكومات المنظمة والجنود المحتشدة

ما عدونا وما الخطر الذي نخاف منه وما البلاء الذي نخشاهُ بآتية لنا من جانب نهر (الرين) الثاني كما يظن قومنا لان المغالاة في تجنيد العساكر وتقدم مذاهب الاشتراكيين والفوضويين تكفينا مؤونة ذلك العدو وليس الصبح ببعيد

انما العدو والخطر والبلاء آتية من الجانب الآخر من بحر المانش والجانب الثاني من المحيط الاتلانطيقي فهي توجد حيث يوجد الانكليزي السكسوني على اختلاف مسمياته وصفاته . ذلك الرجل الذي يحتقره الناس لانه لا يفد عليهم كالالماني بجيشه الجرار وسلاحه المصقول بل يأتيهم بمفرده غير مستصحب الا لمحراثه لكنهم جهلوا قيمة ذلك المحراث وقيمة ذلك الرجل ومتى علموا ذلك عرفوا من أين يأتيهم الخطر ووقفوا على السبيل الذي يسلكون للخلاص منه

الباب الثانى

﴿ الفرنساوى والانكليزى السكسونى ﴾
﴿ فى حياتهما الخصوصية ﴾

آثار الفرق الذى بيناه فى التربيتين تظهر أولاً فى الحياة الخصوصية والغرض من هذا القسم ايراد بعض الامثلة التى اخترناها فى فرنسا وانكلترا

أما التربية التى ينشأ عليها ابناؤنا فانها تؤدى الى فتور همتنا وضعف قوتنا الاجتماعية وهما سببان من اسباب انحطاطنا بالنظر الى انكلترا بخلافها عندهم فانها هى والوسط الذى يعيشون فيه يؤديان الى انماء القدرة على مغالبة الحياة الى الدرجة القصوى فى الامة بتمامها

الفصل الأول

﴿ فى ان طريقة التربية عندنا تقلل المواليد فى فرنسا ﴾

ليس الغرض هنا ان نثبت نقص المواليد فى فرنسا فان ذلك أمر اثبتته الاحصائيات كلها واشتغل علماء الاخلاق والاقتصاديون والسياسيون

واتفقوا فى اثباته . الا انهم لم يتفقوا فى بيان سببهِ وكل ينحو نحوهُ من غير مرشد يهديه ولا طريقة منتظمة . وبيان السبب هو الغرض الذى نتوخاه مستعينين فيهِ بنور العلم الاجتماعى

قلنا ان نقص المواليد فى فرنسا أمر ثابت لا يحتاج الى دليل ويكفى لصحة قولنا ايراد بعض الارقام

كانت حالة المواليد لكل عشرة آلاف نسمة فى مدى أكثر من قرن كما يأتى :

سنين من	سنين الى	مواليد
١٧٧٠	١٧٨٠	٣٨٠
١٨٠١	١٨١٠	٣٢٥
١٨١١	١٨٢٠	٣١٦
١٨٢١	١٨٣٠	٣٠٩
١٨٣١	١٨٤٠	٢٨٩
١٨٤١	١٨٥٠	٢٧٤
١٨٥١	١٨٦٠	٢٦٧
١٨٦١	١٨٦٨	٢٦٤
١٨٦٩	١٨٨٠	٢٤٥
١٨٨١	١٨٩٦	٢٢٠

ويرى من هذا ان نسبة المواليد بين سنة ١٧٧٠ وسنة ١٨٩٦ سقطت من ٣٨٠ الى ٢٢٠ فى كل عشرة آلاف نسمة وهى اكثر من الثلث

وقد كان عدد المواليد فى فرنسا سنة ١٨٨١ ٩٣٧٠٥٧ ولم يبلغ فى سنة ١٨٩٠ الا ٨٣٨٠٥٧ فالنقص هو ١٠٠٠٠٠ وليلاحظ ان هذا العدد أقل من عدد الوفيات بمقدار ٣٨٤٤٦ وان انتصار الموت على الحياة كما ترى حاصل فى زمن السلم اعنى ان هذه هى حركة المواليد والوفيات الاعتيادية فى فرنسا وهى تزداد عاما فعاماً

فنقص عدد المواليد في سنة ١٨٩٠ عن	سنة	عدد
	١٨٨٩	٤٢٥٢٠
	١٨٨٨	٤٤٥٨٠
	١٨٨٧	٦١٢٧٥
	١٨٨٦	٧٤٧٧٩
	١٨٨٥	٨٦٤٩٩
	١٨٨٤	٩٩٦٩٩
	١٨٨٣	٩٩٨٨٥

وكذلك ينقص الزواج سنة فسنة الا ان نقصهُ غير محسوس كنقص المواليد

كان عدد الزواج فى سنة

سنة	عدد الزواج
١٨٨٤	٢٨٩٥٥٥
١٨٨٥	٢٨٣١٧٠
١٨٨٦	٢٨٣٢٠٨
١٨٨٧	٢٧٧٠٦٠
١٨٨٨	٢٧٦٨٤٨
١٨٨٩	٢٧٢٩٣٤
١٨٩٠	٢٦٩٣٣٢

فيكون النقص فى السنة الاخيرة قد بلغ ٢٠٢٢٣ فى مدى الست سنين التي قبلها أى الى سنة ١٨٨٤ وكانت النسبة على الدوام بالناقص وان لم تختلف سنة ١٨٨٦ الا ببعض الآحاد وعلى عكس ذلك نجد عدد الوفيات فى ازدياد

فقد بلغ فى سنة وفاة

سنة	وفاة
١٨٨١	٨٢٨٨٢٨
١٨٨٢	٨٣٣٥٣٩
١٨٨٣	٨٤١١٤١
١٨٨٤	٨٥٨٧٨١
١٨٨٦	٨٦٠٢٢٢
١٨٩٠	٨٧٦٥٠٥

وعليه زاد عدد الوفيات سنة ١٨٩٠ بمقدار ٤٧٦١٧ عما كان عليه سنة ١٨٨١ وبمقدار ٣٥٣٦٤ عن سنة ١٨٨٣ مع أن عدد المواليد كان نقص بمقدار ١٠٠٠٠٠ فى تلك السنة فتكون النتيجة وجود ١٣٥٠٠٠ خلو فى الامة

واذا قابلنا بين حركة المواليد فى فرنسا وبينها فى البلاد الاخرى نجد ما يأتى :

تضاعف عدد سكان النرويج فى ٥١ عاماً وعدد سكان استريا فى ٦٢ وانكلترا فى ٦٣ والدانيمرك فى ٧٣ والسويد فى ٨٩ والمانيا فى ٩٨ وفرنسا فى ٣٣٤

ولم نأت ببيان الاحصائيات الاجنبية لعدم اتفاق سنيها ولكنها تنطق كلها بان فرنسا متأخرة فى مواليدها تأخراً عظيما عن جميع الامم

ثبت أن ضعف النسل أمر حقيقي في فرنسا فنبحث اذن عن علته

ولن ينفعنا الاحصآء فى هذا البحث الا يسيراً فقد نأخذ منه الأرقام والمتوسطات والعموميات ولكنهُ لا يكفينا في بيان ناموس تلك الحركة

وقد ذهب الباحثون فى بيان تلك العلة مذاهب شتى فذكر حضرة المركيز (نادياك) فى رسالة (ضعف المواليد فى فرنسا) سبعة عشر سبباً جاء بعضها مكرراً واذا امعنا النظر فيها رأيناها تفترق الى قسمين

الاول الاسباب الباطلة

الثانى الاسباب الثانوية أى التى يرجع منها الى سبب أولى

وسنبحث فى هذين القسمين بحثا نظريا مع المقارنة ثم نجتهد فى استنباط السبب الحقيقى بعد ذلك

﴿ الأسباب الباطلة ﴾

منها ضعف قوة التناسل الطبيعية في الامـة الفرنساوية . قال موسيو (ناديالك) «ليست قوة التناسل الطبيعية واحـدة في جميع الامم فللمناخ والاحوال الاجتماعية والاقتصادية ومعدن الاقليم دخل حقيـقي فيها وان كان لا يزال غير معين تماما . وقوة التناسل عظيمة عند الصينيات ولـكنها ضعيفة عنـد نساء (البيرينية) ويمكن أن يقال أن الامم اللاتينيـة وأخصها الامة الفرنساوية أضعف تناسلا من الامم السلافية والانكليزية السكسونية وعليه فلا شك في أن درجتنا أحط من غيرنا بالنظر الى قوة التناسل »

ومن المحقـق أن قوة التناسل أشد عند بعض الامم منها عنـد البعض الآخر ومن السهل الوقوف على أسباب هذا التفاوت بالبحث في الاحوال الطبيعية والاجتماعية لـكل واحـدة منها لـكن لانسلم بأن ضعف التناسل في فرنسا أمر لازم لطبيعـة الامة اذ لو صـح ذلك لتعذر بيـان السبب فى نموها العظيم الى قيام الثورة فقد انتشرت فى (كندا) وفي (لويزيان) وفى (الهند) و (صان دومنيج) و (جزيرة فرنسا) و (وبوربونيا) و (ايتاليا) وغيرها ولا يزال فرعهـا الموجود فى (كندا) يزداد وينموا بقوة عظيمـة حتى أنه أصبـح يزاحم العنصر الانكليزي السكسونى نفسه . والدليل عليه أن سكان (كندا)يتضاعفون عـدداً فى كل ثمان وعشرين سنة مرة مع أن سكان فرنسا لايتضاعفون الا في كل ثلثمائة وأربع وثلاثين سنة مرة واحدة وظـاهر أن ذلك الفرق لا يرجـع الى سـبب طبيعى في الامـة بل لا بدله

من سبب خارجي لم يوجد الا من زمن غير بعيد

ومما تجب ملاحظته أيضاً أن التناسل لا يزال ناميا في بعض الاقاليم الفرنساوية كاقليم (بروتون) قال موسيو (نادياك) « بلغت زيادة المواليد على الوفيات من سنة ١٨٨٠ الى سنة ١٨٨٣ في الاقاليم البروتونية الخمس ٧٤٩٩٠ وهى تساوى زيادة المواليد في فرنسا كلها على التقريب ولو كان التناسل في جميع الاقاليم بمقدار هذه النسبة لما حسدنا جيراننا اذ كنا نساويهم في عدد المواليد ان لم نزد عليهم »

وكذلك عدد المواليد لا يتغير في الاقاليم التي يكثر الفعلة فيها كما سنبينه فيما بعد أما في غيرها فانه ينقص سنة بعد سنة من مبدأ هذا القرن بدون أن يحدث تغير في النوع يمكن اتخاذه سببا في هذا النقص المستمرّ

وعلى ماتقدم يكون الاستدلال فى نقص عدد المواليد بطبيعة النوع باطلا لان الاستقراء يكذبه

والاستقراء يبطل أيضا الدليل فى هذا النقص الذي انتزعوه من المسكرات . نعم لا شبهة فى أن المشروبات الروحية قد تغيرت منذ خمسين عاما الى اردأ الاحوال لاستعمال التقطير فى تحضيرها بدل التخمير ولكثرة استعمال العرقى والمستكا عما كانا عليه اذ المقدار الذي يشرب منهما في فرنسا سنة ١٧٨٨ لم يزد على ٣٧٠٠٠٠ هكتولتر وقد بلغ في سنة ١٨٨٢ ١٧٦٦٠٠٠ هكتولتر

غير أنه من المحقق أيضا أن استعمال تلك المشروبات لم يبلغ في البلاد الفرنساوية مقدار مابلغه في غيرها وخصوصا فى جهة الشمال من أوروبا

مع ان عدد المواليد فى تلك الجهة لا يزال نامياً حتى في فرنسا نفسها فأ كثر البلاد استعمالا لتلك المشروبات هو اقليم « بروتانيا » الذى كثر نسله وعلى العكس من ذلك في الجنوب حيث لا يستعمل المشروب الا قليلا ترى بعض الأقاليم يزيد فيها عدد الوفيات على عدد المواليد مثل اقليم « القار » وحينئذ يلزم التسليم بأن تأثير المشروبات الروحية على عدد الاهالى غير محسوس فى فرنسا

قالوا ان من أسباب نقص المواليد ثقل الخدمة العسكرية . ولكننا نشاهد ان الخدمة العسكرية عامة أيضا وواجبة على كل فرد في البلاد الالمانية وعدد المواليد فى تلك البلاد غير متأثر بهذا السبب نعم ان الوفيات فى الجيش أكثر منها فى غيره لكن ذلك لا يؤثر فى النتيجة العمومية للامة

قالوا ان من أسباب ذلك أيضا ثقل الضرائب على الناس . ولا شبهة فى ان الضرائب الفرنساوية باهظة جدا فالذى كان يدفع أيام الامبراطورية الثانية ٥٩ فرنكا فى السنة صار يدفع سنة ١٨٧٢ (٨٥) فرنكا وهو الآن يؤدى ١٠٩ فرنكات وقد زادت الضرائب العقارية بين سنة ١٨٢٠ الى يومنا هذا من ٢٤٣,٠٠٠,٠٠٠ فرنك الى ٣٥٧,٠٠٠,٠٠٠ وزادت الضرائب الشخصية والتى تجبى على المنقولات من ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ الى ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ كما زادت عوائد الأبواب والشبابيك من ٢٩,٠٠٠,٠٠٠ الى ٤١,٠٠٠,٠٠٠ وبلغت عوائد الباطنطا « الحرف والصنائع » ١٦٣,٠٠٠,٠٠٠ بعد ان كانت ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ فقط

الا انهُ لو كانت زيادة الضرائب من الاسباب المؤثرة حقيقة على عدد

السكان وجب ان يكون عدد المواليد تابعا لفقر الاقاليم وثروتها فتقل فى التى رزحت تحت أثقال الضرائب وتكثر فى التى وجدت من ثروتها ما يسهل عليها احتمالها . لكنا نرى الحال بالعكس فليس لأغنياء بلاد «نورمانديه» و « بيكارديه » الا ولد أو ولدان مع ماجمعوه من الثروة الطائلة قبل انحطاط الزراعة عندهم مع ان المواليد أكثر من ذلك فى الأقاليم الفقيرة مثل اقاليم « بروتانيا » و « ارديش » و « لوزير » و « أفيرون » و « هوتوار » و « كوريز » وغيرها وقد تصفحت خريطة المواليد فى فرنسا سنة ١٨٨١ فوجدت ان أقل البلاد مواليداً أكثرها غناء وعلى هذا يسقط دليل ثقل الضرائب

الى هنا تبين ان تلك الاسباب كلها لا تأثير لها على المواليد أو انها لا تؤثر فيها الا قليلا . وهناك أسباب أخرى نراها أشد فعلا مما تقدم

﴿ الأسباب الثانوية ﴾

لهذه الاسباب بعض التأثير على ضعف المواليد عندنا وهي ليست عرضية اذ لا يسلم ان حادثا يحدث فى بلد معين وفي زمان معين من دون ان يكون لهُ سبب أدى اليه من أحوال تلك البلد فِي ذلك الزمن . فاذا تكرر وقوعه لزم ان يكون ناشئا عن سبب عام عظيم كما اننا اذا رأينا رجلا قد تكرر منهُ الخطاء وكثرت غلطاتهُ حكمنا بأن فى عقلهِ نقصا أو فى ارادته عيبا هو الذى يحملهُ على ارتكاب تلك الأعمال الناقصة . وسنبين لك ان جميع الاسباب التى نسبوا اليها ضعف المواليد فى فرنسا لا يصح الارتكان عليها الا اذا رجعت هى الاخرى الى سبب أعظم . ومن تلك الأسباب ما يأتي :

أولا قال موسيو « نادياك » « ان لارادة الرجل دخلا فى ضعف المواليد فى فرنسا » وفى الواقع لو أراد الفرنساويون ان يكون لهم من الذرية مالغيرهم من الامم لحصلوا مرادهم الا ان السر هو فى معرفة السبب الذى يحملهم على عدم الارادة ومن هنا يتبين ان ماقاله موسيو « نادياك » لا يفيد شيئاً فى موضوعنا

ثانياً قالوا ان من الأسباب كثرة تجزئة الملكية . وهنا تفصيل يلزمنا بيانه فان كان مرادهم بكثرة تجزئة الملكية ان حالة الاجتماع فى الأمة استلزمت من ذاتها تقسيم العقارات الى أجزاء صغيرة تنتقل من الرجل الى غيره بحسب مايعرض له من الاحتياجات التى هو حر فى تقديرها قلنا بأن هذا لايستلزم البتة ضعف المواليد فى بلد ذلك شأنه أكثر من بلد تكون فيه الملكية كبيرة الاجزاء . اذ يشاهد ان عدد المواليد فى « انكلترا » لا يزيد على عددها فى بلاد « النرويج » و « لونيبورج » التابعة الى « هانوفر » وأقاليم « سويسره » وغيرها مع ان الاملاك فى الاولى عظيمة غير مجزأة الا قليلا وهى فى الثانية مقسمة أقساما صغيرة جداً . واذا أرادوا بكثرة التجزئة استمرار تقسيم الاراضى الى أجزاء صغيرة مهما كانت مساحتها تقسيما قهريا ففى قولهم نظر سنأتى عليه ونكتفى الآن ان نلاحظ ان مرادهم هذا حاصل فى البلاد الفرنساوية ومع ذلك فعدد المواليد ضعيف فى الاقاليم ذات الاملاك الواسعة مثل « نورمانديا » و « بيكارديا » كما هو ضعيف فى الاقاليم ذات الاملاك الصغيرة مثل اقليم « شمبانيا »

ثالثا ابتعاد الفرنساويين عن الزواج وانحطاط عزائمهم لما ألفوه من حب

الزخارف والحاجات الصناعية والملاذ المخترعة وغير ذلك . ومن المشاهد حقيقة ان عدد الزواج يقل آناً فآناً فاذا نظرنا الى الاشخاص الذين يصح الاقتران بينهم فى جميع الامم كانت فرنسا الحادية عشرة فى الرتبة من بينهم اذ يتقدم عليها « الانكليز » و « البروسيانيون » و « الهولانديون » و « النمساويون » وغيرهم . ولضعف العزائم المستمر دخل فى هذا الانحطاط غير ان الذى يحوجنا هو معرفة السبب الذى حمل الفرنساويين من مبدأ هذا القرن على الابتعاد عن الزواج والموجب لتثبيط العزائم بينهم أكثر من غيرهم

رابعا الميل الى الاستئثار بأكبر ما يمكن من اللذائذ . وهو مسلم لكن بقى علينا ان نعرف السبب فى انصباب الفرنساويين على اللذائذ فجأة انصبابا لاحد لهُ وكيف ان ذلك الميل بعينهِ لم يوجد عند الانكليزى أو الالمانى أو الروسى وغيرهم اذ ليس من المعقول ان لا يكون أولئك القوم ممن يميلون بالطبع الى الزيادة فى لذائذهم فوجب ان يكون هناك سبب منعهم عن الاقلال من النسل طلبا للذائذهم وان ذلك السبب غير موجود فى البلاد الفرنساوية

خامسا زيادة السعة فى المعيشة وموجبات الراحة . نظراً لارتفاع الاجور ذلك أيضا أمر عام وحينئذ لا يمكن الاعتماد عليهِ فى تعليل حالة فرنسا الخصوصية وقد اعترف بذلك موسيو « ناديالك » حيث قال « زادت بسطة العيش فى كل مكان زيادة كبرى فنرى فى الارياف كما نشاهد فى المدن ان الاجور قد ارتفعت كثيراً وتحسن الملبس والمطعم وصارت المساكن أقرب الى الصحة وأوفى بحاجات العائلات وتقدم الناس فى معرفة لوازم

حفظ الصحة وعندى أن لهذه الاحوال تأثيراً حسناً على النسل ولكننا لا ندرى ما السبب في أنها أدت في البلاد الفرنساوية الى عكس ماذكر » كذلك نحن نبحث معه عن تلك العلة

سادساً زيادة الحضارة أعنى كثرة المدن المترفهة حيث يقل النسل . ومن المعلوم أن أهل الزراعة يقلون وأهل المدن يكثرون ففى سنة ١٨٤٦ كان عدد أهالى بلاد الريف يبلغ ثلاثة أرباع سكان فرنسا وهو اليوم لا يكاد يبلغ خمسا وستين فى المائة ولا يزال آخذاً فى النقصان . ويمكن تقدير زيادة عدد سكان المدن بخمس عدد الاهالى أجمعين . وحيث أن ذلك أمر ثابت وان لم يكن كذلك فهو عام لزم القول بأن تلك العلة السادسة لا تثبت شيئا اذ يشاهد أن زيادة سكان المدن عظيمة جداً فيقطنها من التسعة خمسة والاربعة يسكنون الارياف . كذلك زاد عدد سكان المدن فى المانيا من أربعة عشر الى خمسة عشر فى المائة فكان فى برلين منذ قرنين سبعة عشر الف واربعمائة نسمة وصار فيها اليوم مليون وثلاثمئة وستة عشر الف ومائتان واثنتان وثمانون نسمة وهكذا الحال فى ايطاليا واسبانيا واوستوريا وغيرها ومع ذلك لم ينقص النسل فى تلك البلاد كما هو حاصل في فرنسا وعليه وجب أن يكون هناك سبب خاص بها

سابعا تكليف التلامذة فوق طاقتهم فى المدارس اذ لم يبلغ هذا التكليف فى أى بلد من البلاد مبلغه فى الامة الفرنساوية يزاد عليه استمرار اقامة الطلبة بداخل المدارس الابتدائية زمنا طويلا مما يدعو الى ضعف الشخص فى نفسه وفى نسله . وقد يظهر أن ذلك السبب قوى التأثير لكنه

لا يؤثر الا على طبقة المتنورين ولا بد لنا على كل حال من البحث عن علة ذلك الميل لانه ليس ناشئا عن طبيعة الاقليم الفرنساوى

ثبت اذن أن الاسباب التى بيناها لا تنتج المعلول بذاتها وأنه لا بد فيها من سبب أكبر وأعم . ومهما كان ذلك السبب الذى نبحث عنه فهو لا بد أن يكون مؤثراً فى العائلة مباشرة تأثيراً قويا اذ العائلة هى مرجع التناسل فى الامة ولا بد أن تكون العائلات فى البلاد الفرنساوية على حالة صعبة مؤثرة عليها من هذه الجهة خصوصا اذا لوحظ أن العائلة تميل على الدوام الى الخلود فالرجل يحب أن يستمرّ وجوده بواسطة ابنائه واذا لم يكن هناك من الموانع ما يثنيه عن تلك الرغبة فانه ينساب اليها فيكثر نسله ويفرح بمولدهم والسبب فى ذلك أن الاطفال يعدون فى تلك الحال من موجبات القوة ووسائل الارتزاق لا كلا على آبائهم . وما فرحهم آت الامن سهولة تعيش الابناء وعدم الحيرة فى تربيتهم طوعا لحركة الهيئة الاجتماعية التى يولدون فيها كما يشاهد ذلك عند الامم التى لم تتفرق عائلاتها بعد اذ ترى الآباء يرتكنون فى تربية ابنائهم على المجموع . ومن هناك كان الشرق كثير النسل حتى لقد ظهر شعور الشرقيين بتلك الحالة فى أمثلتهم العامة كقولهم « ان الله يبارك فى العائلات كثيرة العدد » وكقولهم «ما أتعس المرأة العقيم» ومما يؤيده أن كثرة النسل لا توجد كما كانت فى الاصل عند الفرنساويين الا فى الجهات التى بقيت فيها العائلات مجتمعة على نفسها وهى قليلة كاقليم بروتانيا والبيرينى والاقاليم الجبلية الوسطى

وعلى خلاف ما تقدم نرى النسل ناميا عند الامم الاستقلالية لان

مصير الاطفال مكفول بما لكل واحد منهم من الهمة الذاتية التي بلغت منتهاها ولما ربى عليه الشبان من القدرة على تحصيل عيشهم بنفسهم فلا يتكلف الآباء ايجاد مرتزق لابنائهم ولا يجمعون لهم مالا يمهرونهم به

غير ان كثرة أعضاء العائلة الواحدة تزيد في ثقل العبء على الآباء زيادة ليس لهم طاقة بها مهما أرادوا فلا ملجأ لهم الا الهرب من تلك الزيادة وهذا هو السبب في ان معظم الفرنساويين لا يحسدون الذين كثر أبناؤهم بل هم يرثون لحالهم . ولهذا أيضا كان كل ماتمناهُ الواحد منهم هو أن لا يكون لهُ الا ولد وابنة أو ولد واحد حتى يقال كما اصطلحوا عليه « ولد وحيد » وليس لاولئك الآباء ان يعتمدوا في تحصيل مرتزق أبنائهم على العائلة لأنها قد انحلت أو على همة الابناء أنفسهم لان التربية قد أضاعتها ورجع الابناء الى آبائهم يطلبون العيش منهم وأصبح هؤلاء لا يقدرون على ذلك الا اذا أمهروا أبناءهم وهم مضطرون في ذلك الى ايجاد ثروة متعددة بقدر ما لديهم من الابناء قبل ان يتزوج كل واحد منهم أي في مدة تختلف من ثماني عشرة الى ثلاثين سنة

واذا تزوج الواحد منهم وجاء لهُ بعد سنة مولود تراه لا ينظر اليه نظر من يفرح بشعرهِ الاصفر وتبسمه اللطيف بل الذي يفكر فيه الوالد عند ما يقع نظرهُ عليه هو وجوب تحصيل المهر لهُ فاذا مضى ثمانية عشر شهراً أو سنتان وجاءهُ مولود ثانٍ كان ذلك عندهُ عبارة عن وجوب تحصيل مهر ثانٍ . ثم يرى انهُ لا بد من تحصيل المهرين في مدى خمس وعشرين سنة ويحس من نفسه ان العبء صار ثقيلا وانهُ لا طاقة للزيادة فيه .

لذلك لا يرى ملجأ الا العمل على مايوقف النسل

تلك هى العلة فى قلة عدد أبناء الفرنساويين فالعادة التى تأصلت بحكم طبيعة الاجتماع فيهم تكلفهم عملا يستحيل عليهم القيام به فيصيرون كالذين يشتغلون فى الليمان وهم غير قادرين على ابطال العادة فيركنون الى ابطال النسل . وهناك سبب آخر يدعوهم الى الاقلال منه ذلك ان حالة معيشتهم تنقص بمقدار كل مهر يأخذه أحد الأبناء وانه بقدر مالهم من الشرف والاعتبار يجب عليهم ان يكثروا من قيمة المهور والناس يقدرونها من قبل فيقولون ان فلانا خصص كذا مهراً لابنه أو لابنته وحينئذ لابد للآباء من ثروة خصوصية ينتهبون منها عند الحاجة كلما كان لهم ولد يستحق الزواج

وقد جاء الاحصاء مؤيداً لتأثير المهر على النسل تأثيرا حقيقيا فأقل الناس نسلا أكثرهم مالا وأكبرهم تبصرة أى الذين يلاحظون وجوب أمهار أبنائهم فى المستقبل . وأكثر الناس نسلا أقلهم مالا وأبعدهم عن التبصر وهم الفعلة أى الذين يتركون النسل ينمو كما يتركون رزقه على الله

هكذا نشاهد فى أقليم الشمال حيث تكثر المعامل ويكثر الفعلة ان المواليد تزيد على الوفيات بكثير فتبلغ الأولى فى السنة « ٥١١٩٧ » ولا تبلغ الثانية الا « ٣٥٠٨٩ » وبعكس ذلك تزيد عدد الوفيات على عدد المواليد فى الاقاليم الغنية ففى أقليم « أور » يبلغ عدد المواليد « ٦١٤٢ » وعدد الوفيات « ٨١٢٨ » وفى أقليم « وان » تبلغ عدد المواليد « ٨٨٥١ » والوفيات « ٩٠٦٨ » وفى اقليم « أورن » تبلغ المواليد « ٦٨٥١ » والوفيات « ٨٥٣٤ » وهكذا

ومن هنا ينساق التأمل الى استخلاص تلك النتيجة الغريبة وهى ان

مدار النسل مع قلته فى فرنسا على قليلى التبصر وعديمى الكفاءة . ولست أدري ما الذى يدخرهُ المستقبل لفرنسا وهذه حالة التناسل فيها

ولنبين حينئذ ان هذه الحالة التى اختصت بها العائلة هى العلة الأولى فى الأسباب التي سبق بيانها فارادة الآباء فى الاقلال من الابناء معلولة باستحالة تحصيل مهر لكل واحد منهم اذا كثروا . ومن هنا كان الزواج حملا ثقيلا على الناس فهم يجتهدون فى الهرب منه ومتى خلص الواحد منهم من واجب القيام بشؤون عائلة كبيرة وعلم انه لا يتحمل الا القليل من الاثقال كامها وولد أو ولدين مال بالطبع الى تحصيل قسم أكبر من اللذائذ الشخصية اذ مثل الآباء الذين لا أبناء لهم أو الذين ليس لهم منهم الا العدد القليل كمثل الأعازب الذين تمكن منهم حب الذات لذلك تراهم غير مندفعين الى الاقتصاد ولا ميالين الى حرمان أنفسهم مما يشتهون فليس عندهم عائلة كبيرة يجب عليهم ان يقوموا بشؤونها

ومما يستوقف النظر أن حالتنا الاجتماعية تنتج معيشتين مختلفتين : فهنا آباء كثر عدد ابنائهم فضاق الرزق فى وجههم وعاشوا عيشة الحرمان وهناك آباء قل عدد أبنائهم فعاشوا فى رغد وهناء يتوسعون فى معيشتهم ويحصلون جميع لذائذهم كانهم ليسوا بمتزوجين . ومن جهة أخرى ترى الابناء قد تعودوا الاعتماد على المهر أكثر من اعتمادهم على أنفسهم فمالوا عن طلب عيشهم بجدهم سواء كان فى فرنسا أو فى البلاد الأجنبية وفضلوا الانكباب على التوظف فى الحكومة ورأت هذه أنه لا بد لها من دفع تلك الغارة عنها فاكثرت من أنواع الامتحانات ولكنها لم تنجح بل تكاثر العدد

ورأى كل واحد من الطالبين انهُ لا بدّ له من الانهماك على الدروس فاضطرت المدارس الى تكليف التلامذة فوق طاقتهم

والخلاصة ان جميع الاسباب التى دل عليها الاقتصاديون راجعة الى سبب واحد أولى وهو حالة العائلة التى وجدت بحكم طبيعة الاجتماع الفرنساوى

بقى علينا ان نعرف ان كانت قلة النسل فى فرنسا مفيدة أو مضرة

أما الاقتصاديون فغير متفقين فى هذا الموضوع أيضا فذهب موسيو « موريس بلوك » فى جريدة « الدبيا » وفى مجلة « العالمين الجديدة » الى ان زيادة النسل زيادة سريعة من موجبات ضعف الأمم لأن الفقر من لوازمها . ووافقه موسيو « دى موليناري » فى جريدة « الاقتصاديين » التى هو مديرها

ولكن الاستقراء لا يؤدى الى هذه النتيجة اذ ليس من المسلم أولا ان قلة النسل تفيد الأمة الفرنساوية . نعم لو كنا محاطين بسور كسور الصين فلا يتخلل أمتنا عنصر أجنبى من أى نوع كان لأصبحنا فى معيشة راضية فى بلاد قل عدد سكانها اذ قلة العدد تسهل لكل فرد مصادر العيش وتجعلهُ يستفيد مما تجعل الأمة أكثر مما لو كانت كثيرة العدد . غير ان الأحوال لا تجرى كذلك والنقص فى النسل يستعاض على الدوام بتهافت القصاد من الأجانب فالوافدون على البلاد الفرنساوية كثيرون من جميع مجاوريها البلجيكيين والالمانيين والسويسريين والباسكيين [١] والاندلسيين

---

(١) هم سكان أطراف جبال البيرينية الغربية

ولا يزال عددهم يزداد يوما عن يوم فكان عدد الاجانب فى فرنسا سنة ١٨٥١ (٣٦٩٠٠٠) نسمة وبلغ سنة ١٨٦١ (٤٩٩٠٠٠) وسنة ١٨٧٢ (٧٩٩٠٠٠) وسنة ١٨٧٦ (٨٠١٠٠٠) وسنة ١٨٨١ (١٠٠١٠٠) فتكون النسبة واحداً من الأجانب فى كل ثلاثة وسبعين فرنساويا

قال موسيو « فوفيل » « ان كثرة ورود الاجانب فى فرنسا أمر خطير اذ لولاهم لما تغير عدد الفرنساويين » وفرنسا هى البلد الذى قل عدد المهاجرين منهُ وكثر عدد المهاجرين اليهِ والذين يقولون بمنفعة قلة النسل يعلمون هذا ولكنهم لا يتطيرون منهُ بل يفرحون بهِ ويقولون انهُ موجب للاقتصاد فى فرنسا لانها بواسطة الغرباء تجد عمالا لم تتكلف تربيتهم . قال موسيو « مولينالى » « لو فرضنا ان الامة الفرنساوية اضطرت الى تربية ذلك المليون من العمال الذين يأتونها من الخارج لكلفوها من النفقات مالاً جزيلا اذ الحصول على مليون رجل كلهم فى سن العشرين لا يتأتى الا من مليون وثلاثمائة ألف نسمة ومتوسط النفقات لتربية مليون من الشبان ثلاث مليارات وخمسمائة مليون . وعليه ففرنسا تقتصد مثل ذلك المبلغ باستعمالها العمال الاجانب وهذا المال يساعد كثيراً على امتداد ثروتها العامة والخاصة ولا يشك أحد فى انهُ لو جاءنا من البلاد الاجنبية مليون من الثيران لنسد بهِ نقص ماشيتنا لكانت فائدتنا منها مساوية لما صرفته البلاد التى أرسلتها الينا فى تربيتها »

ولا نخال هذا القول صحيحا اللهمّ الا اذا كان الرجل ثوراً ولكنهُ لما كان انسانا لزم عليهِ ان قلة أبنائنا وعدم تربيتهم كما يتربى أبناء العائلات

كثيرة العدد وعدم تعودهم من صغرهم على الاعتماد على أنفسهم فى تحصيل عيشهم واهمالهم جانب المهر الذى يأخذونه من آبائهم أو الذى تأتيهم به نساؤهم وعدم اعتقادهم بان النجاح انما هو لمن قويت فيه القدرة على العمل وكان ذا عزيمة واقدام لا يؤدى الى تربية الرجال عندنا ولزم عليه ان ابناءنا بتعودهم على ما ألفوهُ من التربيــة التي تجعلهم يعيشون فى حجور امهاتهم ويأكلون من حيث لا يعرفون اذا احتكوا بأولئك الاطفال الذين نشأوا بين عائلات كثيرة العدد وتربوا على نظام شديد من حيث العمل والاجتهاد يخسرون على الدوام ويتقهقرون خجلين . الا ترى ان تجارنا ومهندسينا يفضلون العمال الالمانيون أو السويسريين والصناع البلجيكيين أو التليانيين على أمثالهم من الفرنساويين اذ يجدونهم أشد اطاعة وأكثر عملا وأكبر اقتصاداً وأقل طمعاً . والواقع ان أولئك الاجانب يقتصدن من اجور لا تفى بحاجات الفرنساويين ولولا معونتهم لنا لما زادت قيمة متاجرنا الضعف ولاشتد عجزنا عن مقاومة المنافسة الاجنبية . والصناع الاجانب هم الذين عليهم مدار صناعتنا وزراعتنا بما أوتوه من سلامة العقل وقوة الجسم غير انهم لا ينقذوننا من هذا الانحطاط الا بارفع الاثمان اذ وجودهم بيننا يضعف من قوة ارادتنا ويقلل من همتنا وينقص من انتشارنا ويثبط همتنا فى الاستعمار ويذهب بنفوذنا فى العالم بل هو يؤثر أيضا على جنسيتنا لما يعتريها من التغير طبعا لاختلاطهم بنا

الفصل الثانى

﴿ فى ان طريقة التربية عندنا مضرة بثروة الامة الفرنساوية ﴾

يقول الناس فى كل مكان ان هذا الجيل جيل المال ومنهم من يفرح بذلك ومنهم من يحزن له والواقع ان الاعمال المالية وصلت فى زمننا هذا الى حد يكاد العقل لا يتصوره وليس هذا أمرا غريبا اذ ليس شئ فى الوجود مسببا عن الصدفة بل سببه اكتشاف مناجم الفحم فهو الذى أوجد فى المال تلك القوة العظيمة التى امتاز بها فى زمننا هذا . فبواسطة الفحم تمكنت الامم من اجراء اعمال كثيرة تقتضى من المال مايفوق ثروة أغنى العائلات مما لا يمكن القيام به لغير الشركات . وأول تلك الاعمال هو استغلال المناجم عينها لان الفحم لا يوجد فى الارض مختلطا بغيره كما توجد المعادن الاخرى بل هو طبقات متكاثفة فوق بعضها تكاد ان لا تنتهى ولهذا فانه يقتضى فى استخراجه عمالا كثيرين وعملا عظيما . ثم الاكثار من الاشتغال فى المناجم ذو فائدة عظيمة لان الفحم لازم فى كثير من الصنائع فبيعه سهل ومأمون ومثل هذا العمل العظيم يقتضى من النفقات مالا لا يمكن جمعه الا بواسطة الشركات . ولم تقتصر منفعة الفحم على كونه صار محلا لتجارة كبيرة من حيث هو بل انه غير حالة الصناعة تغييراً كليا فبه أصبح الدكان الصغيرة معملا كبيرا لان قوته عظيمة يتحصل الانسان بواسطتها على اضعاف

اضعاف ما كان يعلمهُ بدونها . وزيادة الانتاج تستدعى زيادة العمال ثم ان أكثر المصنوعات تستلزم مالا كثيراً لا يتأتى جمعه فى كثير من الاحوال الا بواسطة الشركات

ومن فوائده أيضا تغيير طرق النقل والتسفير فيه امتدت السكك الحديدية وجرت سفن التجارة فى عرض البحار وهذه الاعمال أيضا تطلب من الاموال ما لا بد فى جمعه من الشركات . والفحم هو السبب فى تأليف شركات المساهمة الكبيرة التى تشتغل بتنوير المدن بالغاز واستعمال الكهرباء وفتح قنال السويس وغير ذلك وهو الذى حمل الدول على اجراء الاعمال العظيمة ذات المنفعة العامة وكلما زادت قوة الفحم عظم اتساع تلك الاعمال حتى أصبحت أموال الخزائن لا تفى بالمطلوب وعمدت الحكومات الى الاقتراض فتألف لاقراضها شركات أكبر من التى سبق القول عنها

هكذا عظم سلطان المال الى حد لم يكن فى الحسبان حتى أصبح ذا ثمرة ذاتية أي من دون أن يأتى صاحبه عملا من الاعمال وتغير الاستثناء الى قاعدة كلية فبعد ان كان الغنى هو الذي له رأس مال يأتيه بالربح اشترك معه فى ذلك الحقير الذي يقتصد المال اليسير بالكد الكثير . ومن تأمل فى هذا التغيير الذي أحدثه الفحم وحده علم أنه تغيير لازم جاء من طبيعة الحال . ومقتضى الحال أشد قوة من همم الرجال ومن طلب مقاومة هذا التيار فقد ضل رشده اذ لا بد له من الخذلان

وليست الاسباب التى جعلت الناس يتهافتون على اقتناء السندات المالية الا أسبابا جوهرية جاءت من مقتضى الاحوال كالتى ذكرناها

فأول مزية في تلك السندات سهولة حيازتها وهي سهلة الحيازة لكونها تتجزأ الى مالانهاية له وقابليتها للتجزؤ تسهل لأحقر الناس اكتسابها وربحها لا يقتضي كلفة ولا عناء فكل الناس من صغير وكبير يميل اليها ثم الربح الذى يأتى منها يأتى بانتظام فى أوقات مقررة وذلك لايتأتى لمن يزاول الزراعة مثلا أو الصناعة أو التجارة وظاهر انهُ لاموجب للانسان يدعوه الى ترك هذه المزايا

وثانيتها لمالك السندات أمل فى زيادة قيمتها أو تسديد ما عليهِ منها بطرق مفيدة أو فى نوال ربح كبير ومن أصابهُ حظ مما ذكر فقد اغتنى وهو نائم والكثير يعتمد على مايرجو كسبهُ من هذا السبيل فأصحاب السندات والسهام الذين حصلوا ثروة طائلة كثيرون ومامن أحد الا ويغبط مساهمي شركة « انزان » التي اشتهرت بوفرة ارباحها ومساهمي شركة قنال السويس وشركة الغاز في باريس وغيرها فقد أتت تلك الشركات وأمثالها بالارباح التي لاتعد فى زمن يسير لأنها تكونت فى زمن كثرت فيهِ حاجة الناس اليها وقل المتنافسون معها وأقبل الناس عليها ولا يزالون مقبلين اقبال الظمآن على الماء . نعم من الناس من يخسرون فيها الا ان الخسارة غير ظاهرة بجانب الكسب الوفير

وثالثتها سهولة شراء هذه السندات فى الاسواق المالية « البورصة » وبيعها وما يتخلل ذلك في كل وقت من هبوط الأسعار وارتفاعها يحمل كثيراً من الناس على الاشتغال بها رجاء الربح فى المضاربات فضلا عما يجدونهُ في ذلك من اكتفاء العناء فى حفظ أموالهم والزيادة فيها الى

الحد الأقصى

هذه هى الأسباب التى تدعو الى اقتناء الأوراق المالية بوجه الاجمال وهى حركة أوجبت تغيراً عظيما فى الأفكار من حيث العمل ورفعت شأن النقود الى المقام الاسمى وفتحت أمام كل طالب بابا للكسب فسيحا وارتقت بالماليين الى ذروة الهيئة الاجتماعية فأصبحوا ملوك العصر وقياصرة الزمان

غير ان لكل شيء فى الوجود ضدا والدهر قلب وهنا يصدق تشبيه السعد بعجلة تدور فما أكثر تقلبات الثروة المنقولة لانها على الدوام تحت رحمة تغير الأسواق وتغير الاسواق على الدوام تحت رحمة السياسة والمضاربات ولسنا فى حاجة الى سرد ما تحدثه الاسواق المالية كل يوم من التخريب والتدمير لأن علمهُ حاصل لكل واحد منا وانما الذى نريد توجيه الافكار اليهِ هو ان الخسارة المالية قد تشتد فى بعض الاحيان فتصيب أناسا كثيرين حتى تكون داهية كبرى وتشبه البناء اذا تداعى . هنالك يصيح القوم بأصوات الفزع وينطق كل واحد بما تمليهِ عليهِ منافعهُ فيتسابقون فى تعنيف الماليين ورميهم بمر الملام وسم الكلام وقد يكون اللائم نفسه مستحقا للزجر والتعنيف . ومن الغريب ان كل مساهم يستعد لاقتضاء الارباح ولكنه يكره تحمل الخسارة والواقع ان كليهما نتيجة لازمة لطبيعة العمل الواحد فالاوراق المالية تربح وتخسر أى تثمر التقلب كما يثمر الكرم عنبا وشجرة التفاح تفاحا . والذى يجب الاهتمام بهِ والبحث عنهُ هو معرفة ما اذا كان فى الامكان ملافاة الضرر الذى ينجم عن تقلب الاسواق المالية والتفادي من سلطة الماليين . ومن المشاهد ان ذلك في الامكان بل ان

بعض الأمم قد اتخذت من الوسائل مااتقت به تلك المحن

وبيانهُ ان انتشار الاوراق المالية لم يؤثر في جميع البلدان بدرجة واحدة اذ من المشاهد ان البلاد التي أصابها الضر ليست هي التي كثر فيها الاخذ والعطاء بتلك الاوراق ومن البلاد ماتتحمل من المضاربات مالو حصل في غيرها لأضرّ بها كثيرا ويمكننا ان نشبه الحالة المالية بكرم العنب وهو يقاوم فعل الدودة في أمريكا أكثر منه في فرنسا

ولو أحصينا الكتب والوسائل التي نشرت حديثا في البلاد الفرنساوية لتنبيه الأمة الى ماهو محدق بها من الاخطار بفعل اليهود وتأثير المضاربات لملأت خزائن بتمامها . الا ان العقل ليس هو الذى أملى تلك المؤلفات كما ان التؤدة لم ترافق الكتاب في تأليفها وانما الداعي اليها هو الشهوة والهوى وقد تخطى أكثرها الحد الذى ينبغي وتلك أفسد الوسائل في الوصول الى الغرض المطلوب . ثم ان الذين كتبوا كلهم لم ينظروا الا الى ظاهر المسئلة فجاءت أدواؤهم التي أشاروا بها غير مفيدة أو متعذرة الاستعمال . ومع هذا فان تلك القيامة تدل على أمر صحيح لاشك فيه وهو الحرج الذى استولى على الأمة الفرنساوية في هذه الأيام

وليس منشأ هذا الضيق ان الفرنساويين تهافتوا على استعمال الأوراق المالية أكثر من غيرهم اذ الحال واحد في انكلترا والبلاد الاسكندنياوية وألمانيا والولايات المتحدة وانما السبب اختلاف طرق الاستعمال

فأما الامم التي تمكنت من مفادات الضرر الذى ينجم عادة من الاشتغال بالاوراق المالية فانها اتخذت سبيلا واحدا ذلك انهم لم يضعوا جميع

أموالهم في تلك الاوراق بل فرقوا بين رأس المال وما اقتصدوه من غلته واشتغلوا فى الاوراق بالثانى دون الاول . أما الفرنساويون فقد فرطوا فى الكل وأسلموا الى الاسواق المالية أصل الثروة وما اقتصدوه وهذا هو السبب في قولهم عادة ان فرنسا هى البلد الذى كثرت فيه وفرة المال وهو قول صحيح لميل الفرنساوى الى جعل ثروته كلها منقولة والكثير منهم يود ان لو جمع ثروته كلها فى دفتر جيبه

وهذا هو السبب أيضاً فى ان أغلب القروض التى تحصل يقع الاكتتاب فيها بفرنسا فهى أكبر سوق للاموال وهى أحسن بلد يستفيد منها المالى لو كان من الماهرين وترى اليوم الاموال الفرنساوية تجرى الى الخارج فى جداول مختلفة ولكنها لا ترجع اليها الا قليلا فكم ضاعت النقود الفرنساوية في تركيا و « هوندوراس » و « فنزويلا » ومعادن بلاد الاندلس وجمهورية « ارجنتين » و « البيرو » وغيرها . والمال الفرنساوى هو الذى كان له الحظ الاوفر فى ذينك العملين العظيمين الذى لا نظير لهما فى زمننا هذا أريد فتح قنال السويس وخليج بناما لكن كونهما فتحا بمال الفرنساويين لا يستلزم بقاءهما فى حيازتهم فاما قنال السويس فقد صار ملكا لانكلترا ومن المحتمل جدا أن يصير بناما ملكا للامريكان ومعناه استيلاء العنصر الانكليزى السكسونى على كل شئ فالفرنساويون يزرعون وغيرهم من الامم يحصدون والفرنساويون يتعرضون الى الاخطار حتى اذا وجبت الفائدة جناها غيرهم وهم اليه ينظرون

ثبت اذن ان فرنسا هى البلد الذى صارت الثروة فيه منقولة . أكثر

من غيرها

والسبب فى هـذا اهمال الفرنساويين على تمادي الايام منابع الثروة العمومية الثلاثة وهى الزراعة والصناعة والتجارة . ولسنا فى حاجة الى اعادة ماسطره الغير من اصرار ملوكنا وأخصهم لويز الرابع عشر على حمل الشرفاء على ترك أراضيهم وجلبهم الى دائرة الحشم والمعية وان الطبقة العليا تناست شيئا فشيئاً سكنى الارياف واعمال الفلاحة واختارت الاقامة فى المدن الكبيرة وصارت فرنسا اليوم هى البلد الذي تطول فيه غيبة كبار الاغنياء عن أملاكهم وتحولهم عن الاشتغال باستغلال أراضيهم وأصبحت الاموال التى كان ينبغي استعمالها فى الزراعة وتحسين طرقها معطلة لا تفيد الزراعة وكان من الممكن استعمالها فى الصناعة أو التجارة الا انهما معتبران عند كل ملتصق بتلك الطبقة من الاعمال الدنيئة جريا على ذلك الوهم المتأصل فى الافكار من قديم حتى ان المشتغلين بهما لا يفكرون الا فى الكسب باسرع ما يمكن ولا غرض لهم من جمع الاموال الطائلة الا التقاعد عن صناعتهم أو تجارتهم وادخال أبنائهم فى المهن التي تطلعت اليها الطبقة التى اتفقوا اليوم على تسميتها بالعليا وهى الوظائف الادارية . فمنتهى أمل كل فرنساوى ان يلتحق بوظيفة فى الادارة أو الجيش وهى الطريقة التى يكون الواحد منهم بها مكرما محترما وهى التى تؤهله الى أن يتزوج بامرأة من الاغنياء وتجعله مقبولا بين القوم الممتازين . اذن فالفرنساوى اماموظف أومترشح للتوظف وله من ذلك راتب يقبضه وهو يقتصد من راتبه ما زاد على حاجته ولا شك انه لا يميل الى استعمال ما اقتصد فى الزراعة أو الصناعة أو التجارة

للأسباب التي قدمناها وهي الحط من قدرهِ على انه يجهل سبيلها بالمرة . وعليهِ فلم يبقَ لاستغلال ذلك المال الا شراء الاوراق المالية فهو الباب الوحيد الذي يمكن الدخول منهُ واليهِ يميل كل ذي مال لا يريد أن يشتغل لاستغلالهِ واغائه أو غير قادر على ذلك . وهناك سبب آخر في كثرة النقود المتوفرة لدى العائلات الفرنساوية وهو قلة الابناء كما قلنا فالمال الذي تنفقه الامم الاخرى في تربية أبنائها الكثيرين يقتصده الفرنساويون ويبقى هكذا تحت طلب الشركات المالية فاصرارهم على تقليل النسل يوجب ضعف قوتهم الاجتماعية في المستقبل ولكنهُ يدعو الى زيادة الاموال حالا في خزائنهم ولاشك في انه لوحصل هبوط في أسعار تلك الاوراق المالية التي جمعت أموال الكثير من الفرنساويين كلها لكانت مصيبة كبرى ولخسروا خسارة لاعوض لها

وليس هذا حال الامم الانكليزية السكسونية فلا يزال كبراؤها وعامتها مشتغلين بالزراعة وللوردات الانكليز املاك واسعة يسكنون بينها وهم يدبرونها بانفسهم ومن عمد الى الاستعانة بالغير في استغلال أراضيه فانه يحفظ على الدوام قسما يباشره بنفسه ومن أجل ذلك تراهم واقفين على أحوال الزراعة ومهتمين بشؤونها ومستعدين لاستعمال أموالهم فيها . ولا يكاد الفرنساوي يقدر المال الذي ينفقه أحد أغنياء الانكليز في تحسين طرقها والتفنن في أساليبها « راجع كتاب تدبير الزراعة عند الانكليز لموسيو لافارج » واستعمال الاموال في الزراعة هو أكبر باعث على اعتبار ذوي الحيثيات في تلك البلاد « راجع مذكرات على انكلترا لموسيو تاين » ومن الانكليز

عائلات كثيرة تهاجر الى أمريكا واوستراليا وزيلنده الجديدة وكلها تشتغل بالزراعة ولها أملاك كبيرة فيها لان الزراعة وحيازة الاراضى هما أقصى أمانيها وبذلك سهل على كثير من شبان الانكليز أن يرتزقوا فى البلاد الاجنبية ومتى اتجهت الهمم الى هذا السبيل لم يبق الى يسير من المال لشراء الاوراق المالية

وعلى الضد منهم لايهاجر من الفرنساويين الا النزر القليل ومن تكلف الرحيل عن وطنه فانما يقصد برحلته أن يكون موظفا فى البلاد التي يقصدها الا نادراً وهم بذلك يعيقون تقدم الاستعمار اكثر مما يساعدون عليه

هذا ولم يقتصر الانكليزي السكسونى على الزراعة بل هو يهتم أيضا بالصناعة والتجارة حتى الكبراء منهم والامراء وأبناء اللوردات الذين يذهبون لغير بلدهم طلبا لحيازة الاراضى وزرعها ينشئون فى وطنهم معامل للصناعة أو يتجرون ولا يخطر ببالهم فيما يعملون أنهم خرجوا عن تقاليد آبائهم كما أن هذا الخاطر لايجول بفكر أحد من أمتهم . وهذا هو السبب الوحيد فى اتساع نطاق الصناعة والتجارة فى انكلترا والولايات المتحدة بدرجة تكاد تبلغ حد الاعجاز ومعلوم أن ذلك يقتضى مالا كثيراً فلم يبق للاوراق المالية الا يسير

ومما يزيد أولئك القوم رغبة فى الزراعة والصناعة والتجارة عدم اعتبار الوظائف عندهم كما هى عند الفرنساويين فلا نرى فى انكلترا مثلا من الموظفين الا ما لابد منه ومن هنا طلب الناس رزقهم من الحرف النافعة الاخرى وهم فى مأمن من المخاوف لما هو مقرر في شرائعهم من أن تركة

الرجل لا تقسم بين جميع ورثته فالرجل يعمل ويجمع الاموال وله الخيار فى تأسيس الاعمال الباقية على الدوام بعد مماته

ومن المسلم أن الذى يجعل مدار ثروته عمله الذاتى وكسبه الشخصى لايكون عرضة للاخطار كالذى يتكل على تقلبات الاوراق المالية لان الاول لايشترى تلك الاوراق الا من فضلة ماله ويشتريها وهو غير جازم بالكسب منها كمن يدخل بيت القمار فيرمى فيه ببعض دريهمات من نفقة نزهته فان أصاب ربحاً فبها وان أضاع ما أنفق فالضرر محتمل ورأس المال محفوظ مصون

ألف موسيو « روزييه » كتابا سماه « عيشة الامريكان » تلذ قراءته خصوصا الفصل الثالث عشر الذى عنوانه « كيف يستغل الامريكى ماله » فقد ورد فيه ما يأتى « رأيت فى نيويورك وفى بوصتون رجالا يشتغلون فى الحرف الأدبية ومع ذلك يضعون فى الزراعة أو غيرها قسما من أموالهم ولهم علم بالجهات التى يضعون نقودهم فيها ولكنه لا يتألف من ذلك شركات كبيرة بل جمعيات صغيرة خصوصية ومن همهم أن يقفوا على كيفية الاستغلال وطرقه ولذلك لايقسمون أموالهم ليضعوا كل قسم فى جهة مخصوصة كما يفعل بعض الفرنساويين احتفاظا عليها بل يجمعونها كلها فى جهة واحدة وكلهم حراس عليها . ومن هنا تجد الجرائد الامريكية مشحونة بالاخبار العملية اى المختصة بالزراعة والصناعة والتجارة ولا ينشر أسعار الاوراق المالية الا القليل منها لان الكثير من قرائها لا يلتفتون اليها وهو معقول اذ لو كان عندهم مال لما استغلوه فيها بل جهات الاستغلال عندهم هى المهم

والعمل فيتخذ الواحد منهم مصنعا يشتغل بادارتهِ أو يقصد التجارة ولكنه لا يرضى أن ينام على أوراق مالية يشتريها

من أجل ذلك تجد التعامل فى الاسواق المالية عندهم يحصل على الدوام بالنقد فورا فكل بيع أوشراء تدفع قيمته بتحاويل يقبضها المحول اليه فى اليوم الثانى ومن اشترى ورقا لزمه أن يأخذه من مكان ابتياعه وذلك من أكبر البواعث على الاقلال من أعمال تلك الاسواق فلا يقدم على العمل فيها الا من كان المال حاضراً فى يده ولا يجد من يبتغى الكسب بالدين اليهِ سبيلا

وعلى هذا يمكننا أن نقول بان هبوط الاسعار عند الامم الانكليزية لا يضرها كما لو حصل عند الفرنساويين اذ الاولى أقل من الثانية فى استعمال الاوراق المالية

ان الانصباب على تلك الاوراق فى البلاد الفرنساوية هو الذى جعلها كعبة القصاد من ذوى الاموال وما اليهودى الا بزرة لا تنبت الا فى أرض تناسبها والا لانتشر زرعه في انكلترا والبلاد الاسكنديناوية والولايات المتحدة وأوستراليا وغيرها ولكنه لم يهبط الى تلك النواحى لان المال فيها غير موجود فى الاسواق ولأن كل من كان له نصيب منه فيها يستغله بنفسه فى أرضه أو صناعتهِ أو تجارته . فحيث لا يجد اليهودى مالا يقتنصه وحيثما يجد قوما يعرف كل واحد منهم طريق الدفاع عما اقتنى تراهُ ينسحب من نفسه أو انه يفقد ما فى بزورهِ من الفساد

الفصل الثالث

﴿ فى ان التربية الانكليزية السكسونية تساعد على التزاحم فى الحياة ﴾
« النوع والاخلاق »

جاءني فى شهر مايو سنة ١٨٩٢ دعوتان الى بلاد الانكليز : الاولى من جمعية تقدم العلوم البريطانية لمناسبة احتفالها بالمؤتمر الثانى والستين لها من ٤ الى ١٠ اغسطس سنة ١٨٩٢ بمدينة ايدنبورج وقيل لى فى ورقة الدعوة « ان لجنة الادارة ترجوأن تشرفوها ببقائكم ضيفا عليها مدة اقامتكم فى هذه المدينة وكونوا على يقين من انها لن تهمل شيئا من شأنه أن يجعل لكم المقام حلواً مرضيا » فلما قرأتها أحسست انى غير قادر على عدم الاجابة

والثانية من الاستاذ « جيديس » مؤسس جمعية علمية يقال لها « جمعية الصيف » فى المدينة ذاتها وكان يطلب منى أن ألقى بعض الدروس فى العلم الاجتماعى على أصحابه

وفى اليوم الثانى من شهر أغسطس سنة ١٨٩٢ قصدت مدينة ايدنبورج فراقنى مرآها وهكذا صرت أتردد عليها أربع سنوات متواليات وشاهدت تلك الجمعية الصيفية فاذا بها مدرسة علوم وفنون غريبة فى بابها وهى فى الواقع حقيقة بالانكليز وينبغي أن يعرفها القراء لذلك نذكر طرفا من موضوعها

اشتغلت الافكار بنشر التعليم فى البلاد الانكليزية حتى انتهى القائمون بهِ الى تأسيس دروس متعددة في انحاء البلاد على الخصوص حول كل مدرسة من المدارس الكلية وتدوم تلك الدروس فى الغالب شهراً واحداً زمن العطلة الصيفية ويجتمع اليها الطلبة من رجال ونساء رغبة فى توسيع معلوماتهم وكل طالب أو طالبة يدفع جعلا معلوما . وقد نجح هذا المشروع جدا فى تلك البلاد لكثرة الذين يميلون الى زيادة التحصيل علما بان العلم أكبر مساعد للانسان فى حياتهِ فاذا جاء الصيف وحان زمان تلك الدروس رأيت الناس يكتتبون فيها مئات مئات فى انكلترا والوفا الوفا فى الولايات المتحدة .

ولقد تولانى الاندهاش أول مرة جلست فيها لالقاء الدرس فى مدينة ايدنبورج لما رأيت أن عدد الطلاب يبلغ الستين الى السبعين إذ ما كان يخطر بالبال أنهم يبلغون هذا المقدار فى درس يلقى باللغة الفرنساوية وليسوا كلهم من طبقة واحدة بل من طبقات وأجناس مختلفة مما يفيد المتأمل في أحوال التربية وأحوال الاجتماع . فمنهم بعض ذوى الاملاك العظام وفيهم الكثير من المدرسين والكتاب ومدير جمعية البحث في أحوال الامم بلندره وعدد من طلبة المدارس وفيهم من الشبان الذين يتلقون دروسنا فى العلم الاجتماعى بباريس وقد أصابوا بمجيئهم الى ايدنبورج ومنهم بعض الفتيات وبعض المشتغلين بالتربية والتعليم والاعمال الخيرية من رجال ونساء وبعض المعلمين والمعلمات وهؤلاء أكثرهم بالطبيعة عددا . واتفق انى قلت لاحدى المعلمات أن زميلاتها فى فرنسا لا تردن ضياع زمن العطلة المدرسية

عليهنّ فى تلقى دروس جديدة وعلى الخصوص بمقابل يدفعنه فبانت على وجهها علامة الاستغراب وأجابت أن استعمال زمن العطلة فى الاستفادة أمر طبيعي . والواقع أن عدد الطالبين والطالبات لتلك الدروس بجوار كليات « اكسفورد » و « كمبريدج » وغيرهما قد يبلغ الستمائة كلهم يدفعون المقرر المفروض

وليس لهذا الانصباب سبب غير رغبة كل واحد في التحصيل ليكون لهُ بذلك قيمة ذاتية تعظم وتترقى على الدوام

وقد بينا فى مجلة « العلم الاجتماعى » كيف أن تلك الرغبة تنمو بالتربية

ثم زرت عزبة فى ضواحى ايدنبورج فشاهدت أن الميل واحد عند أهل الزراعة كما هو عند غيرهم ولما نزلنا الى المحطة وجدنا صاحب العزبة فى انتظارنا واذا به رجل لايمكن التفريق بينه وبين أحد أصحاب البيوت المالية أو أحد السياسيين أو أحد أغنياء الناس بحال من الاحوال لانه قد جمع شمائل الظرفاء من كل وجه فلباسه حسن التفصيل كأنه خرج من يد خياط شهير ولهذا التحدى في البيان كما لغيره مما يلى فائدة تظهر للقرآء فيما بعد

أما العزبة فكائنة على مسافة كيلو متر واحد من المحطة ومقام صاحبها ملاصق لملحقاتها يصل الزائر اليه فى طريق منتظر تحفه الازهار من الجانبين وفى المدخل باقة منها ومنظر البيت من الخارج منظر دار لطيفة من تلك الدور الانكليزية ولما دخلنا وجدنا الدهليز مفروشاً بالبسط وكذلك السلم والطرقات حتى انتهينا الي قاعة الاستقبال حيث كانت سيدة البيت فى

انتظارنا فقابلتنا بلا تخمش كما تقابل السيدات المتعودات على الاجتماع واستمر الحديث بيننا بلا فتور وأخذنا حظنا من كل موضوع وقد ألفيتها تعرف اللغة الفرنساوية مما يدل على انها أخذت نصيبها من التربية ثم قدم الشاى على أحسن ترتيب وشاهدت الخادمة ليست بتلك المرأة السمينة المتخمشة فى هيئتها البطيئة فى حركتها اللابسة لباس الريف المنتقلة فجأة من علف الماشية الى خدمة الظرفاء بل هى خادمة تدل اعمالها على علمها بواجباتها وقد اتشحت بفوطة بيضاء محبوكة الاطراف مكوية باتقان وعلى رأسها تلك الطاقية الحسناء التى تتقلدها الخادمات الانكليزيات فى بيوت الكبراء . ولا شك فى ان ذلك كله يدل على ان الرجل يعيش عيشة هناء ورخاء اذ لا يتأتى أن يكون قد أعد كل ما رأينا لاستقبالنا ولم يكن كذلك من قبل . ولقد أثر عندى هذا المنظر تأثيراً جعلنى على الدوام افكر فيه وأقارن بين ذلك الحال وما شاهدت فى غير تلك البلاد من نظائره فبالمقارنة تتبين الأشياء . وكأنى بالقراء وقد أدركوا اننى لما رأيت صاحب ذلك المكان الانكليزى وتفقدت مقامه وخبرت نوع معيشته تذكرت أمثاله من أهل الزراعة الفرنساويين ومعلوم ان أحسن أهل الزراعة عندنا هم سكان الشمال فهم الذين نرى من بينهم المتعلم المتنور أو الحائز للشهادة الثانوية والذى أحب الترفه وجمع فى بيته كثيرا من موجبات الراحة واتخذ له قاعة مخصوصة يستقبل الزوار فيها وتردى رداء الحضر لا رداء الصناع ولاحت عليه امارات رب المال الذى يديره بنفسه وعاش فى سعة وطاب طعامه ولذ شرابه . غير ان كل الناس ليسوا كهؤلاء ولست أقصد أهل الجنوب أو الوسط أو سكان « بروتانيا »

ممن لا فرق فى المعيشة المادية بينهم وبين الاجراء بل اترك هؤلاء لا تكلم
عن أهل « نورمانديه » التى هى من الاقاليم الموسرة وانا الآن أتذكر واحدا
منهم زرته مراراً وله من الاطيان مائة وخمسون هيكتومترأى كالذى يملكه
صاحبنا الانكليزى وهو من الاغنياء بدليل انه جعل لابنه — ذلك الولد
الوحيد — مهرا قدره مائة ألف فرنك وفى قدرته أن يعيش العيشة الراضية
ولكنه لا يميل اليها بل هو لا يدركها . تراهُ لابسا لباس العملة وهو
القميص الازرق القصير الذى يلبس من فوق الا فى أيام الاسواق والموالد
فانه يلبس رداء رثا من جميع الوجوه ليس فيه محل للنظافة أبدا وامرأته على
مثاله تذهب بنفسها لتغسل الثياب من حنفية عمومية ولا فرق بينها فى
لباسها وحركاتها وحديثها وبين بنات العزبة كلهنّ وبيتهم من الداخل
يشبه الساكنين فيه فكلهم يقضى حياته فى قاعة كبيرة لها باب مطل على
حوش العزبة وحيطانها مبيضة بالجير تلطيخا وهى عارية عن كل زخرفة
وزينة وفيها من الاثاث كله مائدة كبيرة عبارة عن ألواح سطحت فوق
أعمدة تحملها وعليها يأكل الاسياد والخدم بلا فرش ولا غطاء وحولها
مقاعد من خشب تناسبها وهى أربعة كراسى كل واحد على شكل مخصوص
مصنوعة من البردى صنعا رديئاً ثم كانون الطبخ وماجور تغسل فيه الآنية
هذا كل أثاث تلك القاعة ولم اختره من المستثنيات بل ذلك هو الحال
الغالب عند الفرنساويين أجمعين وربما شاهد ذلك كل واحد من القراء مائة
مرة الا انها حالة لا تشمئز منها نفوسنا لاننا نراها عادية طبيعية ونفهم ان
الفلاح لا يمكنه يعيش الا هكذا لان الزراعة من لوازمها فقد موجبات

الراحة والنظافة

ولعل القرآء يحسبون ان الزارع الانكليزى الذى زرته يعد استثناء كذلك كان ظني بادئ الأمر ولكني اعتقدت العكس لما دخلت بيوت الفعلة الذين يعملون فى أرضه . ولا حاجة بى أن أشرح كيف يعيش الفعلة عندنا فالواحد منهم اما أن ينام فى الجرن على القش أو الحشيش أو فى الحوش على أردأ سرير أو أن له أودة حقيرة يأوى اليها . ولما أذن لى صاحب العزبة بزيارة مساكن عماله رأيت على بعد مائة متر من منزله خمسة بيوت أو ستة تمتد على الطريق وهى ذات مناظر تعجب النواظر يتقدم كل بيت منها بستان صغير كله أزهار وله طرق فى غاية الانتظام ومن الخلف بستان آخر تزرع فيه أنواع الخضر . وعند وصولنا الى تلك المنازل رأينا فتاة عليها سيماء الاواسط من الناس جالسة أمام أحدها وامامها رضيع عليه الملابس البيضاء المتقنة فى عربة لطيفة فى حالة جيدة ذات أربع عجلات من النوع الذى يقال له انكليزى وهو رفيع الثمن كما هو معلوم وكان معي حضرة زميلى فى مجلة العلم الاجتماعى موسيو « بوانسار » فسأل صاحبنا ان كانت تلك السيدة من نساء المدينة أقبلت تتريض فى هذا المكان فأجابنا والعجب يأخذ منا كل مأخذ كما لا يخفى انها زوجة ذلك الشغال الذى يسكن البيت الواقفون نحن أمامه ثم سألها سيد المكان ان كانت تسمح لنا بزيارة بيتها فأجابت بالارتياح وأدخلتنا فوجدنا أمام البيت ممسحة للارجل وفى الدهليز بساطاً من الحبال لهذا الغرض بعينه ووجود الدهليز فى المنازل من موجبات نظافتها وراحة سكانها فلا يدخل الانسان فى الغرف من الخلاء مباشرة ثم الدهليز

يوجب حماية من فى البيت من البرد أكثر مما لم يكن موجوداً وعلى اليمين قاعة صغيرة جعلت لغسيل آنيـة الطبـخ والملابس ووجودها يوجب نظافة أودة الاكل والطبـخ لعزل الغسيل فى مكان مخصوص وأودة الاكل هى أيضاً أودة المطبـخ وهى كبيرة يبلغ مربعها أربعة أمتار فى أربعة تقريباً وفيها من الاثاث ماترتاح النفس لوجوده وكانون الطبخ يغيب نصفه فى الحائط ولا يظهر منه الا نصفه وتلك عادة مألوفة كثيراً عندهم وهو فى غاية النظافة نحاسه براق ولا عجب من هذه النظافة لان طباخات الانـكليز أكثر مهارة فى نظافة الآنية منهنّ فى طهى الاطعمة فهنّ ينظفن على الدوام ويستعملن نشارة الرصاص وماء النحاس فى تنظيف المطبخ كما يستعملن الطباشـير فى نظافة الحيطان والحجر حتى يخيل للانسان ان الطباخة الانـكليزية تجثو على ركبتها زمناً أطول من الذى تقف فيه على قدميها . ويوجد فى تلك الاودة قطعة من الاثاث الخشبي ذى الصنع الجميل أشـبه بكرسى كبير عليها أنواع عدة من المصنوعات الدقيقة مرتبة ترتيبا جميلا وهـذا وحـده يكفى لبيان مقدار اعتناء عائلة ذلك الفاعل بمنزلها ولا يغيبنّ عن الذهن اننا نصف بيت فاعل من فعلة الزراعة . ثم دخلنا أودة النوم فاذا فيها سرير من الحـديد له أكر من النحاس لماعة من النظافة وبجانبه صندوق ذو أدراج « كومودينه » وفى مقابله مجلس « كنبـه » ثم مائدة النظافة « تواليت » عليها احقاق من الورق وزجاجة المياه المختلفة الالوان مصفوفة على أكمل نظام وهـذا يدل على ميل أولئك البسطاء الى الاشياء الجميلة وحسن الترتيب وتنظيم المـأوى لـكل الناس من هذه الطبقة مثل هذا الاهتمام لانه يوجد على مقربة

من العزبة معدن فحم وقد شاهدت اغلب بيوت الفحامين على هذا المثال من بستان صغير أمام المسكن ومدخل نظيف وستارات بيض أو ذات الوان جميلة مختلفة فوق النوافذ وغير ذلك ومع هذا فقد شاهدت بعض محلات الفعلة محفوفة بمنازل قذرة مهملة وكل مايرى فى الداخل يدل على هيئة رديئة والاطفال يروحون ويغدون حفاة الاقدام بملابس رثة خشنة وقد سألت مدير المصنع عن هذا التفاوت فقال لى « ان الفعلة الارلنديين لا يهتمون بنظافة البيوت وموجبات الراحة فيها لذلك يعطون المساكن العتيقة اجرة زهيدة وهى كافية لحاجاتهم اما البيوت الجديدة فقد بنيت للفعلة الا يقوسيين الذين يعتنون بها ويزينونها بما يصل اليه الامكان » وقد أكد لى ذلك صاحب العزبة وانهُ يستعمل الايرلنديين فى زمن الحصاد على الخصوص ويعطيهم منازل يسكنونها كيف كانت لان السكنى لا تهمهم

ومن هنا يتبين الفرق بين النشأة الاستقلالية التى هى نشأة الانكليز السكسونيين وبين النشأة الاتكالية التى هى نشأة الايرلنديين فيما يتعلق باستعداد كل فريق منهما الى نظام المعيشة وحسن الترتيب فى المسكن وهو فرق محسوس تأكدت منهُ فى زيارتى بعد أيام قلائل لاحد صناع الآلات الميكانيكية ببلدة « ينكويك »

ذهبنا فى الساعة الخامسة بعد الظهر لتناول الشاى عند ذلك الصانع فوجدناهُ يسكن بيتا هو ملكه وهو طبقتان ارضية وعلوية وقدم لنا الشاى فى اودة معدة للاكل والاستقبال معاً وفيها مجلس « كنبه » وآلة موسيقى « بيانو » وبساط يستر اغلبها وفوقه بساط اصغر منه واقل ثمناً لحمايته مما يدل على

ان سيدة البيت ذات اعتناء به وبنظافته اما الشاى فقد تناولناه على مائدة مربعة فى آنية تكاد ان تكون من الزخارف فغطاء المائدة من نسيج التيل الدقيق والاكواب من الخزف الجميل وخمسة أطباق أو ستة ملأى بانواع الافطرة وعيش مقدد مدهون بالزبدة . ولما شربت أول مرة طلب منى أن أثنى فرضيت واذا بهم غسلوا كوبتي قبل أن يصبوا الشاى فيهامن جديد وأودعوا الماء صحفة موجودة فوق المائدة لهذا الغرض بعينه . ولا أظن أنى مخطئ اذا قلت أن الفرنساويين يكتفون غالبا بان يصبوا الشاى مرة ثانية لضيفهم من غير زيادة احتفاء واحتفال . وعلى كل حال فهذا هو الذى أعلمه عن بلدى ومن جاورنى . والخلاصة أن ذلك العامل البسيط يتأنق فى تناول الشاى وتقديمه تأنقا لوأدخل فى كثير من بيوتنا لعد تقدما

ثم سألت صاحب العزبة عن أجرة الرجل عنده فاجابنى خمسةوتسعون فرنكا فى كل شهر ومسكن وبستان للخضر تبلغ مساحته « اكرين » ونصيب من البطاطس كبير وهذا هو الايراد الذين تمكن به أولئك الفعلة من تحصيل العيش بالكيفية التى شرحناها لان نساءهم لا يشتغلن فى الخارج الا قليلا ولم يقم دليل على أن النظافة وحسن نظام المنزل تقتضى من النفقات اكثر من اختلال الحال والوساخة والاضطجاع على المكاسل فى القهاوى والحانات

وليلاحظ أيضا أن العامل الانكليزي لا يقتصد الا قليلا بخلاف رفيقه الفرنساوى فالاول ينفق ما يكسب كله تقريبا واعتماده فى تحصيل عيش أوسع انما هو على مايرجوه من زيادة الراتب بانتقاله من درجة الى

أرفع منها لا على ما يدخره من اجره اليومي . وله فى الواقع فراسة وحذق فى الارتقاء فلا يضيع فرصة الترقى متى سنحت وهذا هو السبب فى أنه لا لايحجم عن التغرّب ولا يخاف الهجرة عن بلده اذا رأى الضرورة القائمة كما يدل عليه عدد الذين يهاجرون الي جميع الاقطار من الانكليز السكسونيين وهمه بمستقبله ليس الا فى ادخار بعض الشيء لارملته بعد وفاته لذلك يميل الانكليز الى التأمين على الحياة كثيراً وهذا هو السر فى انتشار شركات التأمين المذكورة فى انكلترا والولايات المتحدة انتشاراً كبيراً

وفيما تقدم برهان جديد على مالا صحاب هذه النشأة من الاستعداد للتقدم والترقي

واهم منه أن الرجل فى هذه البلاد مهما صغر وكان حقيراً يعيش عيشة أحسن من معيشة اهل القارة الاوروباوية وفى راحة من حيث نظام البيت أوفى وفى كرامة كما يقول الانكليز أوفر وبالجملة فانه لا ينقص عامل هذه البلاد فى الريف او الحضر الا يسير جداً ليصبح فى الظاهر بل ويجوز أن يصبح فى الحقيقة أيضاً من ذوى الحيثيات الذين عرفوا النعمة منذ نعومة الاظفار فبذور التنعم مغروسة عنده وحالته فى الظاهر تدل على ميله اليه وطمعه فيه لانه يفضل أن ينفق ليعيش فى سعة علي أن يقتر ويعيش شقيا

اما عندنا فالفضيلة الكبرى هي التوفير والادخار ولا تقدم لنا الا بالتقتير والحرمان لذلك يرضى الرجل منا بما يعافه الانكليزي فمرتبات موظفى الحكومة عندنا من كل الطبقات أدنى من مرتبات الانكليز ومع ذلك فكثير من الموظفين الفرنساويين يدخرون جانباً من مرتبهم الزهيد . لكن

الرجل من الانكليز سخى فى الانفاق على نفسه حتى يحصل أكبر حظ ميسور من العيش والرغد ثم يستغل مافاض عنده بنفسه

ولقد ظهرت فينا آثار تعودنا على التوفير والمعيشة مضيقة فلا نزال نحافظ على تلك العوائد ولو بلغ الواحد منا مبلغا من الثروة والمال ذلك لان العادة لاتزول فنكتفى ببيت له من النظام اليسير ونرضى بالزينة العرضية القليلة اللهمّ ان لم تفضل معيشة أهل « نورمانديه » الذين لايبتغون الخروج من تعاستهم مهما كسبوا

ان في طبقات العملة منا استعداداً لتحصيل المال بالاقتصاد والتوفير ولكنهم لااستعداد فيهم الي الارتقاء من حيث الأحوال الاجتماعية أى انهم لايذوقون حلاوة عيشة السعة الراضية ولا يدركون لذة نظام المنزل وكمال موجبات الراحة فيه

بعد الفراغ من قراءة الدرس ذات يوم ركبت مع بعضهم عربة وقصدنا زيارة عائلة تسكن في ضواحى ايدنبورج حيث أعد لنا طعام الظهر وكنت ميالا كثيراً لزيارة تلك العائلة لانها من قراء مجلة العلم الاجتماعى اذوجدتها فرصة أقف بها على تأثير تعاليمنا فى أذهان الانكليز . فلما قربنا من المنزل وجدناه مشيداً على مرتفع عظيم وقدجمع من الزخرف وحسن الترتيب شيئا كثيراً والعائلة تتألف من زوجين فى ريعان الشباب ووالد الزوج وثلاثة أولاد فيما أظن وكلهم يسكنون السنة بأكملها فى الخلاء على مسافة ستة كيلو مترات من ايدنبورج . وقد شاهدت في الطريق مساكن كثيرة قيل لى انها مسكونة على الدوام وسكن الخلاء على الدوام حتى فى الشتاء عادة من عادات الانكليز

فقد أخبرتني فتاة على وشك الزواج انها ستسكن الضاحية وان كانت أشغال زوجها تستدعيه كل يوم الى المدينة . ومما يدهشنا نحن الفرنساويين قولها انها ترى ذلك ألذ وأهنأ اذ يخلص الانسان من جميع القيود ويجد معدات الراحة ولوازم الرغد كاملة . وفي ظني ان الاستقلال ورغد المعيشة هما القطب الذي ترمي اليه أفكار الانكليز وتتجه نحوه أعمالهم كلها في هذه الدنيا لذلك تراهم يرتاحون في العزلة والاقتصار على ماقل من الأصحاب وفي ذلك للأمة من القوة مالا يخفى . ولما دنونا من المنزل قوبلنا بحفاوة واكرام اثرا عندي أي تأثير كانني كنت لهم صديقا عرفوا مبادئه ووافقوه عليها . والواقع ان العلم الاجتماعي لا يدخل أمخاخ الانكليز كما يعلق بأذهان الفرنساويين والفرق بين الامتين في ادراكه يرجع الى ان الفرنساوي يقرأه ليبحث فيه عن طريقة تنتظم بها أحوال المجتمع الانساني بأكمله وأما الانكليزي فانه يستهديه طريقة يسير هو عليها بين الناس وميل كل أمة يناسب نشأتها . فنحن أهل النشأة الاتكالية نصبو الى الافكار العمومية والانكليز أهل النشأة الاستقلالية يميلون الى الامور العملية المفيدة . هكذا فهم أهل الدار التي نحن فيها العلم الاجتماعي واتخذوا منه بابا للمعيشة وهم من أرباب الاملاك الواسعة أجروها لآخرين الى زمن ينتهي هذا العام وقد عولوا على عدم تجديد الايجار وان يتخذوا أرضهم مقاما لان الرجل يريد ان يدير أملاكه بنفسه . وحتى يأتي الاجل المعلوم تراه مشتغلا بالاستعداد وأخذ الاهبة بمزاولة العمل فيقضي يومه طول النهار في عزبة صديق يجاوره حيث يشاهد أعمال الزراعة ويتعرف طرقها والكتاب في يده والتطبيق بين يديه

على الطريقة الانكليزية التى هى المثلى . وقد شاهدت ان الانكليز حتى الذين يشتغلون بالتجارة والصناعة ويقضون نهارهم فى المدن أكثر استعدادا للزراعة من صناعنا وتجارنا فهم أقرب اليها منا ويستسهلون الدخول فيها عنا فقد أخبرنى أحد الاصدقاء موسيو « بياش » وكان يرافقنى انه زار أحد مستأجرى العزب فعلم انه كان وكيلا لاحد البيوت المالية فى ناحية وأصاب البيت جائحة فاقفل أبوابه وتخلى عنه ذلك الوكيل فاستأجر أرضا فسيحة وأقام فى فلاحتها . وانى لا أخالنى أجد كثيرا من أمثال هذا الرجل فى البلاد الفرنساوية .

وقد بحثت عن علة استعداد الانكليز الى الزراعة فوجدتها التربية التى تكاد ان تكون ريفية لكثرة مايوجد من الجنائن فى مساكنهم يضاف الى ذلك ماهو لازم لنشأتهم الاستقلالية من الشغف بمعرفة الأشياء التى تقع تحت نظرهم أكثر من حبهم فى معرفة الناس فيشبون على تعرف تلك الكائنات وتسهل عليهم عيشة الريف لمطابقتها أيضا لرغبتهم فى تحصيل رزقهم بأنفسهم فلا يبلغ الواحد منهم أبان الشباب الا وقد مارس غرس الاشجار وزرع البقول وتربية بعض الحيوانات المنزلية . كلّ ذلك يدركه الكثير من شبان الانكليز بمحض الفطرة من غير تعب ولا عناء وهذه معلومات لايحصلها عندنا الا الفلاحون ومن أقاموا على ادارة أموالهم بأنفسهم . وقد شاهد أحد زملائنا موسيو « بيرو » آثار هذه التربية بادية حتى فى مدارس المدن بالولايات المتحدة الامريكية عند ما ذهب اليها لغرض يتعلق بأبحاثنا الاجتماعية فرأى ان الاهتمام بالعلوم الطبيعية خصوصا

ما يتعلق منها بالنباتات والحيوانات هناك أكثر منه عندنا وانهم لا يقتصرون على تعليمها فى الدرس بل يقرنون العلم بالعمل والمشاهدات . وكثيرا ماتدور ابحاثهم على موضوع حى بين يديهم والمدرس يطلب من تلامذته أن يأتوه فى الدرس القابل بفرع من شجرة أو ورقة ليلقى عليهم الدرس بمشاهدتها حتى يكون ادراكهم للشئ حاصلا بواسطة ذلك الشئ المأخوذ من مكانه الطبيعى . وظاهر ان هذه طريقة اثبت فى التعليم وأبقى للعلم فى الاذهان فيسأل التلميذ عن المكان الذى تنال منه الشئ والارض التى كان موجوداً بها وعما اذا كان لاحظ نموهُ وأمعن النظر فى شكلهِ وهيئتهِ وغير ذلك

ومن المعلوم ان هذا التعليم غير ميسور الا اذا سكن التلامذة أو بعضهم فى الخلاء أو كانوا به متصلين كأن يكون فى مدارسهم أو على مقربة منها بساتين يأخذون منها ما يحتاجون اليه فى درسهم

لاحظ « تاين » فى الانكليز هذا الاستعداد لمزاولة أعمال الزراعة والميل الى المعيشة فى الارياف واذكر عنه انه كتب فى بعض مؤلفاته ان الزراعة من المسائل التى تجرى المسامرة فيها فى البيوت بين المجتمعين من أهل وزوّار حيث يدور البحث على طرق اصلاح الاراضى ويسرى الحديث الى الجزئيات والاستشهاد بالامثلة وكل واحد من الناس يميل الى هذا الحديث وللنساء فيه حظ الرجال

وعليه فلا يستغرب ان زوجة صاحبنا الذى أشرنا اليه تكون مستعدة بكمال الرضاء الى مصاحبته فى سكنى أراضيه التى يريد أن يتولى ادارتها بنفسه وقد حادثتنى فى هذا الموضوع مليا فرأيت منها العزيمة صادقة وانها عولت

على ما عزمت بروية بعد ان احاطت باطرافه وتبينت وجهى الضرر والنفع منه . ولو ان فى زوجها ترددا لوجد منها مساعداً لهمته ومعينا له فى مهمته . ولا شك فى ان معونة المرأة للرجل مما يشد أزره ويزيده قوة واقداما . وانى أعرف كثيرا من أصدقائى فى فرنسا يودون أن يتولوا ادارة أطيانهم بأنفسهم لقلة المستأجرين ولكنهم لا يستطيعون ذلك لاباء نسائهم مرافقتهم فالمرأة الفرنساوية أبعد عن معيشة الريف من الرجل ويشق عليها أكثر منه أن تتخلى عن صاحباتها وزياراتها والاجتماعات التى اعتادتها وربما كانت هى حجر العثرة الوحيد فى طريق تقدم زراعتنا وصناعتنا وتجارتنا بما ارتكز فى ذهنها من الوهم بان تلك حرف دنيئة لذلك يتزوج الرجل أحسن زواج أى اغنى امرأة « وبين الاول والثانى فرق بعيد » اذا كان فى الجيش أو موظفا فى الحكومة ويقال ان للرؤساء الروحانيين تأثيرا على النساء ولكنى أود أن لا يكون ذلك كذلك حفظا لشرفهم واستبقاء لحسن السمعة عنهم

لم يكن عندى درس يومي السبت والاحد لانهما يوما عطلة فى انكلترة فمن ظهر السبت تقف حركة الأعمال وتقفل المعامل والحوانيت الى صبيحة يوم الاثنين . ورُب سفسطائى يجول بخاطره ان الانكليز هم أكثر الامم عملا واقلهم عملا والواقع انه لا نظير للانكليزى فى قدرته على العمل ولا فى قدرته على الاستراحة منه لانه يعمل أكثر ما يمكن فى أقل ما يمكن من الزمن ليستريح ما امكن وقد شاهدت فى لندره ان بعض المخازن لا تفتح قبل الساعة التاسعة صباحا ثم هي تقفل فى المساء مبكراً أكثر من عندنا وكذلك شأن المصالح ودوائر الاعمال . والخلاصة ان يوم العمل الصحيح

أقصر عند الانكليز منه عندنا . ومن هنا سهل على الانكليزى ان يذهب
كل يوم الى بيته فى ضواحى المدينة وان يعود فى الصباح لانه لا يسكن
حيث يشتغل كما قدمت الا نادرا . وقد أكد لى بعضهم ان كثيرا من
أرباب الحوانيت في ايدنبورج يسكنون الخلاء ويقطعون كل يوم صباح مساء
مسافة كبيرة . أما عندنا فالاكثرون يسكنون خلف محال تجارتهم أو فوقها
لذلك يسهل عليهم ان يفتحوا أبواب أشغالهم مبكرين ويقفلوها متأخرين
ثم ان كثيراً منهم لا يعطلون يوم الأحد وما من أحد يستريح يوم السبت
بعد الظهر أبداً . ولو اقتصر المتأمل على هذه الحال لقال ان الفرنساوى
أكثر عملاً من الانكليزى غير انه لا ينبغى الوقوف عند عدد ساعات العمل
بل الواجب زنتها وزنة عمل الانكليزى أكبر بكثير فهو يعمل كثيراً فى وقت
يسير ولا يكاد يستريح هنيهة يتناول فيها شيئا من الطعام وسط النهار وقد
يتناوله وهو على قدميه من دون ان يتخلى عن العمل

انتهزت فرصة الفراغ صبيحة يوم السبت وذهبت لزيارة أحد مناجم
الفحم على مقربة من مدينة « هاوترندين » وهناك تعرفت بابن عم مدير
المنجم وهو شاب انكليزى يشتغل بتجارة الأغنام فى زيلانده الجديدة
ويأتى فى كل سنتين مرة ليقضى شهرين فى انكلتره وهو راض عن حالته فى
تلك البلاد وقد اختارها مقاما أبديا وقال لى « هناك الحياة الحقيقية » فسألته
عن موجب اعجابه بها فقال « الاستقلال » وهو برهان جديد على ان محبة
الاستقلال هى التى تحرك الانكليزى وتدفعه الى العمل فى جميع الأحوال
ومهما قلبنا أحوالهم وبحثنا فى عوائدهم . وأخلاقهم وسبرنا غور مقاصدهم

ومراميهم لا نهتد الى نتيجة غير انهم يحبون الاستقلال . سألته عن أنجح الطرق للمعيشة فى تلك البلاد فقال « ان يبتدئ الانسان كعامل بسيط يرعى الاغنام » هكذا بدأ ذلك الشاب ولا تنس ان عائلته من خيار العائلات الوسطى غير ان الانكليزى لا يحتقر من الصنائع الا ماقل كسبها لكن رعاية الأغنام كثيرة الفوائد لأنها أحسن وسيلة تمكن صاحبها من معرفة أحوال البلاد التى نزل بها ومن الوقوف على جميع مايلزم للاتجار بالأغنام وأكبر صعوبة على النفس فيها وجود الانسان مع قوم خشنت طباعهم غير مثقفين . قال صاحبنا (ولكن اذا كان الرجل ممن حسنت تربيته لا يلبث ان يصير محل احترام أولئك القوم على ان من السهل اجتناب رذائلهم بالسكنى بعيداً عنهم » فاذا تم الاختبار وكمل العلم بحاجات الصنعة التى اختارها أقدم على شراء قطيع من الغنم أما اذا أراد القادم فى تلك البلاد ان يبدأ بالتجارة مباشرة فانه يصبح العوبة فى أيدى السماسرة فيقع فى أرض قليلة الانتاج وماشية معدومة النتاج . وفى ظنى ان شباننا لا يرضون أن يبدأوا فى العمل على هذا المثال على انه المثال الأقوم وبه ينجح الكثير من شبان الانكليز السكسونيين

وجهت العناية الى زيارة كثير من المنازل الخلوية فكنت أذهب اليها كل يوم بعد الظهر وأول ماتأثرت به كون تلك العائلات قد اتخذت الريف مقاما أصليا يدل عليه ما يشاهده الزائر لتلك المنازل من كثرة الصور التى تمثل أفراد العائلة والمقتنيات الفنية الثمينة وقد يحتوي بعض هاتيك القصور على مدخرات تتفاخر بها المدائن الكبيرة لو كانت فى دار تحفها ومع ذلك

اتصل بى ان بعض تلك العائلات أصبحت فى حالة عسر اضطرتها الى بيع أرضها ومنها صاحبة قصر وبستان كنت أزورها وهى من أشراف ايقوسيا الاقدمين من سلالة « السلتيين » ومن الاستقصاء علمت انها تقلبت فى أدوار الحياة كتقلبات الشرفاء فى فرنسا بمعنى انها ابتعدت عن مزاولة الاعمال وما حفظت مقامها بين اترابها الا بانتقال ثروتها من الارشد الى الارشد وكثيرا ما كان التوارث يحصل بطريق الايصاء مما يشبه الوقف ومع هذه الحياطة قد اخنى الزمان على الكثير من تلك العائلات وأمست يحدق بها الزوال والاندثار

ولا غرابة فى هذا فان طبقة أشراف الانكليز ليست فى الحقيقة من نتائج الاجتماع الانكليزى السكسونى لأن الجمعيات الاستقلالية لا تلد مثل الطبقة المذكورة فلا يجد الباحث فى أحوال الامم طبقة ممتازة يتوارث شرفها من الخلف الى السلف فى البلاد التى نشأ فيها رجل الاستقلال بعيداً عن المؤثرات الاجنبية أى على حالته الاصلية . هكذا الحال فى بلاد « نرويج » وفى بعض جهات السكسون المسماة « بلين » حيث يشاهد الزارع السكسونى على ما كان عليه منذ القدم بدون أن يختلط به غيره . كذلك لا تجد أثراً لطبقة الاشراف الوراثية فى البلاد الجديدة التى يسود فيها الآن العنصر الانكليزى السكسونى فلا أثر لها فى الولايات المتحدة ولا فى أوستراليا ولا فى زيلانده الجديدة وغيرها . ولا غرابة فى هذا لان طبيعة ذلك الجنس لا تقتضى ذاك الوجود . والذى يميز النشأة الاستقلالية عن غيرها من المجتمعات الانسانية هو قيام كل ولد مستقلاً بنفسه على ما أودع فى شخصه

من القوة والاقتدار من دون معونة الذين تربى فى حجورهم وهى الحالة التى يعبر عنها الانكليز بقولهم « مساعدة المرء لنفسه » و « التزاحم فى الحياة » ومن المحقق ان طبقة اشراف الانكليز وما يتبعها من حقوق الارشدية والايصاء بانتقال الملكية من الوالد الى الولد آتية من مبدأ يخالف ما تقدم فهى أثر من آثار الجمعيات الاتكالية القائمة على قاعدة مساعدة العائلة لابنها مما ينزل بهمته الى الحد الادنى ويكفيه مؤنة مساعدته لنفسه ومزاحمته فى الحياة . فارشد العائلة الشريفة فى بلاد الانكليز ينشأ كما ينشأ أهل جمعية الاتكال

دخلت طبقة الاشراف الوراثية بلاد انكلترة مع « النورماند » الذين وفدوا عليها بقيادة غليوم الفاتح ونحن نعلم ان الفاتحين من النورماند هم من أمم الاتكال تجمعوا من كل الجهات طمعا فى الغنائم وأخصهم من فاسدى الطباع ومن لا خلاق لهم ولا أرض يطمئنون فيها . والتاريخ يدلنا دلالة واضحة على كيفية احتشاد تلك الجنود ويبين لنا بيانا كافيا كيف نزلوا الى بلاد الانكليز وانهم انفرطوا بين أهلها وقاسموهم أرضهم فاختصوا باحاسنها ولكنهم لم يطمئنوا اليها كاطمئنان السكسونيين أو المهاجرين من أهل الامم الاستقلالية . واستمر السكسونى المغلوب يزرع الارض لمنفعة النورماند والنزاع القائم بين الفريقين انما هو نزاع بين جمعيتين من نشأتين مختلفتين كل الاختلاف

وبقدر ابتعاد النورماند عن الاطمئنان الى الارض ومزاولة أعمالها تمسكوا كل التمسك بما يرجع الى نشأتهم الاتكالية وهو الشرف الوراثى

الذي ينتقل من الوالد الى الولد وأقاموا على ما أوجدوا من ذلك الى يومنا هذا فأضروا كثيرا مدى قرون عدة بالعنصر الانكليزى السكسونى أو الاستقلالى فى انكلتره . وليس من مطلبي ان أبين في هذا الكتاب كيف انتهى الحال باجتياز الانكليزى تلك العقبات وتغلبه على هاتيك العوائق التي قيدته أزمانا طوالا وصيرورته صاحب المقام الأول بما أودع فيه من القدرة على المقاومة والاحتمال والحياة التي تفوق حياة غالبة كثيراً ولكنى أشاهد ان من نتائج نصره حصر السلطة الملوكية فى أضيق دوائرها فمن المعلوم ان الانكليز انتهوا بتأسيس نظامهم على ان تحكم الامة نفسها بنفسها وذلك من خصوصيات النشأة الاستقلالية . وكان وصولهم الى هذه الغاية فى الزمن الذى استولت فيه النشأة الاتكالية على ازمة الامة الفرنساوية فافضي أمرها الى سيطرة لويز الرابع عشر واستبداده المطلق فى حكومتها

غير ان الانكليز لم يتخلصوا من جميع آثار النورماند فيهم بل بقى لهم منها طبقة الاشراف الوراثية واكتفوا فى ابادتها بأن قللوا من شأنها وجعلوها كالملوكية اسمية لافعلية مع بعض الامتيازات السياسية كوجود قسم من افرادها فى مجلس اللوردات ولم يناضلوها على هذا الامتياز لانهم وجدوا مزاياه راجحة على مضاره حتى الآن . وبيانه ان الانكليزى وأعنى به القسم السائد من الانكليز ذا النشأة الاستقلالية ميال بالطبع الى الصنائع والحرف لما قدمناه من احتياج الشبان الى تحصيل مرتزقهم بأنفسهم من دون التفات الى ثروة آبائهم أو انتظار مهور نسائهم وبما أودع فيهم منذ طفوليتهم من محبة العمل والاقدام عليه سداً لتلك الحاجة التي يعرفونها ومن وقف على

حقيقة هذا الميل وضحت له الفائدة التي يراها الانكليز فى طبقة الاشراف التي وجدت بينهم بالقهر عنهم : يرون فيها وسيلة سهلة ترضى به نفوسهم وتروق فى نظر الغير لأداء وظيفة لا بد منها وهى السياسة التى هم لا يميلون اليها ميلا خصوصيا . ومن المحقق ان طبقة الاشراف أوجدت لهم مجموع رجال سياسيين من أرفع السواس مقاما وزد على ذلك ان دوام مصادمة التربية الاستقلالية التي هى أصل فى السكسونى للشرفاء خفف من ثقل وطأتهم كثيرا وعلى الأخص منذ قرون من الزمان

أثرت النشأة الاستقلالية فى الاشراف من جهتين

الاولى انها انتشلت الولد الثانى من البطالة وأبعدته عن خدمة البلاط وحولته عن وظائف الحكومة والجيش وهذه الوظائف هى التى كانت عندنا الملجأ الوحيد لاولئك الابناء وادت بهم شيئا فشيئا الى الاضمحلال وفقد القدرة على العمل هم والارشدون سواء فانحدر ذلك الولد مع تيار الحياة الجديدة حيث يقوم الرجل فيها بأمر نفسه مما هو خاص بالنشأة الاستقلالية . لذلك اذا انقرض نسل الارشد ووقع المال الى أحد أولئك الابناء الثوانى رأيته يدخل فى صف الشرفاء وقد تربى تربية متينة واكتسب خبرة وهمة لم تكن لغيره ممن لم يعش معيشته ولم يعرف شيئا من الحرف التي ترجع الى الزراعة والصناعة والتجارة فهم يجددون حياة تلك الطبقة آنا فآنا ولولاهم لانحلت وأصبحت عفاء . ومن موجبات حياتها أيضا ما يضاف اليها من الرجال السكسوني الاصل الذين ترفع الحكومة رتبتهم وتنعم عليهم بالقاب اللوردات وما يماثلها

الثانية أنها ما زالت بالاشراف كما فعلت بالملوكية حتى انتزعت من نفوسهم كل طموح الى العبث بحرية الافراد واستقلالهم. ذلك لأن رجل الاستقلال لا يهتم بالسياسة اهتمام رجل الاتكال بها ولا أن يعيش منها مثله ولكنهُ شديد الحرص على استقلاله وخلاصهِ من كل قيد يعيقه فى عمله الذاتى لاحتياجهِ اليه فى تحصيل مرتزقه فلا يطيق ما يعيق زراعتهُ أو يعطل صناعتهُ أو يضر بتجارته ولا يقبل أن تضايقهُ الحكومة باستبدادها ولا أن تثقل عليه ضرائبها ونتيجة تلك الحال ميلهُ الدائم الى جعل الحكومة قاصرة على وظيفتها الضرورية وهى حفظ الامن العام اللازم لكل واحد فى عمله . أما نتيجة حال الامم الاتكالية فهي بضد ذلك. الاخلال بالأمن العام بقدر الامكان والناس يعملون لذلك جهدهم رجاء مايسرون فى نفوسهم اذا تغلب حزبهم من نيل الوظائف ذات الرواتب الوافرة لهم أولا بنائهم اذ الثابت فى الاذهان ان أحسن العيش ما كان ثمنه من أموال الامة التى تجمعها الحكومة فى خزائنها وليس لما أحدثنا من القلاقل وما أضرمناه من نار الثورات والفتن المتعددة التى لا يزال أهل أمريكا الجنوبية يستخدمونها فى كل يوم سبب غير ما تقدم

هكذا كان تعود الامة الانكليزية على حكومة نفسها بنفسها مقللا لامتيازات الشرفاء منهم وهم الذين كان يخشى من ثقل وطأتهم وصيرورتهم ممقوتين بسببها

ومع أن طبقة الاشراف الوراثية طارئة على انكلترا فانها أضرت برجلها الاصلى وغيرت منه كثيراً واذا قابلنا بين منافعها وأضرارها وجدنا الثانية

هي الراجحة

مدار النشأة الاستقلالية على أن الرجـل لاقيمة له الا بنفسه وقدرته على العمل وهمته ومثابرته ولا فرق بين الناس وبعضهم الا بمـا كان راجعاً الى تلك الصفات ودخول طبقة رفيعة المقام بمقتضى الوراثة والتناسل قد أوجد بجانب هذا الاصل فـكرا آخر اتكاليا مادته ان الرجل ليس شيئاً بنفسه بل قيمته تأتيه من عائلته وعشيرته وحزبه الذى ينتمى اليه وظاهر ان هذا تغيير عظيم كما أشرت اليـه لانه يغير مثال الامة فى أصـله ونحن أهل القارة لانشمئز كثيرا من هـذا الفـكر لاننا ربينا كلنـا فى فـكرة الاتكال على اختلاف فى قوة تأثيرها عنـد كل فرد بذاته ولذلك نرى تقسيم الناس الى طبقات بحسب النسل والعشائر أمراً طبيعياً . الا أن الامر ليس واحدا فى انكلترا لا سيما عنـد مجموع الامة حيث النشأة الاسـتقلالية ثابتة الدعائم فى الاذهان وكثيرا ماشاهدت هـذا الشعور عندهم وهو ظاهر فى كتاب ألفه مسـيو (شاكيرى) وسماه (كتاب المستشرفين) فى التنديد على الذين يحبون الشرف ويميلون اليه . والمستشرف هو الذى يعجب بالامراء ويقلدهم فيما يفعلون وما يقولون ويتخذ كل وسيلة للتحكك فيهم والالتصاق بهم ولا ينظر فى أحوال الناس ويحكم على أعمالهـم برأيه ونظره بل بمـا يراه أولئك الامراء الذين جعلوا لهم حياة على حـدة . قال المؤلف « لقد يسـتغرب الانسان من انتشار اللوردية والاهمية التى صارت لها فى هذه البلاد وكيف يصح فى بلدنا التى يقال لها حرة أن تعبـد رتبـة الآباء (اللوردية) حتى لم يبق فينا واحد لم ينخدع بخيـلائها ولم ينبطح على بطنه اجلالا لها وتعظيما

وفى ظنى ان تأثير الشرفاء على المستشرفين كان تأثيرا عظيما فبقاء هؤلاء وانتشارهم فضل من فضائل الاشراف التى نحمدهم عليها » وليلاحظ ان الكاتب كان يقول ذلك سنة ١٨٤٨ أيام كان صوت الاشراف رفيعا وقولهم مسموعا ثم أخذ المؤلف يذكر فلانا وفلانا ممن غرتهم الظواهر فاستشرفوا وجعل يصفهم بصفات يهرب العاقل منها

واعلم بان الاستشراف منتشر فى فرنسا كانتشاره فى انكلترا فما منا الا من يحب الاشراف ويصبو الى الشرف غير ان الفرق بيننا وبينهم ان حالتنا طبيعية ترجع الى نشأتنا الاتكالية بخلا فها عند الانكليز فانها عرضية دخيلة في بلادهم مناقضة لنشأة العنصر السائد فيها ولذلك يرجى حصول التغيير متى قويت النشأة الاصلية وتغلبت على الدخلاء وهذا هو ما يجرى اليوم فى تلك البلاد اذ من المحقق ان تأثير الشرفاء يضعف يوما فيوما وهو الآن أقل بكثير منه فى زمن « شاكيرى » على قربه منا ويخال ان مركزهم أصبح متزعزعا بدليل انحطاط سلطة مجلس اللوردات شيئا فشيئا حتى انتهى الناس فبحثوا جهاراً في وجوب الغائه ومما لاشك فيه ان الغاءه لا يحدث تغييرا البتة في نظام الأمة الانكليزية لانه من الاصل أمر زائد فى ذلك النظام

على ان انكلترا لن تعدم بفقد اللوردات وجود طبقة رفعية لان العنصر الاستقلالى يلد هذه الطبقة وان كان التكوين مختلفا وتلك الطبقة موجودة فعلا فى بلاد الانكليز ومنتشرة بين أهلها وهى طبقة المهذبين . والفرق بين المهذب وبين اللورد أو الشريف ان منزلة الاول ليست وراثية بل هى

ذاتية كسبية ولا دخل للحكومة فى اقرارها وانما الناس يعرفونها لمن أصبح جديرا بها ويقال اليوم عندهم فلان مهذب أو غير مهذب يراد بذلك ان له من حميد الصفات وجميل الاخلاق مجموعا يعسر التعريف عنه وربما جمعها الانكليز فى كلمة «الكرامة» أو «الوقار» . والمهذب موجود فى جميع الحرف وجميع الصنايع ما علا منها وما اتضع كما ان الناس لا يطلقون هذا اللقب على رجل كريم الحسب اذا بدا من أطواره مالا ينطبق على موجبات الكرامة والوقار . فالمهذب هو مثال أعلى طبقات السكسونى كما ان اللورد أو الامير مثال أعلى طبقات النورماند

وهناك سبب آخر يساعد انكلترا على التخلص من شر الاستشراف ذلك ان الرجل عندنا يصبح فى صف العظماء معدودا من الامراء متى احترف ببعض الحرف وابتعد عن البعض الآخر فنحن كالهنود فى تعدد الطبقات والمراتب . نقول ان من الحرف الشريفة والوضيعة والاولى هى الجندية ووظائف الحكومة والاشتغال بالآداب كالكتاب . والثانية هى الصناعة والتجارة وزد عليها الزراعة لانها تركب بالفعل واختص بمزاولتها المستأجرون والمساقون والوكلاء والنظار . ولسنا نشاهد شابا من أهل الحسب يسعى فى الاستعمار باى جهة كانت . هكذا قوى عندنا التفريق بين طبقات الامة لتشريفنا بعض الصنائع وتحقيرنا البعض وليس الاستشراف الا نتيجة ذلك التمييز . لكن لا وجود لهذا التمييز عند الانكليز السكسونيين أو انه ينمحى شيئاً فشيئا . ففى الولايات المتحدة حيث يوجد العنصر الاستقلالى خالصا من العوائق التى تكتنفه فى انكلترا لا يشعر الانسان بوجود فرق

بين صنعة وأخرى ويحس بان اعتبار كل انسان راجع الى قيمته الذاتية وهمته وثباته واقدامه . والحال سائر الى هذه الغاية بعينها فى انكلترا وكله نتيجة اتساع نطاق الصنائع والحرف الجارية بتأسيس المعامل الكبيرة وتسهيل طرق النقل بعد اكتشاف الفحم واستعماله . وهذه النهضة الجديدة التى دوخت الجمعيات الاتكالية شدت عزائم الجمعيات الاستقلالية لاستعدادها لقبولها فبعد ان انزوت انكلترا وقتا طويلا بما طرأ عليها من تقاليد فاتحى النورماند ونظاماتهم قامت اليوم تنشط من قيودها وتمالك قواها وترجع شيئاً فشيئا الى نظامها الانكليزى السكسونى ونشأتها الاستقلالية ولن يعيق نهوضها هذا عائق من بعد . واذا أردت أن تقف على نهاية تلك النهضة فانظر الى البلاد الامريكية وأعنى بها الولايات المتحدة حيث العنصر الانكليزى يرجع الى نشأته الخالصة ويسترد ما لاصله من القوة والصفاء مستعينا بما هيء له من فسيح الاقطار التى يبسط فيها همته وبما أتيح له من عدم وجود طبقة أشراف وراثية فى أمته كالتى أوجدها التغلب فى البلاد الانكليزية

الفصل الرابع

﴿ فى ان طريقة المعيشة المنزلية تساعد على نجاح ﴾
﴿ الانكليز السكسونيين ﴾

أكبر العقبات فى سبيل ترقية الافراد والهيئة الاجتماعية هى معرفة

الغاية التي يجب أن تقصد والوسيلة التي تؤدي اليها فلا فائدة في معرفة الغاية ان جهل سبيلها وكثيرا ماجاءت النتائج على عكس المراد للجهل بالطريق الواجب اتخاذه أولعدم العلم به كما ينبغي . وفي بيان مبدأ هذا الطريق والدلالة على أول مرحلة منه هدى للقراء الى الطريق المستقيم

لقد كان من أكبر همي كلما أقمت في بلاد الانكليز ان أبحث في انتقال الرجل من حال الى حال آخر وكان موضع البحث ملائما له كل الملائمة لانه لايوجد فوق البسيطة بلد اجتمعت فيه اشكال رجل الاستقلال مع اشكال رجل الاتكال مثل انكلترا فهي مجمع اشكال من الناس كبير . وقد يوجد هذا الاجتماع في الولايات المتحدة الا ان البحث فيها أصعب بكثير لان الاشكال الموجودة في تلك البلاد غير مقيمة في الوسط الذي نشأت فيه أصلا فسكان أمريكا لفيف جمع اليها من كافة البلاد الاوروبية بحيث يتعذر الآن بيان بلد كل فريق منهم ثم انتقال أولئك القوم من حال الى حال حاصل في بلاد جديدة ولا يزالون سائرين الى نشأة اجتماعية قد استولت عليهم فصاروا فيها كالمعلقين بين أصلهم القديم ووطنهم الجديد

اما النازلون في البلاد الانكليزية فانهم قصدوها من زمن بعيد فترى عنصر « السلت النورماند » وعنصر الانكليز السكسونيين مستقرين في حالة طبيعية تسهل على الباحث ما يريد من النظر في أحوالهم اذ يجد جميع اشكال الاجناس حاضرة من السلت الهجلنديين في ايقوسيا وارلنده الذين لم يدخلهم دخيل الى السكسوني الحقيقي الساكن في الجنوب أو الوسط . وبين هذا وذاك اشكال متوسطة شتى . ومن أكبر الفوائد أن يتسنى تقسيم

جميع تلك الاشكال الى فرق ممتازة عن بعضها ليقف الانسان على كيفية انتقال السلتي الاتكالى من حالته الاولى حتى صار سكسونيا استقلاليا . وبريطانيا العظمى أشبه ببودقة عظيمة تتحلل فيها على الدوام عناصر هيئتها الاجتماعية فيستحيل السلتي الى سكسونى خاضعا فى استحالته الى سنة ما تزاحم عنصران من عناصر الاجتماع الا تغلب القوى منهما وحمل الضعيف على التشبه به ولا مشاحة فى ان أقوى العنصرين هنا هو السكسوني . ثبت اذن ان انكلترا هى أحسن بلد يجد فيها الباحث أول مرحلة من مراحل تحول الاشكال نحو الاستقلال ويقف على مبدأ انتقال السلتي الى سكسونى بوجه خاص وعلى أول خطوة يخطوها الاتكالى نحو الاستقلالى بوجه عام حتى يبلغ أرقى درجاته ويصل الى آخر شكل من اشكاله

ولست اخشى الزلل اذا قلت ان أول درجات ذلك الانتقال هى كيفية الاقامة فى المسكن

جال بخاطرى هذا الرأى أول مرة عند ما كنت فى ايدنبورج وانتهزت الفرصة لزيارة منجم الفحم والعزبة القريبة من تلك المدينة كما أشرت اليه فى الفصل السابق وقد بينت هناك الفرق الظاهر بين مساكن الفعلة الايقوسيين من « اللولاند » ومساكن السلتيين أو الارلنديين . فالاولى نظيفة في غاية الاعتناء والثانية قذرة فى غاية الاهمال . وهذا الفرق هو الذى وجه فكرتى الى اهمية المسكن من حيث انتقال الرجل من حال الى حال وهو هنا فى الواقع أول خطوة فى هذا السبيل لان الفعلة الايقوسيين من « اللولاند » هم فى الاصل من أهل النشأة الاتكالية وأول شيء يمتازون به

عن الاتكاليين الارلنديين أو الهجلنديين هو اهتمامهم الزائد بتحسين مسكنهم فهم من أولئك الاستقلاليين الذين لا يزالون فى مبدأ انتقالهم ولكنهم صاروا في حالة لا بد معها من صيرورتهم استقلاليين كاملين أو ما يقرب من ذلك وكيفية سكناهم هى التى تميزهم عن غيرهم ومن هنا استنتجت ان الانتقال فى حالة المسكن هو أول شخوص المرء نحو الانتقال الى حالة الاستقلال

دل كثير من الاقتصاديين وعلماء الاجتماع ومحبي الانسانية على اهمية المسكن وفى مقدمتهم موسيو «لابلى» فانه كشف القناع عن تلك الاهمية واستدل عليها بوقائع شتى . وكثيرا ما ذكر الباحثون من جملة أسباب تقدم الانسان وارتقاء العائلة والهيئة الاجتماعية استقرار المسكن وكونه ملكا لساكنه وانتقاله كما هو من الوالد لبنيه والواقع ان هذه المزايا الثلاث من أهم النظامات وقد تدل على درجة الامة التى توفرت فيها من التقدم والترقى الا انها لا تؤثر بشئ فى انتقال الاتكالى الى استقلالى وأكبر برهان على ذلك اننا نجد عند النشأتين على ما بينهما من الاختلاف مساكن مملوكة لاهلها مستقرة يتوارثها الخلف عن السلف ووجود تلك المزايا عند الامتين يدل على انها غير مؤثرة فى تكوين النشأة الاجتماعية . وقد يتفق ان الاعتناء بها يكون أشد عند بعض الامم الاتكالية منه عند بعض الامم الاستقلالية فمما لا شبهة فيه انه لا شئ فى الوجود أثبت من مساكن فلاحى الروس أو البلغاريين أو الصربيين فالمسكن الواحد ينتقل من الرجل لابنه ومن العائلة الى التي خلفتها عدة قرون وأجيال والمساكن فى فرنسا أكثر استقراراً

فى أقاليم «أوفرنيا» و«وسيفين» و«بيرنيه» و«الب» و«بروتانيا» ومعلوم أن أهل تلك الاقاليم هم أشد الناس محافظة على النشأة الاتكالية وربما كانوا أكثر من غيرهم اهتماما بامتلاك المساكن والاعتناء بها واستبقائها لخلفهم

ولبيان الفرق بين النشأتين من حيث المسكن يجب التمييز بين نظر كل واحدة منهما اليه . فالاتكالية تنظر الى المسكن من حيث هو وجود مادى والاستقلالية تنظر اليه من حيث هو أمر معنوى وهو تمييز لم يسبق لاحد الالتفات اليه وبدونه لا يمكن الوقوف على كيفية اعتبار المسكن عند كل واحدة من الهيئتين

يراد بالبيت عند الامم الاتكالية مجموع الاثاث والبناء والارض والناس من أهل وأحباب وجيران فالفكر متعلق على الدوام بالاشياء والناس والتعلق شديد لان من خصائص أهل الاتكال ان يعتمدوا على الاشياء والناس أكثر من اعتمادهم على انفسهم ومن أقوال أهل «اوفرنيا» و«بيرنيه» «يجب أن يكون للبيت دخان» وهم فى سبيل استبقاء دخانه يسترخصون كل ثمين فيرضى الاولاد الثوانى باقل من نصيبهم الشرعى ويعيش الاعمام والعمات غير متزوجين كي يتركوا للوارث الذى أوصى اليه المتوفى من السعة ما يمكنه من حفظ الغيط والدار وقد يكون لهم من ذلك ملجأ يستفيدون منه أحيانا . والخلاصة أن نظرهم الى البيت نظر الى المكان المخصوص . وهذا هو السر فى صعوبة تركه والابتعاد عنه كان أصحابه قد التصقوا بارضه والتحقوا بحيطانه . وهو أيضا السر فى حب أهل الريف لبيت أجدادهم ودار أهليهم ورغبتهم الشديدة فى صيانتها وتركها ارثا لمن يأتى بعدهم . هذا

هو نظرهم الى البيت من الجهات الثلاث استقراره وملكيته وتوارثه فهم يتعلقون به تعلق النبات المتسلق بالجدار العتيق وكانهم مثله يرتكنون على ذلك الوجود المادى . ومع هذا فان اقوام النشأة الاتكالية يسكنون ذلك البيت الموروث الذي خلفه لهم الاجداد والآباء على ابسط ما يكون من الاحوال وما من شيء يستوقف المتأمل مندهشاً في تلك البيوت أكثر من استقرارها وعدم الاستقرار فيها واعنى بذلك كيفية سكناها التي تكاد أن تكون على الفطرة الاولى

اذا دخلت بيت ريفي من الروس أو البلغار أو أهل « اوفرنيا » أو « البرينيه » أو « بروتانيا » أو « بروقانص » وسألته عن أصله أجابك في الغالب أن عائلته تسكنه جيلا بعد جيل من قرون ماضية وعلمت من هذا أن البيت مستقر اى استقرار ورأيته يحبه حبا لا مزيد عليه . ثم اذا نظرت الى كيف يسكنه رأيته اشبه بعائلة ما كادت تفرغ من حط رحالها اذ يقع بصرك على اثاث قد اهمل شأنه وعلى مطبخ قذر ومخدع وسخ قل فيهما الضوء وقد تكون الغرفة الواحدة مطبخا ومأكلا ومناما للعائلة كلها وقد يلاصقها الاصطبل فلا يفصل بينهما الا حاجز من الخشب تنبعث من خلاله الروائح الكريهة . هكذا تجد اولئك الذين احبوا بيتهم ذلك الحب كانهم لا يحبون ان يحسنوا سكناه . اولئك قوم لايحبون البيت من حيث هو ولكنهم يتعلقون به من حيث اعتمادهم عليه او طلبا للسمعة أو تظاهرا وتفاخراً فيتباهون بكونهم من سلالة تلك العائلة التى تقادم عهد سكناها فى البلاد وظلت تملك العين الواحدة السنين الطوال ولها قرابة مع عائلة كذا

التى استقرت منذ القدم حيث تقيم . أولئك قوم لايقتنون صندوقاً (دولاباً) لطيفا يملأونه بانواع الملابس الا للمفاخرة وبيان أنهم فى هناء أمام مجاوريهم والاجانب عن بلدهم . هذا هو شغلهم الشاغل لاتحسين مسكنهم وتنظيم اقامتهم فيه والخلاصة أن الرجل الاتكالى يعيش خارج بيته اكثر مما يعيش فيه ويحبه للتظاهر لا لنفسه . ويكثر هذا الميل في العائلات المتوسطة التى تسكن المدن العظيمة وان كان روح الاستقرار في البيوت لم يعد له أثر فيها . وبيوت باريس الا ماشذ كلها على نسق واحد كبيرة كثيرة الطبقات متعددة المساكن كالقصور العاليات اذا رايتها من الخارج تتركب من خمس طبقات أو ست وواجهتها فسيحة ذات سبع نوافذ أو ثمان حسبت العائلات التى تسكنها عرفت كيف تتنعم ببيتها وانها بذلت النفيس حبا فى المعيشة الداخلية معيشة العائلة . فاذا دخلت اليها والدخول مباح لكل وارد وجدت المساكن متعددة وكل عائلة تسكن طبقة منها وقد تأوى الطبقة الواحدة عائلات رضخ بعضها على بعض . ثم اذا دخلت احد المساكن رأيت أولا قاعة الاستقبال وغرفة الطعام مزينتين زينة حسنة فسيحتين بالنسبة الي البقية ومطلتين على الطريق اما بقية الغرف ففى الجهة الخلفية وهى ضيقة جداً تطل على حوش كأنه فى الغالب بئر لضيقه قليلة الضوء ولا يدخلها الهواء وتلك الغرف هى مقر العائلة ومخادع السكان . أما الغرف الامامية فانها اتخذت للزهو والتباهى لايدخلها الا الاجانب لانها انما اعدت « للاستقبال » وعدم الاعتناء بالبيت عند أهل هذه النشأة عام بين الاواسط وأهل الارياف والاجراء

الا أن الاهتمام بذلك هو أول شئ يلتفت اليه أهل النشأة الاستقلالية ذلك لان الرجل منهم لا يعتمد على العائلة أو العشيرة أو الملاقات قلت أو كثرت وان شئت قل انه لا اعتماد له على وسط صناعى بل اعتماده على نفسه فهو يسكن البيت لنفسه وهو مقيم لا نزيل ولا يعطى الحياة الخارجية الا يسيراً وكل الذى فى امكانه موجه الى حياته الداخلية فالبيت عنده حصن استقلاله ويسميه اسماً لا يمكن التعبير عنه بغير لغته وقد أودعه روحه ووجوده وهو (هوم) بمعنى مأوى أوملجأ ولهذا الاسم عند الانكليزى السكسونى معنى أكبر وابعد عن المادة من الاسم الفرنساوى (فوييه) أى بيت فهو يدل خصوصاً على الاقامة الداخلية والنظام الذى يستريح له الساكن كل يوم مما اختص به ذلك العنصر لافرق بين الاجير والريفى ومن فوقه من الطبقات الوسطى

ولست اقصد الحكم على هذا التصور عندهم بل اريد أن أقف على حقيقته وان ابينها للقراء كما هى لان الامم امتان مختلفتان تمشى كل واحدة منهما فى طريق يخالف سبيل الاخرى ومبدأ الخلف سكنى المنازل فمن المفيد جداً تمام العلم باول مااختلفوا فيه

ويتجلى الفرق بينهما من حيث اعتبار المسكن بامرين

الاول ان أهمية المسكن عند امم الاستقلال اقل منها عند امم الاتكال فالمسكن الغالب عند الاولى عبارة عن بيت صغير لا يحتوى من الغرف الا على ما يفى بسكنى عائلة عادية باولادها . ويتبع البيت فى الغالب بستان يختلف فى سعته على حسب درجة الساكن من الغنى وباعتبار سكنى الريف

أو المدينة . وهذه المساكن منثورة فى جميع جهات الارياف الانكليزية ثم هى تكثر متقاربة فى ضواحى المدن الكبيرة لان الانكليزى المدنى يميل كثيرا الى السكنى خارج الاسوار وهى المثال الغالب فى داخل المدينة نفسها لانها توافق ما يطلبه ذلك الجنس في البيت الذي يأوى اليه وهذا هو السبب فى عظم المدن الانكليزية بالنظر الى عدد سكانها

وبخلاف ذلك تجد المسكن الغالب عند أمة الاتكال هو البيت العظيم ذو الغرف الفسيحة فليست هى مساكن اتخذ كل واحد منها لتأوى اليه عائلة على انفرادها بل دار كبيرة تسكنها عائلات عدة تقيم مع بعضها فى عيشة واحدة . هكذا المساكن فى ايتاليا ويوجد فى مدننا الريفية كثير من تلك الدور الفسيحة التي أصبحت فيها العائلات بعد نقص عددها كالتائهة فى انزوائها وتلك هى القصور الفخيمة المشيدة فى الارياف وكم من عائلات أدركها الفقر لكثرة انفاقها فى حفظ تلك المبانى اللهم الا التي فطنت الى الاقتصار منها على ناحية تقيم فيها وتترك الباقى . ومن مقارنة هذه الدور العظيمة والقصور الشامخة بتلك المنازل الانكليزية السكسونية تتبين لك احدى جهات الفرق العظيم بين النشأتين

الثانى ان العائلات الاستقلالية تنتقل من مسكن الى مسكن بسهولة أكثر من العائلات الاتكالية . قلت ان أهل الاتكال أشد التصاقا بالمساكن الوراثية من غيرها فهى أبقى فى المسكن الواحد لاستمدادها منه قسما كبيراً من قوتها بل ربما كان جل اعتمادها على ذلك البناء المادى أما الاستقلالى فلا شئ أسهل عليه من الانتقال ومتى سنحت له الفرصة أسرع

لانتهازها لينتقل من حال الى أحسن منه وبدّل مسكنه وقد يترك طرفا من الدنيا ليأوى الى الطرف الثانى لان انظاره متجهة على الدوام الى المستقبل لا الى الماضي ولان اعتماده على نفسه لا على تقاليد أبويه ورسوم الاجداد وهذا الحال الذى نشأ فيه بحكم طبيعة أمته هو الذى جعله يبتكر ذلك الملجأ المختصر لان الرجل أشد تعلقا ببيت كبير منه ببيت صغير فهو ربه لا أسيره ولا هم له بالاحجار ولا تمسكه الاحجار . رب معترض يقول انها حال لا استقرار للمسكن فيها لكنّ هذا نظر الى ظواهر الامور فالاستقلالى مستقر فى مسكنه كالاتكالى سواء بسواء وانما الفرق في الكيفيات ولتبينه يجب الالتفات الى ماقدمناه من التمييز بين المسكن الخارجي والاقامة الداخلية فالاستقرار عند الاتكالى راجع الى المسكن الخارجي وهو يرجع عند الاستقلالى الى الاقامة الداخلية وكأن الاول جندى لم يكد ينزل بمسكنه العتيق وكأن الاستقلالى رابض منذ القدم والى ما شاء الله فى مسكنه الوقتى فهو يقيم حق الاقامة ولو الى بضعة أيام حتى فى الفندق — وقد اشتهر ان الانكليز كانوا سببا في تحسين الفنادق الاوروبية — ولو لم يكن مقيما الا سويعات معدودة ولو فى السكة الحديدية ولذلك أعرف عنه انه رجل لا يتعمد مضايقة نفسه فى شئ والاستقرار عنده عبارة عن راحته وموجباتها وليس من ينكر ان موجبات الراحة ركن من أركان السكنى له من الاهمية ما للاسوار والجدران وانها تؤثر على الانسان وحياته اليومية وانها تفعل في وجوده الذاتى ووجوده فى أمته أكثر من غيرها

نتج من هذا ان الاستقرار فى المسكن مادى ومعنوى والثانى أهم

وهو البحث الذى بقى علينا أن نبينه

أما كون الثاني أهم فذلك حاصل بالضرورة لان تحسين السكنى واتقان نظامها هما أول حركة يشاهدها الانسان فى الذين شخصوا الى الانتقال من حالة الاتكال الى حالة الاستقلال غير انه لما كان سبب ذلك غامضا لا يبدو لاول نظرة وجب علينا أن نوضحه

انى أرى لكيفية السكنى المذكورة ثلاث نتائج فى الاجتماع وان تلك النتائج تؤدى الى تحويل الافراد وجعلهم استقلاليين

الأولى طريقة السكن المذكورة تقوى فى الانسان شعوره بعزته واستقلاله

تخيل أيها القارئ ما استطعت مساكن الارلنديين الرديئة التى وصفناها لك أو منازل الفعلة فى مدننا وريفنا مما لا يقل عن تلك رداءة وقبحا وليحضرك بعض أولئك السكان الذين عرفتهم تمام المعرفة ثم فكر فى قوم شبوا منذ طفوليتهم فى ذلك الوسط وعاشوا دائما فى ذلك البيت الذى هو عبارة عن حجر متوحش دخله شئ من التحسين لا شك انك تقتنع بانه وسط لا يقوى عند من تربى فيه حاسة العزة والاستقلال . قالوا ليس المرء بطيلسانه ونحن نرى ان للطيلسان شأنا فوق ما يظنون فكم من رجل لا قيمة له الا بلباسه الذى يرتديه . هذا شعار قاضي يحكم بين الناس وذاك زى الجند وآخر وسام كذا وتلك الشارات كذا ولها كلها تأثير كبير في عقول الناس وقد تحمل الكثيرين على النظر الى أنفسهم بعين الرفعة والاعتبار فينبغى أن لا يهمل ما تحدثه الظواهر من التأثير

وأهم تلك الظواهر تأثيرا هو البيت لانه يستولى على الانسان وهو في عيشته الذاتية وحياته الشخصية ولانه ثابت مستمر فى كل يوم ولا شبهة في ان العامل الذى زرت مسكنه فى « هوتردين » والصانع الميخانيكى الذى تناولت عنده الشاى فى « بنكويك » كانا شاعرين بتأثير مساكنهما عليهما مباشرة وبما فيهما من النظام وحسن الترتيب وكانا بذلك يريان نفسهما أرقى وارفع من غيرهما وكانا يميزان تمام التميزماهمافيه من رفعة النفس والاستقلال وكان الواحد منهما اذا دخل بيته يحس من نفسه انه انسان شاعر بكرامته كما يقول الانكليز . والرجل اذا عرف من نفسه الكرامة يكون ميالا الى الزيادة فيها لانه يكون قد اجتاز العقبة الاولى في سبيل الارتقاء وهى الخطوة الاولى

الثانية طريقة السكنى المذكورة تهيئ المرء الى العمل وتقويه على الكد والاجتهاد

ان الامم التي اعتادت على المعيشة البسيطة والسكنى الساذجة تكتفي بالقليل ولا تلد الا افرادا يقفون عند الكسب اليسير فاطماعهم محدودة وبالقليل يقنعون . وترى الواحد منهم يعيش راضيا متى حصل ما يخرجه عن درجة الخمول والانزواء . لكن ليس الحال كذلك عند الامم الأخرى فالمعيشة الانيقة والمسكن المنظم يقتضيان الكد ويساعدان عليه خصوصا اذا كان الرجل يعمل لينال الفائدة العاجلة المحسوسة . ولقد يحضرنى ذلك الصانع الميخانيكي فى « بنكويك » وهو يطلب اقتناء اثاث قاعة طعامه أو آلة طربه « بيانو » أو بساطه الكبير الذى تحلت به غرفة استقباله فاراهُ

يزيد في همته تحت تأثير ما اتجهت اليه رغبته ويتفنن في أساليب العمل بما يسعه لاستزادة راتبه . وما الوف العملة الذين يحضرون دروس جمعية توسيع نطاق التعليم في انكلترا والولايات المتحدة بثمن يدفعونه من كسبهم الا امثلة حية تدل على ذلك الميل نحو الكد والعمل فهم لا يحجمون أمام ذلك الاشتغال الزائد على ماهم فيه لطمعهم في نوال حال احسن وعيشة ارضي

رب قائل يقول ان روح الاقتصاد الذى امتاز به الكثير من عمالنا هو ايضا من موجبات الحث على العمل والاجتهاد وهو مسلم الا انه باعث اقل عزما وأصغر تأثيراً لان الرجل الذى يدخر لاولاده يعمل لاجل بعيد ولغيره وذلك الغير لا يجنى ثمرة العمل الا بعد وفاة صاحبه ولا يقدم على ذلك الا من بلغت الشجاعة من نفسه حد الاستقلال وتلك فضيلة قلما توجد بين الناس فان ادخر الرجل لنفسه كي يشتغل ما ادخر أدركه الملل سريعا خصوصا اذا كان من العمال بما يتصوره من جسامة ما يجب ادخاره حتى يزيد في ايراده زيادة محسوسة فكم من الايام ينبغى له ان يعمل ليكنز مائة من الفرنكات على ان ذلك المبلغ لا يفيده من الربح الا ثلاثة فرنكات في السنة وهى نتيجة تظهر امام عينيه صغيرة بعيدة الامد ويراها لا تساوي المتاعب التي تبذل في سبيلها . انظر الى النظامات التى تخترع كل يوم لانماء حركة الاقتصاد عند الفعلة وتأمل كيف ان الربح منها يسير وانظر الى الفاعل الانكليزى السكسونى تره يدخر في تنظيم بيته وتوفير موجبات الراحة فيه مالا أكثر كثيراً من دون ان يستمين بالحكومة أو يكون له من احتفائها به باعث أو مشجع . لا تقل ان ذلك مال مصروف لا مدخر

لانه وان صرف فليس بضائع سدى وانما هو يستغل بربح جزيل لا يقدر بثلاثة فى المائة بل بمائة فى المائة لكونه يستعمل فى زيادة القوة على العمل . ألا ترى ان ذلك الصانع الذى اشترى أثاث غرفة الطعام أو آلة الطرب أو البساط يتمتع بما اقتنى من ساعته وكل يوم . ثم قرب بين تمتع رجلين اقتصد أحدهما مائة من الفرنكات ولا يربح الا ثلاثة فى كل عام واقتصد الآخر مثلها فاقتنى بها ما تاقت نفسه اليه ليجعل بيته محبوبا لديه وليتمتع به فى كل حين . ذلك فرق عظيم . ذلك فوز يشجعهُ الى كد جديد ليسكن بيتا أوسع وللراحة ادعى أو ليزيد فى نظام مسكنه وتجميله وهو كلما حسن في مسكنه دب وراء تحسين جديد أرفع ذوقا وأحكم صنعا وأصبح يتأنق فى الرغائب وهى تزداد فى كل حين ولا سبيل لهُ في ارضائها الا بعمله فيعمل بجد يترقى . ولما كانت القدرة على الجد المتناهي من خصائص رجل الاستقلال وهى التى تميزهُ عن رجل الاتكال كان هذا الذى شرحنا حالهُ يتقدم نحو النشأة الاستقلالية وثبت ان طريقة السكنى هى أول بادرة من بوادر الترقى المذكور

الثالثة طريقة السكنى المذكورة تهيء الرجل الى أن يصير مهذبا

انى استلفت القراء بنوع خاص الى هذه النتيجة الثالثة لانها أهم في تمييز النشأة الاستقلالية والتفريق بينها وبين النشأة الاتكالية ولم نبدأ بذكرها لان تقريرها كان متوقفا على ما تقدم من الكلام فى ملجأ الانكليز السكسونى

من لوازم النشأة الاتكالية وجود طبقات فى الامة تمتاز كل واحدة

منها على البقية امتيازاً تاماً . ومن الصعب أن ينتقل الانسان فى تلك الامم من مرتبة وضيعة الى أرفع منها فلا يسهل على الاجير أن يصل الى درجة الاواسط واذا وصل اليها بما كسب من المال فأنه يبقي أجيراً فى ازيائه وعادته واذواقه وكيفية معيشته فهو لايترفه بالسهولة ولا يترقى بالسهولة . والسر فى هذا ان ارتقاءه مسبب عن اقتصاده وقد بينت فيما سبق علة هذا الاقتصاد وزد عليه أن الاقتصاد لا يتأتى الا لمن يعيش فى مسكنه عيشة ضيقة يحرم فيها نفسه من كل شيء فيقتصد من مسكنه ويقتر فى ملبسه ويقلل من أثاث بيته وينقص من مصرف رياضته والذى يحرز الثروة عاجلا هو الذى يقتصد كثيراً اى الذى يعيش حقيراً ومتي وصل الى الثروة رأيته استمر على المعيشة حقيراً لان العادة صارت حاجة بل أقول صارت مطلباً

رأيت فى الاقاليم رجلا يمثل هؤلاء القوم بدأ منذ اربعين عاماً بصنعة بياع متجول وكان يبيع السياط وما يتعلق بالسروجية على عربة يد ينتقل بها من قرية الى أخرى فلما اجتمع فى يده مبلغ من المال اشتري مسبكا صغيراً يدار بقوة الماء وجعل يصنع بنفسه اللجم والمشابك وجميع الانواع التى تصنع من الحديد أو ما شابه للسروج . وقد عرفته فى آخر حياته فوجدت عنده اربعين صانعاً واشترى من الاطيان ما يبلغ مائة هيكتو لتر وثلاثة بيوت أو اربعة فى القرى المجاورة لمسكنه وصار لديه مال عظيم لادارة حركة المسبك . وقد توفى قريبا وتبعته زوجته ولم يتركا عقباً وقدرت ثروته باربعمائة أو خمسمائة الف فرنك قسمت بين أبناء اخوته . وعاش هذا

الرجل الى آخر يوم من حياته كالاجراء (تلك طريقة مثلى فى استعمال الثروة والمال) فبقى على لهجتهم فى الكلام وازيائهم وهيئتهم وكان فى الاصل ذا لهجة عامية وزى وضيع وهيئة رثة ولا أقول أكثر مما ذكر . شاهدته مرارا يبرد بنفسه بعض المصنوعات فى مسبكه كاجير بسيط استخدم ليدير آلة من الآلات . وعليه فقد بلغ هذا الرجل ما بلغ من الثروة والغنى ولكنه لم يرتق فى طبقات الاجتماع . وما سبب عدم ارتقائه الا انه لم يتعود في بيت ابيه منذ الصغر على هيئة حسنة ولم يعرف نظام المعيشة وموجبات الراحة في السكنى وما يتبع ذلك من لطف الشمائل وظرف الازياء

يوجد بين الاهالى فى فرنسا قوم لهم استعداد كبير للتجارة وهم أهل (أوفرينا) كما ان لهم تفنناً عظيما فى الاقتصاد ولست اتعرض لبيان السبب فى هذا الاستعداد ولكنى اكتفى بالدلالة عليه . والرجل منهم قد يبلغ درجة معتبرة من الثروة ولكنه لا يخرج عن حالة التاجر الصغير ولا يتخلى عن عاداته وما الف بل يبقى على عادات فلاحى بلده وهى لا تستحسن من حيث الهيئة أو النظافة أو الازياء . وكل من زار تلك البلاد يعلم ما نقول وأنه ليس فى الوجود اقرب الى الطبيعة من مساكن فلاحي (أوفرينا) ولا اقذر منها ولا ازال اذكر ما قاسيته مع موسيو (روسيه) من الصعوبات فى تناول الطعام بعض مرات بتلك البلاد وما كان يقوم بنفوسنا من الاشمئزاز مما هو طبيعي عند رجل ذاق للتمدن طعما وانناما تغلبنا على انفسنا الا بشدة رغبتنا فى استطلاع احوال أولئك القوم ومعرفة كيف يعيشون

نشأة الناس فى تلك البيوت هى التى تعطل صفاتهم فى التجارة وتعوقهم عن الارتقاء أدبيا بين الذين يخالطونهم مع ماهم عليه من القناعة والتعود على الاقتصاد والتوفير . وهذه الحال ظاهرة فى وصف البياع الشراء الاوفرنى فى باريس « راجع كتاب الصناع فى الدنيوين جزء رابع صحيفة ٣١١ و ٣١٢ » حيث جاء فيه « تنقسم تلك الفئة الى قسمين أهل أوفرنيا وأهل نورمانديه وكلاهما قنوع ميال الى الاقتصاد يهرب من مخالطة العملة الباريسيين خشية من كثرة انفاقهم « ما أجمل » ويشترى الاوفرنى الملابس البالية وبالاخص القبعات والاحذية التى لم تعد صالحة للاستعمال ولكنه غير ماهر فى ذلك كمزاحمه لذلك يتخوف منه على الدوام اذا اجتمع الاثنان فى بيت لمساومة مبيع ما فترى الناس يركنون الى النورماندى بما امتاز به على رفيقه من الموادعة والادب وهو أحسن منه لباسا وأعذب منه لسانا وبمهارته يتغلب على صاحبه فى جميع الاحوال على التقريب ومن أجل ذلك يترك الاوفرنى مع ما اختص به من الثبات والمقاومة الاتجار فى الملابس العتيقة على كثرة ربحه منها الى مزاحمه النورماندى ليشتغل فى الخرق البالية والحدائد العتيقة والعظام وجلود الارانب »

ويعرف القارئ مما تقدم كيف ان التربية الخشنة الناتجة عن حالة سكنى البيت تمنع الاوفرنى من الارتقاء حتى فى تجارة لا تقتضى تربية عالية . ولا شك فى انهم لو حسنوا سكناهم لاستفادوا مما يصرفون فى هذا السبيل ربحا جزيلا وذلك الربح هو الذى يستفيده الانكليزى السكسونى من تنظيم ملجأه

ولنرجع الى عمال ضواحي ايدنبورج فهم تربوا ويربون أولادهم فى ملجأ يعودهم على شيء من التحسين فى السكنى وان كان بيتا صغيراً كما يعودهم على لباس مخصوص ولهجة مخصوصة وشمائل مخصوصة فيصيرون بذلك مترفهين ومستعدين لان يترفهوا ان لم يكونوا كذلك من قبل فاذا سنحت لهم فرصة ارتقاء — وقدرتهم على العمل مما يخلقها — رأيتهم ينتهزونها ويجدون من حالهم الشخصى ما يجعلهم جديرين بها اذ ليس فيهم ما يمنع من نوال ذاك الارتقاء. والخلاصة ان نظام البيت عندهم حتى بيوت الاجراء يجعل الافراد قابلين لان يصيروا من طبقة المهذبين فلا يظهر عليهم فى المراتب التى يرتقون اليها انهم ليسوا من أهلها

هذا وانى أجد من نفسي دافعا الى القول بان النشأة الاستقلالية لا تلد طبقة دنيئة وراثيـة كما هو الحـال عند أهل النشأة الاتكالية اذ المشاهدة ظاهرة الوضوح والوقائع التى تحضر الذاكرة تؤدى الى تلك النتيجة وتبرزها فى صورة قاعدة عمومية ومن أجل هذا أصبح أهل النشأة الاولى فى مقدمة المتقدمين نحو حل المسألة الاجتماعيـة وعلى الخصوص مسئلة الاجراء وانى أكتفى بايراد ثلاثة مشاهدات للدلالة على قابلية تلك الامم للترقى

الاولى قلة عدد الخـدام من الانكليز السكسونيين . فغالب الخدم فى انكلترا وفى الولايات المتحدة اما سلتيون أصلا أو جرمانيون أو لاتينيون ولا تجد خدما من الجنس الانكليزى السكسوني الا من نوع مخصوص كالمربيات اللاتي هن طبقة أرقى من الخدم الاعتياديين وكالخادمات موقتاً وهن بنات الفعلة اللاتي يخدمن وقتا محدوداً ليتعلمن بين قوم أرفع منهن رتبة

كيفية ادارة البيت قبل أن يتزوجن

الثانية وجود تلك الآلاف المؤلفة من الفعلة الذين ما رسوا العمل بايديهم وارتقوا بكدهم الى أرفع المقامات من غير أن يكونوا فيها خارجين عن صفها بل لا فرق بينهم وبين المهذبين من أهل الطبقة التي وصلوا اليها وهذا أمر معروف ومشهور وقد تكلمنا عنه فى مجلة العلم الاجتماعى عند ذكر رؤساء أحزاب الفعلة الذين أصلهم منهم فاصبحوا اليوم متربعين فى مجلس النواب « مجلة اكتوبر سنة ١٨٩٣ وديسمبر سنة ١٨٩٤ ويوليو ونوفمبر سنة ١٨٩٥ »

كان موسيو كليفلند رئيس جمهورية الولايات المتحدة صبياً عند أحد البقالين بوظيفة ساع يقضى الطلبات من الخارج وكان يكنس المكان ويكسر الخشب ويوقد النار . وكان اللورد جلاسكو حكمدار بلاد زيلندا الجديدة صبي نوتى فى أحد المراكب مذ كان عمره ثلاث عشرة سنة كذلك كان فرنكلان الذى طار صيته فى الآفاق فاعلا . وليس فى ارتقائهم من ذلك الحضيض الى هذا النعيم ما يستوجب العجب ولكن الذى يندهش له الانسان هو كثرة عدد الواصلين وان أصلهم الصغير لم يترك فيهم أثراً من الآثار التى نشاهدها فى قومنا الذين يرتقون . قلت ان هذه مشاهدة غريبة وانا احج كل انسان يعللها بغير طريقة الانكليزى السكسونى الاجير فى السكنى

الثالثة وهي مهمة فى بابها من المعلوم انه يوجد من قطارات السكك الحديدية ببلاد الانكليز عدد كبير ليس فيه عربات للدرجة الثانية لان

الناس اهملوها ومن جهة ثانية أري الاحصائيات تدل على ان عدد مسافرى الدرجة الاولى فى تلك البلاد أقل من مثله فى أوروبا وبينما أنا أكتب هذه السطور علمت ان احدى شركات السكك الحديدية الانكليزية عرضت الغاء الدرجة الاولى وان اللجنة التى تشكلت للنظر فى طلبها وافقت عليه محتجة بقلة عدد مسافريها واستدلوا على رأيهم بان الدوق « كامبرلان » صهر الملكة يسافر دائما فى الدرجة الثالثة ولا يجوز أن يكون السبب فى ذلك محبة الاقتصاد اذ المعروف عن الانكليز والامريكانيين انهم يتوسعون فى عيشتهم . وعلى العكس من ذلك نجد عدد السواح من الفرنساويين فى الدرجة الاولى كبيرا مع ان ثروتهم أقل وميلهم الى الاقتصاد أشد . وجب اذن أن نبحث عن علة أخرى ولا أراها الا كيفية معيشة الطبقة الاخيرة من أمة الانكليز السكسونيين وهيئتهم وزيهم . فنحن نتأفف من السفر مع رجل ذي هيئة رثة وعوائد منحطة خشنة ولكن هذا التأفف ضعيف عند الانكليز السكسونيين لارتقاء الطبقة السفلى بينهم ارتقاء محسوساً ومن أقطع الادلة على ذلك ان شركات السكك الحديدية وصلت في تحسين ادارة أحوالها الى ايجاد تذاكر مشتركة للقاصدين انكلترا تبيح للمسافر أن يركب الدرجة الثانية مادام سائراً فى البلاد الفرنساوية فاذا بدأ السير فى البلاد الانكليزية انتقل الى الدرجة الثالثة . وليلاحظ ان الانكليز باستعمالهم الدرجة الثالثة لم ينسوا موجبات راحتهم ومن أجل ذلك قد جعلت الشركات التى تلاحظ رغبات الناس عربات الدرجة الثالثة أكمل نظاما وأتم ترتيبا من عربات الدرجة الثانية عندنا وربما ضارعت درجتنا الاولى زخرفا وحسناً في بعض

الفروع أما الاعتناء بها فيفوق الاعتناء بغيرها

وحينئذ يمكننا أن نستخلص مما تقدم ان حسن السكنى واستيفاء موجبات الراحة فى البيوت مما يجعل الطبقات النازلة في الامة أهلا لبلوغ أعلى المراتب بحيث لا يرى أنهم دخلاء فيهابما يلوح عليهم من الشمائل والازياء وذلك يؤدى على الدوام الى محو الطبقة السافلة الوراثية فى الامة التى هى داء الامم الاتكالية العظيمة

ليست المسئلة الاجتماعية عبارة عن مساعدة الافراد كما ان مسئلة الحياة لا تقوم بكثرة تناول الادواء والعقاقير . اذ ليست المساعدة أو العقاقير من وسائل الحياة الطبيعية وليست الحكمة الا ما أدت الى الاستغناء عن تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسئلة الاجتماعية الا جعل الافراد بحيث يستطيع كل واحد منهم أن يقوم باود نفسه وأن يرتقى بجده وعمله لان سلامة الاجتماع كالسلامة الاخروية كما قدمنا تقوم بكل واحد على حدته وعلى كل واحد أن يسعى اليها . وقولى هذا لا يروق فى أعين الذين اتخذوا السياسة حرفة وغيرهم ممن طلبوا رزقهم من انحطاط الامة وضعف مدارك الطبقات النازلة وكانت فائدتهم فى بقاء الناس دائما على حالة يشبهون فيها القصر حتى يتيسر لهم أن يكونوا عليهم أوصياء . غير ان العلم لا يلتفت الى مثل تلك الملاحظات بل انه يجهلها ويسلك الطريق الذى تدل المشاهدات عليه

علمنا ان قابلية الترقى تنمو أولا بتحسين المسكن عند أجناس الامم الاتكالية اذا اختلطت بالامم الاستقلالية وظاهر ان هذا الاختلاط مفقود

عندنا الا انه ليس من المستحيل أن يستعاض عنه بمعرفة حقائق الاحوال كما ينبغي . فالمعارف توصلنا الى أن نعمل بغير اختلاط ما نفعله بلا تأمل بل لمجرد الاحتكاك نخبة العملة الايقوسيين أو الارلنديين فى انكلترا وما تفعله كذلك نخبة المهاجرين من أوروبا القديمة الى الولايات المتحدة بامريكا

على الطبقات الوسطى منا أن تبدأ بهذا الترقى بنفسها لنفسها فهى الآن تجهد نفسها كثيراً وتنفق المال الجزيل لتعيش خارج البيت ولتكثر من علاقاتها مع المتظرفين والاصحاب العاديين وتكره الاقامة فى الارياف كرهاً شديداً لان العلاقات والمعيشة الخارجة عن البيت هناك أصعب وتعتنى فى بيتها بفرش القسم المخصص للاستقبال بالاثاث الفاخر والزخارف وتعد من الفضلات تنظيم القسم المخصص لمعيشة العائلة نفسها وتوفير موجبات الراحة فيه . وهى بذلك تجعل البيت ثقيلا عليها وعلى أبنائها فلا تخصص لهم غرفة يشعرون باجتماعهم فيها انهم فى بيتهم حقيقة ويتعلمون من صغرهم طرفا من الاستقلال . ألا ان الاطفال هم ضحايا البيوت فى فرنسا . والواقع ان بيوتنا أعدت للأجانب لا لأنفسنا وهذا هو الذى يجب تغييره ليرجع المرء الى المعيشة الخصوصية فيقيم فيها كمن يحتل حصناً منيعا ويجعلها بحيث تميل اليها النفس ميلا كليا ففى الحياة الشخصية قوة عظيمة لكنها مجهولة ولا سبيل الى الارتقاء لقوم لا يعرفون حقيقة ما ذكر

لكن اذا تيسر لطبقتنا الوسطى أن تخطو هذه الخطوة وذلك ممكن اذا أرادت وليس على كل واحد من افرادها الا أن يقدم على العمل لنفسه فالامر متعذر على طبقة العملة لاستحالة انها تعمل بنور العلم وحده ولان

الغاية المقصودة بعيدة عنها بعداً عظيما ولانه لامساعد لها من الاحتكاك لعدم وجوده فهي محتاجة لمن يعينها

هنا اوجه الخطاب على الاخص الى الذين جعلوا من همهم السعي في ايجاد الوسائل لاعانة المحتاجين وهم فى الغالب يساعدون العامل ويتكلفون حمايته وجب ذلك أو لم يجب ولايحصلون من اتعابهم الا فوائد قليلة فضلا عما يلحق بالعملة من أضعاف قابليتهم الى الارتقاء بانفسهم . وكل مساعدة لايكون الغرض منها جعل المساعدة نفسها فضلة اى اعداد الناس لمساعدة انفسهم بانفسهم قد تصير مصيبة عظمي واللازم هو مساعدة تلك الطبقة على الارتقاء بنفسها باعانتها على تحسين مساكنها وتنظيم المعيشة الشخصية

أني الاحظ الآن بكمال العناية مشروعاً بدأ بتنفيذه أحد أصدقائي . ذلك أنه يوجد على مقربة من املاكه معمل صغير يشتغل فيه نيفوخمسون عاملا تتألف منهم عشرون عائلة ساكنة بجوار ذلك المعمل فى بيوت اعطيت لهم باجرة سنوية مابين خمسين فرنكا وستين وهى فى الواقع لا تساوى اكثر من هذه القيمة لانها عبارة عن عشش أو أكواخ ابوابها وشبابيكها لا تقفل متي فتحت مما يجعل سكناها لا تطاق في زمن الشتاء وهي على الدوام تقصى الناظر اليها بما علاها من الاوساخ التي تفوق الوصف ولا اذكر شيئاً عن اثاثها فانه دون ما يتصور العقل بساطة وعلى حال لا يمكن نعتها أبداً ومن تمام الشقاء أن قسما من تلك العائلات ينهمك فى المسكرات كما يحصل ذلك غالبا . تلك هي المادة التي اشتغل صاحبي بالعمل فيها وظاهر انها من أحسن الموضوعات فى بحثنا وأنها تجعل العمل من أهم

مايلتفت اليه ولمجاورة صاحبنا لاولئك القوم وتفرغه الناشئ عن الاقامة فى الريف سهل الاجتماع بينه وبينهم وبدأ الاختلاط اذ جاءوه يطلبون منه دواء لابنائهم أو لبعض المرضى فتمكنت زوجته بذلك من الدخول فى تلك المساكن حيث قوبلت بالشكر والامتنان وعادت مقشعرة من تعاسة ماهم فيه وعلى الخصوص من اهمال الاطفال وعدم الاعتناء الكلى بما احتاجوا اليه من الاوليات كالنظافة ومراعاة الصحة وكان من أول احتفائها بهم ان وزعت عليهم الملابس على شرط الاعتناء بها وان ينظف الاطفال وتمشط شعورهم في كل يوم . ثم جعلت لهم فى ازمان معلومة طعاماً خفيفاً وقت العصر يجتمع حوله أبناء العملة كلهم واشترطت أن لايحضره الا من حسنت هيئته وبذلك ازداد الاجتماع بين الفريقين وتم تنفيذ هذا القسم من مشروع صاحبنا على ماينبغي وكانت هذه اول خطوة نحو الغرض المقصود.
ولم تكن حالة ماحول المساكن باحسن مما شرحناه عنها فاذا أمطرت السماء رذاذاً اخترقت المياه الطريق فصار وحلا وهو مرمى الاقذار على الدوام وأوكد أنه كان يحتوى على كل صنف من أوساخ أخس الآدميين . ولم يمض شهر الا وقد أصلح الطريق وفرش بالحجارة وارتفع عن مستوى الارض واتخذ على جانبيه قناتان لتصريف المياه وزرع صاحبنا فى مدخله أمام المساكن صنفاً من الاشجار النضرة ذات الازهار فكانت تلك الاشجار اشبه بدرس فى الاشياء لدلالته على أنه يجب الاعتناء أيضا بما حول المساكن كالاعتناء بها ودلالته أشد فعلا فى النفوس من القاء النصح والارشاد .
ويظهر أن أولئك المساكين ادركوا هذه الحاجة فتعهد كثيرون منهم بسقيا

الاشجار والاعتناء بها . نعم ذلك شيء يسير الا انه جعل فيهم همةً وهيأ لهم عملا يرتاحون اليه وهي فائدة كبرى . بقي الهجوم على أحجار الوحوش التي يأوي اليها أولئك التعساء لجعلها بيوتا محترمة وترتيبها بحيث تنمي في النفس قيمة الانسان وتنبئه بكرامة السكن الذي يتمكن صاحبه من الارتياح به والراحة فيه حتى تنبعث الهمة الى ترتيبه وتجميله وهنا محل الصعوبة كما لا يخفى . ولحسن الحظ حدث ان مدير المعمل تغير بمدير جديد ومن رأى هذا الاخير اصلاح تلك المساكن وستكون هذه فرصة مناسبة تتيح لصاحبنا أن يحمل أولئك السكان على تحسين مساكنهم . وقد وعد بانه يراقب ذلك ويتتبع حالة العملة المذكورين في التغيير والترقي ويساعدهم عليه جهده ويسطر النتيجة التي يصل اليها . ولا يتيسر للانسان أن يقف على مجرى الاحوال كما ينبغي الا اذا انحصرت في دائرة صغيرة تسهل مشاهدتها .

ربما يخطر بالبال ان أكبر عائق في ترقي العملة من حالتهم الى أحسن منها قلة ذات يدهم الا ان المشاهدات لا تؤيد هذا الظن لانه يوجد بين العائلات التي تشتغل في ذلك المعمل واحدة يرى انها أشدهم بؤساً فمسكنها اسحق المساكن وأبناؤها الستة اتعسهم حالا وهي مفلسة على الدوام لا تفتأ تطلب من المدير مقدما جزاء من أجرها وقد أثقلتها الديون وحجز على قسم من استحقاقها . ومما يدل على ماهي فيه من الشدة ان المرأة اشتغلت يوما في بيت صاحبنا في نظير فرنكين فطلبتهما قبل أن تغادر البيت وقالت انها لا تملك فلسا واحداً تقتات به وزوجها وأولادها . فمخاطبة مثل هؤلاء القوم في تحسين مساكنهم تظهر بادئ بدء كأنها سخرية واستهزاء اذ هم

لا يكادون يحصلون قوت يومهم

لكن انظر اذن الى الراتب الشهرى الذى تأخذه تلك العائلة كما هو ثابت فى دفتر المعمل

	فرنك
أجرة الرجل	٩٠
« المرأة	٦٠
« الولد البكر وعمره ١٩ سنة	٧٠
« البنت البكرية وعمرها ١٨ سنة	٣٠
المجموع	٢٥٠

فيؤخذ من هذا ان تلك العائلة التى تتألف من ثمانية أشخاص أربعة منهم قادرون على العمل تعيش تعيسة فى بلاد الريف باجرة قدرها ثلاثة آلاف من الفرنكات فى السنة وهى لا تدفع مع ذلك الا خمسين فرنكا أجرة مسكنها وهو منزل وبستان يمكنها أن تزرع الخضر فيه . ومما يستغرب له الانسان فى فقر تلك العائلة المدقع انها لم تخل يوما واحداً عن العمل ومضى عليها خمس عشرة سنة تقريباً وهى فى خدمة ذلك المعمل ثم زاد حملها بكثرة أولادها الا ان أجرها زاد أيضا على هذه النسبة

ولبيان العلة الحقيقية فى حالة تلك العائلة ينبغى أن نسلم بأن تلك المسألة الاجتماعيـة ليست منحصرة فى أجور الفعلة كما يذهب اليه السواد الاعظم بل راجعة أيضا الى سـير الافراد وأخلاقهم . وربما عنيت بهذا الموضوع يوما ما . اذ لو كان الامر دائراً على الاجرة لزال الاشكال وانجلى المعمى بما

نراه من حال تلك العائلة لكنه ليس كذلك وانما السبب فى تعاسة أولئك القوم وانتشاب مخالب الفقر فيهم هو سوء سيرهم وانعكافهم على المسكرات اذ هى منتشرة بينهم أكثر مما يظن وفى ميزانية الفعلة خروق تذهب منها الاجور كما هى فى ميزانية الاواسط من الناس

يعيش الرجل الوسط معيشة ضيقة ليتمكن من ارضاء شهواته فيما يتعلق بملبسه واعداد بيته للاستقبال أو ليدخر المال لبنيه والفاعل يعيش مقتراً ليتأتى له الصرف فى أمور غير مفيدة أو هزئية أو ممقوتة والذى يعوزهما معاً انما هو حسن السير والنظام لا قلة المال . وأعظم طرق استعمال المال فائدة هو اتخاذ مسكن مقبول توفرت فيه أسباب الراحة على قدر الامكان وكل الذى قدمناه راجع الى بيان ذلك . والصرف فى هذا السبيل هو فى الواقع استغلال بربح عظيم لانه فضلا عن كونه يثنى صاحبه عن الصرف فى أمور كثيرة لا فائدة منها فهو ينمي فيه شعوره بمكانته وباستقلاله وميله الى العمل واستعداده الى الارتقاء

كل من توفرت فيه هذه الصفات الاساسية يكون قد توصل بالنظر لذاته الى حل المسئلة الاجتماعية وصار مالكا لنفسه مستقلا عن الآخرين

الباب الثالث

﴿ الفرنساوى والانكليزى السكسونى فى المعيشة العمومية ﴾

يوجد بين الفرنساوى والانكليزى السكسونى فى المعيشة العمومية من الفرق ماشاهدناه بينهما فى المدرسة وفى المعيشة الخصوصية وقد خصصنا الابحاث الآتيـة لبيان ذلك وأظن اننا نكون حينئذ قد أتينا على ذكر أهم الأسباب التى تجعل الانكليزى السكسونى فى جميع طبقات الهيئة الاجتماعية أرقى من غيره ارتقاء يمكنه من النصر فى التزاحم فى الحياة ونكون أيضاً بينا السبيل الذى يجب علينا أن نسير فيه لكى نقاوم انتشار ذلك الجنس الذى يتهدد العالم باسره

«أهل السياسة فى فرنسا وفى انكلترا»

اذا أخذنا بالظواهر رأينا المجالس النظامية التشريعية واحدة عند جميع الامم الا اختلافا يسيراً فالمتفرج الذى يشاهد مجالس النواب فى المانيا وانكلترا وايتاليا وفرنسا يتأثر تأثراً واحداً تقريبا واذا حكم بمقتضى هذا الشعور قضى بان حكومات تلك البلاد متشابهة وان نظام مجالسها النيابيـة يكاد أن يكون

واحداً وان الخلف ناشئ على الخصوص من جهة تكوين الاحزاب وعدد رجال كل واحد منها

(هذا ماظهر ولكن بقي ما استتر) كما يقول (باستيا) وما استتر هو الذي يهمنا كشف القناع منه

ان الذي احتجب عن الابصار لانه ليس مما يدرك بالاعين عادة هو طبقات الهيئة الاجتماعية التي ينتخب منها النائبون عن الامم ونسبة عدد المنتخبين من كل طبقة وطائفة الى الآخرين . ولاشك فى أن هذا البحث يؤدى الى معلومات مهمة فى موضوعنا فمن البديهى أن صناعة الرجل التي احترف بها تأثيراً فى افكاره وقابليته لهذا العمل دون ذاك وفى كيفية نظره فى الامور والاحوال . ولكل طبقة من الزراع والتجار وأهل الصناعة والاطباء والمحامين والجند والموظفين نشأة خاصة بها وكلهم لا يرون الشئ الواحد من الجهة الواحدة وكلهم لا ينوبون عن المنافع بعينها . ثم أن تلك المنافع ليست متساوية من حيث ضرورتها فى الامة بل بعضها أهم من البعض وعلى كل حال فانها ليست معتبرة بدرجة واحدة عند الناس وقد تختلف بل ربما تعارضت

نتج من هذا أن عناصر النيابة الملية تتغير تغيراً عظيما تبعا لحالة الامة وباعتبار أن أهل هذه الطائفة أهم من أهل تلك وارفع قدراً اوأشد بأسا . وينتج من ذلك أيضا أن المجالس النيابية لا تبقى على حال واحد فى أعمالها ونظرها فى مصالح الامة بل تتغير نزعاتها وتختلف آراؤها تبعا لرأى الفريق الذى يسود على البقية من أعضائها

ولنبين ما نقول ببيان كيفية تشكيل مجلس النواب عندنا

ولا يغيبن عن ذهن القرآء انني ما وصلت الى معرفة عناصر ذلك المجلس الا بعد الجهد والعناء اذ لم يسبقني أحد لذلك البيان فألجأتني ضرورة البحث الى النظر في ماضي كل نائب على حدته ومعرفة ما امتاز به عن اخوانه وتقسيمهم جميعا بحسب صنائعهم وحرفهم

وقبل أن نورد ذلك التقسيم نلاحظ اننا لم نجد حرفة تدخل فيها ثلاثة وأربعين عضواً لاننا لم نهتد لهم على طائفة معينة يمكن الحاقهم بها فمنهم ستة من العملة ربما صح الحاقهم فى صف أرباب الصحف ومنهم من تعذر الوصول الى معرفة حالهم على أن هذا النقص الجزئي لا يؤثر بشيء في التقسيم العام كذلك لم يتغير ذلك التقسيم فى المجلس الجديد الذى انتخب أعضاؤه بعد نشر هذا البحث الا يسيراً بل ان النواب من أرباب الحرف الادبية زادوا فبلغوا ٢٨٦ بعد أن كانوا ٢٧٠ نائبا

جدول

تقسيم مجلس النواب الفرنساوى

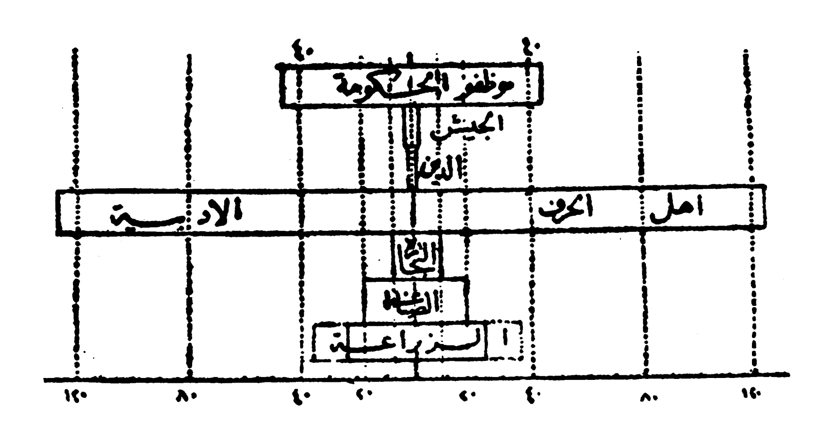
مهنة	حزب الشمال	حزب اليمين	المجموع	المجموع العمومى	اجمال	
ملاك أطيان	٠٨	١٧	٢٢ *	٧٢	اهل الفلاحة	٧٢
زرّاعون	١٣	٣٧	٥٠			
صناع	٢٧	١٤	٤١	٤١	أهل الصناعة	٤١
تجار	١٤	٠٣	١٧	٢٢	أهل التجارة	٢٢
أرباب بيوت مالية (بنوكه)	٠٢	٠٣	٠٥			
أعضاء جمعية المعارف	١٢	٠٠	١٢	١٢		
أطباء	٤٧	٠٣	٥٠	٥٣		
صيدليون	٠٣	٠٠	٠٣			
مهندسون ملكيون	٠٥	٠٢	٠٧	٠٧		
أرباب جرائد	٥٤	٠٥	٥٩	٥٩	اهل الحرف الادبية	٢٧٠
مدرسون فى علم الحقوق	٠٥	٠١	٠٦			
موثقون	١٤	٠٣	١٧	١٣٩		
وكلاء الدعاوى	٠٩	٠٠	٠٩			
محامون	٨١	٢٦	١٠٧			
روحانيون	٠١	٠١	٠٢	٠٢	أهل الدين	٢
ضباط بريون	٠١	٠٢	٠٣			
ضباط بحريون	٠٠	٠٣	٠٣	٠٦	أهل السيف	٦
قضاة	١٢	١١	٢٣	٩٥	أهل الوظائف الادارية	٩٥
موظفون	٣٩	٣٣	٧٢			
بدون حرفة	٢٢	٢١	٤٣	٤٣	بدون حرفة	٤٣

(*) فى العمود الافقى الثالث خطاء فى الجمع كذا فى الاصل وصوابه ٢٥ بدل ٢٢ وصواب المجموع العمومى امام اهل الفلاحة ٧٥ بدلا من ٧٢

ولنترجم عن هذا التقسيم بشكل مادي ليتمكن القارئ من الاحاطة بحقيقة النيابة الملية تماما وتنجلي النسبة بين الطوائف والطبقات وقد وضعنا الجدول الآتي لذلك وقسمناه بخطوط عمودية جعلناها نقطا والارقام التي فيها تدل على عدد النواب

والذى يستلفت النظر أولا فى هذا الجدول هو عدم انتظامه الناشئ من فقد التناسب فقدانا تاما بين الاعداد الدالة على الطوائف وثانيا هو ان نصيب الحرف العامة وهى الزراعة والصناعة والتجارة من ذلك العدد قليل وان الحظ الاوفر فى النيابة عن الامة لارباب الحرف الادبية وموظفى الحكومة. وتتبين أهمية هذين الامرين اكثر من ذلك اذا قورن بين تشكيل مجلس نوابنا ومجلس نواب انكلترا وقد وضعنا جدولا ثانيا لبيانه ولو انا ادخلنا فى هذا الجدول اعضاء مجلس اللوردات لزاد عدد النواب من أهل الزراعة كثيرا لان هذا المجلس مؤلف كله من هذه الطبقة الا قليلا . أما مجلس السناتو «الاعيان» في فرنسا فانه لا يختلف كثيرا فى تشكيله عن مجلس نوابها وقد كتب موسيو «تاين» كلاما مفيداً جدا أثبت فيه ان الانكليز يرون النيابة الطبيعية عنهم راجعة الى اهل الزراعة فمالوا الى انتخابهم «راجع كتاب مذكرات على انكلترا صحيفة ٢١٦ الى ٢٢٤»

تشكيل مجلس النواب فى فرنسا



وبهذا الجدول يمكننا أن ننظر الى جميع الحرف التى يتألف منها مجلس نوابنا نظرة واحدة ولنفرد الكلام على كل حرفة منها

يرى المطلع على هذا الشكل الذى يشبه الهرم اننى وضعت الزراعة والصناعة والتجارة فى أسفله لانها الاساس الاول فهى التى يحصل المرء بواسطتها عيشه اليومى وهى التى تقوم بها جميع الاعمال الاخرى وهى التى اذا اعتلت أصبح جسم الامة سقيما وان بادت باد معها كما ينعدم الجسم الانسانى لقلة الغذاء

تشكيل مجلس النواب فى انكلترة

موظفو الحكومة ٤٧
الجيش ٦٦
الحرف الادبية ١٠٧
التجار ١٠٠
الصناع ١٣١
الزراع ١٣٢
مجلس اللوردات مجلس اللوردات
١٢٠ ٨٠ ٤٠ ٣٠ ٣٠ ٤٠ ٨٠ ١٢٠

وقد يتصور الانسان ان أمة تعيش بدون محامين وأصوليين ووكلاء دعاوى وأطباء وموظفين ولكنه لا يسلم ان تعيش أمة بغير زراع ينتجون لها مادة غذائها الأولى وصناع يصنعون حاجاتها التى لا بد منها فى الحياة وتجار يوزعون هذا وذاك فى الأماكن المحتاجة اليهما

وجدولنا يدل على ان النيابة عن الحرف الثلاث الأولية قليلة جدًا وهذا أمن لا يخلو من الخطر بذاته ويظهر لنا الخطر عظيما اذا أمعنا النظر فى كل حرفة على حدتها

أما الزراعة فيجب ان تكون هى الأساس الذى يبنى عليه ما عداه لأنها أشد لزوما فى الامة من الصناعة والتجارة لا لمجرد انها هى القائمة بأمر

الحياة مباشرة بل لكونها أيضاً من جميع الحرف وأثبتها قدما وثباتها من ثبات الارض التى هى محلها ولا يعتريها التغير الفجائى الكلى كما يعترى الصناعة والتجارة فالزراعة مستقرة الى حد انها صارت طبيعية فى الأمم لذلك قيل فى الزراع هكذا وجدنا آباءنا واستقرارها يجعلها الأس المتين فى الأمة لانها تجذب قسما منها وتجعله ملتصقاً بالبلاد متمسكا بتقاليدها وقلما تجد النظام والدوام عند غير الزراعين . وقد تبين ان هذا العنصر الذى به حياة الامة لايوجد فى مقدمة النيابة الملية عندنا على نسبة ماله من الاهمية الاجتماعية فما عدد الزراع فى مجلس النواب الا اثنان وسبعون وهو قليل جداً بجانب المائتين والسبعين من أهل الحرف الادبية وهذا العدد على قلته يجب تنقيصه اذا لوحظ انى أدخلت فيه أصحاب الاراضى الذين لايحترفون بحرفة ما وليسوا كلهم مشتغلين بالزراعة أومهتمين لها بأكثر من مداليد لتناول الايراد أوالصياح من سوء الحال والكساد

ومن أولئك النواب اثنان وعشرون لايصدق عليهم من الزراعة الا تسميتهم بالزراع لانهم يسكنون فى باريس طول السنة ولا يقيمون فى الريف الايسيرا ويرتبكون فى جواب من يسألهم عن حركة الزراعة وأحسن الطرق فيها ومقدار ما ينتجه (الهكتار) والفرق بين منفعة السماد المعتاد والسماد الكيماوى وطريقة صنعه وهكذا . ولهذا رأيت من الواجب تمييزهم بعلامة مخصوصة حتى يكون التقسيم مطابقا للواقع فدللت على نسبتهم بخط من النقط

اذن لايوجد فى مجلس النواب من أهل الزراعة الحقيقيين الا خمسون

عضواً ومع ذلك لست على يقين من انهم يستحقون هذا الاسم جميعاً والاولى أن لا ندقق البحث فيهم

وليس من الطبيعي ان تكون تلك المهنة على ماقد علمت من الاهمية لما يرتبط بها من المنافع العمومية ولكثرة عدد المحترفين بها وان يكون هذا عدد النائبين عنها ولا بد لهذا التباين في النسبة من مؤثر قوى قديم العهد نشأ عنه عندنا هذا الاثر الذى لايشاهد مثله فى الامم الاخرى ولا أراه الا هرب كبار أصحاب الاطيان من الزراعة وهجرهم الريف بسكنى المدن وقد بدأ بهذه الهجرة منذ قرنين العدد العديد من الاشراف أصحاب الاراضى الواسعة وتكاثفوا بين جدران مدينة « فرساى » حيث أصبحوا حاشية للملك وتباعا فى معيته واتبعهم في ذلك أواسط أرباب الاملاك من أهل الريف

ليس من بلد أهملت فيها الزراعة واحتقر الاحتراف بها مثل ماأهملت واحتقرت في فرنسا حتى ان الرجل لايرضى ان يكون ابنه زراعا الا اذا رآه لايليق للاحتراف بغيرها وأصبحت معيشة المرء فى أرضه أشد وقعاً على النفوس من أتعس المنافى وقد يفضل الفرنساوى وظيفة فى « برسلونيت » على المعيشة فى أرضه التي يملكها وأرادت الجرائد الجمهورية سنة ١٨٧١ ان تحط من منزلة بعض أعضاء الجمعية الملية العمومية فا كتفت بأن وصفتهم بأنهم « ريفيون »

أصبح التباعد عن الزراعة وما يتعلق بها أمراً عاديا عندنا حتى ان قساً من قسس باريس قال ذات يوم لاحد أصدقائى وكان من سكان ولايته (كيف تكلف نفسك ان تعيش فى الريف وفى امكانك مع ماأنت فيه من

سعة المال ان تعيش عيشة راضية فى باريس)

اذا كانت هذه الافكار مما تقرر فى الاذهان حتى عند أعظم الرجال كمالا ووقاراً لم يعد من المستغرب ان تفقد النسبة بين أهل الزراعة وبين عدد النائبين عنهم فى مجلس النواب ولا ان ينوب عنهم من كان أقلهم جدارة واستعداداً . ولا حق لأرباب الأملاك الواسعة ان يلوموا الا أنفسهم على سقوط اعتبارهم عند المنتخبين الذين يفضلون عليهم غيرهم من الاطباء والموثقين ووكلاء الدعاوى والمحامين كما سنبينه

لست أنسى حادثة شهدتها فى مجلس « لابلى » وهى انه جاءه فى اليوم الثانى للانتخابات العمومية رجل من أصحاب الاملاك الواسعة فى اقليم « صانتر » وشكا اليه من ان الانتخاب لم يصبه وكان يتألم كثيراً من ذلك لانه وأباه من قبله وجده كانوا نوابا عن أهل ناحيتهم وصار يصخب ويفوق سهام الملام على المنتخبين ويندب فساد الافكار وانتشار مبادئ الثروة الى غير ذلك من الاقوال فقاطعه « لابلى » سائلا (سيدى الكونت أين كان يسكن جدكم قال فى أرضه وكان لا يأتى باريس الا نادراً قال وأين كان يقيم والدكم قال لما تزوج أبى اتخذ مقامه الحقيقى فى باريس قال وأين تقيمون قال وأنا كذلك فقال له « لابلى » وقد أخذ فى كلامه ما كان يعرف عنه من انتهاز مخاطبه أحيانا اذن لا حق لك فى شكواك من المنتخبين . هب انهم أقاموا على الولاء لك بعد ولاءهم لابيك الى يومنا هذا مع انك تركت الاقامة بينهم والاهتمام بمصالحهم وصرف المال الذى تأخذه من بلدهم فيها لكنهم سئموا طول المدى فاختاروا لهم رجلا أقل صفاته انهم يرونه فى كل

يوم وانهم يرجعون اليه كلما مستهم الحاجة لطلب المعونة واحتاجوا الى المشورة وقد أخذ ذلك الرجل مكانك لانك تخليت عنه منذ جيلين) ولا أذكر انني رأيت ذلك النائب الذى استولى اليأس عليه عند (لا بلى) مرة اخرى

هذا مثل الكثير من اتراب صاحبنا وربما صار يوما مثل ارباب الاملاك العظيمة فى الاقاليم الغربية الذين لا يزال الاهالى يرسلونهم الى مجلس النواب والسبب فى انهم لم يتركوا الى الآن طول الزمن الذى قضاه أباؤهم بين أولئك الاهالى

وأما الصناعة والتجارة اللتان عليهما مدار العمران بعد الزراعة فنصيبهما فى مجلس النواب أقل من نصيبها لانا لانجد فيه الا واحداً واربعين صانعاً واثنين وعشرين تاجراً مع ان عدد أهل الصناعة والتجارة عظيم والمنافع التي هي بين ايديهم ذات اهمية كبرى ولا بد من سبب ادى الى ضعف النيابة عنه . وهنا لا يمكن اتهامهم بانهم تركوا حرفهم كما فعل اهل الزراعة لان الصناعة والتجارة تطلبان مباشرة أصحابهما كل يوم مع العناية والاهتمام واذا ابتعدوا او فترت همتهم ولو قليلا تقهقروا لساعتهم بتغلب المتسابقين وافضى بهم الحال الى الافلاس . ولكن هذه الضرورة التي تلجئهم الى مباشرة أعمالهم ولا تمكنهم من اغفالها يوما واحدا هى التى لاتتفق مع نظام المجالس النيابية عندنا لان السلطة فى بلادنا مجموعة فى يد الحكومة العالية فاليها يرجع الفصل فى جميع المنافع عظيمها وحقيرها وكلها يجب عرضها على المجالس النيابية لتبدى رأيها فيها ولذلك تستغرق جلسات هذه المجالس أكثر أيام

سعة المال ان تعيش عيشة راضية في باريس)

اذا كانت هذه الافكار مما تقرر فى الاذهان حتي عند أعظم الرجال كمالا ووقاراً لم يعد من المستغرب ان تفقد النسبة بين أهل الزراعة وبين عدد النائبين عنهم فى مجلس النواب ولا ان ينوب عنهم من كان أقلهم جدارة واستعداداً . ولا حق لأرباب الأملاك الواسعة ان يلوموا الا أنفسهم على سقوط اعتبارهم عند المنتخبين الذين يفضلون عليهم غيرهم من الاطباء والموثقين ووكلاء الدعاوى والمحامين كما سنبينه

لست أنسى حادثة شهدتها فى مجلس « لا بلى » وهى انه جاءه فى اليوم الثانى للانتخابات العمومية رجل من أصحاب الاملاك الواسعة فى اقليم « صانتر » وشكا اليهِ من ان الانتخاب لم يصبه وكان يتألم كثيراً من ذلك لانه وأباه من قبله وجده كانوا نوابا عن أهل ناحيتهم وصار يصخب ويفوق سهام الملام على المنتخبين ويندب فساد الافكار وانتشار مبادئ الثروة الى غير ذلك من الاقوال فقاطعه « لا بلى » سائلا (سيدى الكونت أين كان يسكن جدكم قال في أرضه وكان لا يأتى باريس الا نادراً قال وأين كان يقيم والدكم قال لما تزوج أبى اتخذ مقامه الحقيقى فى باريس قال وأين تقيمون قال وأنا كذلك فقال له « لا بلى » وقد أخذ فى كلامه ما كان يعرف عنه من انتهاز مخاطبه أحيانا اذن لا حق لك فى شكواك من المنتخبين . هب انهم أقاموا على الولاء لك بعد ولائهم لابيك الى يومنا هذا مع انك تركت الاقامة بينهم والاهتمام بمصالحهم وصرف المال الذى تأخذه من بلدهم فيها لكنهم سئموا طول المدى فاختاروا لهم رجلا أقل صفاته انهم يرونه فى كل

يوم وانهم يرجعون اليه كلما مستهم الحاجة لطلب المعونة واحتاجوا الى المشورة وقد أخذ ذلك الرجل مكانك لانك تخليت عنه منذ جيلين)

ولا أذكر انني رأيت ذلك النائب الذى استولى اليأس عليه عند (لا بلى) مرة اخرى

هذا مثل الكثير من اتراب صاحبنا وربما صار يوما مثل ارباب الاملاك العظيمة فى الاقاليم الغربية الذين لا يزال الاهالى يرسلونهم الى مجلس النواب والسبب فى انهم لم يتركوا الى الآن طول الزمن الذى قضاه أباؤهم بين أولئك الاهالى

وأما الصناعة والتجارة اللتان عليهما مدار العمران بعد الزراعة فنصيبهما فى مجلس النواب أقل من نصيبها لانا لانجد فيه الا واحداً واربعين صانعاً واثنين وعشرين تاجراً مع ان عدد أهل الصناعة والتجارة عظيم والمنافع التي هي بين ايديهم ذات اهمية كبرى ولا بد من سبب ادى الى ضعف النيابة عنه . وهنا لا يمكن اتهامهم بانهم تركوا حرفهم كما فعل اهل الزراعة لان الصناعة والتجارة تطلبان مباشرة أصحابهما كل يوم مع العناية والاهتمام واذا ابتعدوا او فترت هممهم ولو قليلا تقهقروا لساعتهم بتغلب المتسابقين وافضى بهم الحال الى الافلاس . ولكن هذه الضرورة التي تلجئهم الى مباشرة أعمالهم ولا تمكنهم من اغفالها يوما واحدا هى التي لاتتفق مع نظام المجالس النيابية عندنا الان السلطة فى بلادنا مجموعة فى يد الحكومة العالية فاليها يرجع الفصل فى جميع المنافع عظيمها وحقيرها وكلها يجب عرضها على المجالس النيابية لتبدى رأيها فيها ولذلك تستغرق جلسات هذه المجالس أكثر أيام

السنة تمامها . ومما يطيل أوقات الاجتماع ما اعتادوا عليه اثناء انعقاد الجلسات من كثرة المقاطعة وحشو المباحث بالامور التافهة والانتقال منها الى الشخصيات والجنوح الى السفسطة والصبيانيات ولذلك اسباب سنأتى على ذكرها فيما بعد كل هذا يستغرق وقتا طويلا ويستلزم ادامة الجلسات الا قليلا . وليس فى استطاعة أهل الصناعة والتجار ان يتركوا اعمالهم هذا الزمن كله لذلك تراهم يفضلون العزلة عن الانتخابات ولا يترشحون الى النيابة . ومما يزيدهم رغبة فى العزلة حالة الترشح التى صارت بحيث لا تروق فى أعين أهل الجد والكمال الذين تعودوا الاخذ والعطاء في الامور المهمة اذ ينبغي لمن يترشح لعضوية المجالس ان يعرض نفسه للمطاعن الفادحة التى يوجهها اليه سوء النية وللشتائم والسباب التى ترميه بها الجرائد المضادة لمذهبه . كذلك ينبغي ان يحضر الاجتماعات العمومية وليس الهدو وسلامة الذوق من مميزاتها . وليس فى الاستطاعة مقاومة تلك الامخاخ المائجة الا اذا كان الرجل متعودا على الكلام عارفا بطرق التمليق والاكثار من الوعود حتى ماعزي الوفاء به عالما باساليب التفيهق ورص الجمل الطنانة التى لامعنى فيها وتلك حال لايحسنها من تفرغ لاعمال الصناعة والتجارة الكبرى فانها اعمال لاتؤهل صاحبها الى مثل ذلك ولا تجعله يرغب فيه . أما أهل الصناعة والتجارة الذين يقتحمون اخطار الانتخاب فهم واحد من اثنين . فأما رجل أمن على مكسبه وصار بذلك قليل الاهتمام بحركة صناعته اوتجارته تخرج عن مجري الاحوال فيها وأما رجل خاب فى صناعته أوتجارته فلم يبق لديه مايخاف عليه ان تركها

تلك هى الاسباب التى لاجلها أصبحت الحرف الملية الحقيقية أعنى الزراعة والصناعة والتجارة وليس لها من النواب الا القليل ونوابها هم فى الواقع أبعد أهلها عنها

بقى علينا أن نعرف من النائب عنا

يرى القارئ فوق تلك الحرف الثلاث تجسما هائلا حيث ينبعج الشكل ويتمدد تمددا كبيرا فيكاد عدد أهل الحرف الادبية يبلغ نصف عدد النواب كلهم لانهم مائتان وسبعون نائبا أعنى ضعف أعضاء الزراعة والصناعة والتجارة . والعنصر الغالب فيهم هم الاطباء وأرباب الجرائد والموثقون وعلى الخصوص المحامون . ولندخل بين ذلك الجمع لنقف على حقيقة تركيبه

يبلغ الاطباء والصيدليون ثلاثة وخمسين عضواً فعددهم كعدد أهل الزراعة تقريبا ويزيد على عدد أهل الصناعة والتجارة معاً وليس ذلك لان صناعة الطب توجد فى الانسان استعدادا مخصوصاً لمداواة الهيئة الاجتماعية من أمراضها فانامهما اجتهدنا لانرى ارتباطاً بين الطب الباطنى فى الامراض والوقوف على حقيقة ماتشكو الامة من الآلام . كذلك لاتوجد نسبة بين سعادة الامة وعدد الاطباء فيها كالنسبة الموجودة بين تلك السعادة وبين عدد الزراع والصناع والتجار . ولا نحسب الاطباء أيضاً يتأثرون باختلال سياسة الامة وشبوب نيران الثورة الاجتماعية أكثر من غيرهم ولو كان الامر كذلك لظنناهم أشد الناس اقداما على سد الخلل ومنع الخطر . لكنا نرى الامر بعكس هذا فبينما الصناعات الثلاث الاولى تصبح كاسدة بل تقف حركتها بما يطرأ على السياسة من الاختلال نشاهد صناعة الطب

غير متأثرة أبدا لانها انما تتعلق بسوء حال الاجسام والامراض الطبيعية فى الانسان لابحسن حال الاجتماع . ومما يدهشنا أن يكون عدد الاطباء كثيراً الى هذا الحد فى مجلس النواب مع ماتحتاجه تلك الصناعة من استمرار مزاولتها والعمل فيها واذا غاب الطبيب تركته الزبائن لان المريض لايقوى على الاصطبار ومن هنا جاء أن أغلب الاطباء فى مجلس النواب ليس لهم زبائن أما الذين كثر عملهم ففائدتهم فى الاحتفاظ على زبائنهم ولا يفضلون عليهم اقتحام مخاطر الانتخاب وطلب النيابة من مواطنيهم ولا يبيعون مرتزقا مأمونا كثير الربح بحالة قل كسبها وبعيد أن تدوم . أذن ليس أولئك النواب نخبة بنى حرفهم وعليه فليسوا بعضد قوى للنيابة الملية

ولكي نقف على سبب انتخاب هذا العدد العظيم منهم ينبغي أن نعرف الامرين الآتيين

الاول ان أولئك النواب هم فى الغالب من حزب الشمال فمن الثلاثة وخمسين طبيبا وصيدلياً خمسون من الحزب المذكور وثلاثة فقط من حزب اليمين . ولا شك في أن صناعة الطب ليست هي التى غرست فيهم تلك الاميال حتى ضاعت النسبة كما ترى لاننا اذا رجعنا الى مجموع الاطباء كلهم لا نرى فيهم هذا الميل الى هذا الحد وسببه ظاهر لان صناعتهم ورغبتهم في تكثير عدد زبائنهم تجعلانهم لا يشتغلون بالسياسة الا قليلا .

ولقد نسلم أن هذا النقد لا يصدق على أطباء من النواب الذين ليسوا هم من خلاصة أهل الفن ولا ممن كثرت زبائنهم ولكننا لانسلم بان تأخرهم فى صناعتهم هاج خواطرهم وألقوا الاثم على الهيئة الاجتماعية فمالوا الى

المتطرفين فى السياسة انتقاما منها اذ اننا لا نرى سببا يمنعهم فى هذه الحالة من الانحياز لحزب اليمين الذى يلتقى مع حزب الشمال في محاربة نظام الهيئة الاجتماعية الحالى مع ان لهم فى الانحياز اليه مزية تمكنهم من اهتمام الحكومة بانها السبب فى اخفاقهم . والذى يؤيد ان هذا الدليل لا قيمة له هو تساوى عدد المحاميين الذين لا يجدون ما يشغلهم من القضايا فى حزب الشمال وحزب اليمين تقريبا اذا لوحظت النسبة بين جميع الاحزاب فى المجلس

الامر الثاني ان أغلب هؤلاء الاطباء يحصل انتخابهم من جهات الارياف والسر فى هذا ان أصحاب الاملاك الواسعة لا يقيمون غالبا فى الارياف كما قدمنا وان عددهم قليل أيضاً فى مجلس النواب فلما اختفوا عن أعين الاهالى قلت معرفتهم بهم وضاع ميلهم اليهم وهم فى ذلك مصيبون ورأوا انهم لا يستحقون أن يقوموا بالنيابة عنهم اذ لم يعد لهم بينهم من المآثر غير جمع المال منهم لينفقوه فى المدن التى يسكنون فيها . وأرباب الاملاك الواسعة هم فى الغالب من المحافظين فالنواب من أهل الزراعة فى المجلس خمسة وسبعون فيهم أربعة وخمسون من حزب اليمين وواحد وعشرون من حزب الشمال وبتركهم الريف يضيع نفوذهم بين أهله وينتقل بالطبيعة الى اعدائهم فى السياسة الذين هم من حزب الشمال فينتخبون بدلا منهم . ولا يوجد فى الارياف من يصح له أن يقوم مقام أولئك الملاك الغائبين الا الاطباء والمحامون والموثقون فلهذه الطوائف الثلاث نفوذ طبيعى بين الناس عظيم لكثرة من يخالطون والافضاء اليهم باسرار العائلات وما يقومون به

من الخدم اما بالارشاد مجانا واما باقراض الاموال . ثم هم نخبة النبلاء فى الارياف بعد الملاك فلا غرابة حينئذ اذا أصابهم الانتخاب وجلسوا فى مجالس النواب

تلك مشاهدة صحيحة وهى الصحيحة وحدها بدليل انك اذا راجعت عدد الاعضاء من كل طائفة فى كل حزب فى مجلس النواب رأيت الموثقين ووكلاء الدعاوى يكثرون حيث يكثر الاطباء فالموثقون سبعة عشر منهم أربعة عشر فى الشمال وثلاثة فى اليمين ووكلاء الدعاوى تسعة كلهم فى الشمال . . ثبت اذن ان أهل تلك الحرف لم يدخلوا مجلس النواب الا لهروب أصحاب الاملاك . أما البلاد التى حفظ كبار الملاك فيها نفوذهم ومكانتهم فلا يزال أطباؤها وموثقوها ووكلاء دعاويها يقومون بخدمتهم للمرضى والارامل والايتام وكل الناس هادئ مسرور

ولست اذكر شيئا عن المهندسين الملكيين لانهم سبعة نواب وهو عدد يسير سببه ان حرفتهم لا تمكنهم بطبيعتها كالحرف السابقة من اجتذاب القلوب واستمالة الاهالى

وأما أرباب الصحف فكثيرون اذ أراهم تسعة وخمسين كعدد أهل الزراعة على التقريب واكثر جدا من أهل الصناعة والتجارة ولا أظن ان أحدا يدعى انهم لازمون فى الامة لزوم الزراع وانهم أشد لزوما من أرباب الصناعة وأهل التجارة معا . وزد عليه ان أرباب الصحف لا يهمهم صلاح الحال فى البلاد وهدو الافكار واستتباب النظام العام كالزراع والصناع والتجار لحياة الجريدة من الحوادث تزداد أعدادها أيام الاضطراب ولذلك

تنشر بأحرف كبيرة أشد الاخبار اقلاقاً للراحة العمومية وتقل تلك الاعداد متى ساد السكون على الناس الا ان الجرائد لا تعدم سبيلا للرواج فتختلق الحوادث وتعظم ماصغر منها وتوقظ اللاهى وتحض على تهييج الافكار لأنها فى حاجة اليه . . انظر كيف يزداد عدد الجرائد فى أزمنة الاضطراب وكل من لم يطمس الله على بصيرته يقول ان تقدم الزراعة وارتقاء الصناعة ورواج التجارة انما يقوم بقتل الصحف وموت الجرائد

يقال ان أرباب الجرائد قد استعدوا للبحث فى المسائل السياسية لأنهم يخوضون فيها كل يوم . نعم أسلم انهم مستعدون للكلام فى كل موضوع الا انهم يتكلمون كما تتكلم الجرائد . وصاحب الجريدة مضطر بطبيعة حرفته الى التفكر عاجلا والحكم على الاشياء عاجلا والكتابة عاجلا فما لاحت له بارقة فكر الا كتب فيها من حينها اذ ليس عنده زمن ليمعن النظر فيها وكبار أهل الجرائد يعرفون ذلك ويشكون منه أما الآخرون فلا يخطر لهم هذا على البال بل يعتقدون فى أنفسهم ماشاء الله ان يعتقدوا ويقولون غير هازلين انهم أرباب زعامة فى الامة وأهل سيادة على الافكار

صاحب الجريدة محتاج الى تغليظ صوته ليسمع الناس ويحول الافكار اليه ضرورة قضت بها مهنته واستلزمتها حياة جريدته فهو يبالغ بطبيعة الحال كما اننا نأكل أو ننام . ان قال فى رجل انه نذل أووغد فمعناه ليس بأكثر من انه واياه فى الرأى مختلفان وليس لكلامه غاية يقصدها ولكن هكذا اقتضت لهجة الجريدة فوجب الصراخ حتى يسمع الناس كما يقع فى الموالد والاسواق حيث الوسيلة فى الفات القوم كثرة الجلبة على الأبواب وذلك

هو مايسمى بالمظاهرة

أتظن ياصاح ان تلك الخلال هى التى ينبغى للامة ان تطلبها من أولئك السياسيين وأنت تعلم ان البحث فى منافع الامة العامة وحكومة البلاد لا يتأتى الا لقوم اتصفوا بالحكمة وبعد النظر وسلامة الحكم والمسالمة وحسن الذوق ومعرفة الاعمال المفيدة ؟ لا أنكر ان بعض أهل الجرائد يعرفون ذلك الا انها صفات ليست هى الغالبة فى تلك الطائفة بالبلاد الفرنساوية ولذلك نشاهد ان النواب من أرباب الجرائد لم يساعدوا على ايجاد الهدو فى المناقشة واستعمال الحكمة فى مباحث المجالس النيابية وما كثر عددهم فى سراى البوربون الا لان الصحف فى تصرفهم والصحف هى رسل الانتخاب

أرباب الصحف ليسوا على نسبة واحدة فى الاحزاب فعددهم تسعة وخمسون منهم أربعة وخمسون فى الشمال وخمسة فى اليمين وسبب هذا الاختلاف ان حزب الشمال يعتمد على الفعلة وحزب اليمين يعتمد على الفلاحين وأولئك يقرأون الجرائد أكثر من هؤلاء وبهذه الواسطة اشتد تقرب أرباب الجرائد الجمهورية من جميع المنتخبين فى المدن أكثر من تقرب اخوانهم المحافظين الى أهل الريف . ولو ان أهل الريف قرأوا الجرائد لتضاعف عدد المحامين فى مجلس النواب . وبينما السبب فى اغارة الاطباء والموثقين ووكلاء الدعاوى على المجالس النيابية هو تمنع كبار الملاك حتى فقد أهل الريف رؤساهم الطبيعيين نرى السبب فى اغارة أرباب الصحف آتياً من أهل الصناعه الذين تركوا الفعلة بغير قائد فأصبحوا عرضة لغواية

الجرائد ولا حامى يحميهم ولا دافع يردها عنهم فالرؤساء هم المسئولون في الحالين

أكثر النواب من أرباب الحرف الأدبية هم أهل القانون والذين بلغوا مائة وتسعة وثلاثين عضواً غير القضاة وأمثالهم ممن هم في عداد الموظفين لأنهم وان اتحدوا معهم فى الصناعة لكن سبق وجودهم فى خدمة الحكومة جعلنا نفرد لهم قسما مخصوصا وهو قسم الموظفين . وقد ذكرت بين أهل القانون مدرسى الحقوق الستة لمجرد البيان فقط ثم اشتركت معهم الموثقين ووكلاء الدعاوى وقد سبق الكلام عليهم . بقى عندنا العدد الاكبر وهم المحامون .

يبلغ عدد المحامين مائة نائب وسبعة واريد بهم أولئك الذين توجد أسماؤهم في جدول المحاميين الرسمى ولا يزالون يشتغلون بحرفتهم أما عدد حائزى الشهادة فى علم الحقوق فيزيد فى المجلس على ثلاثمائة ولسنا نعلم أمة من الامم الماضية أو الحاضرة نشأ فيها متعلموا علم الحقوق بكثرة كما هو حاصل عندنا فى القرن التاسع عشر فهم غارة حقيقية بل طوفان وهم أصحاب الكلمة الحقيقيون فى مجلس النواب وفى فرنسا كلها وقد وضعوا ايدهم تمام الوضع على سير المجالس النيابية مما لم يسبقهم به أهل حرفة أخرى

كيف لا يكثر عددهم والمحاماة فن يسهل تركه كما يسهل الرجوع اليه وليس فى تركه ضرر برأس مال فعدة المحامى مكتبه ومكتبه فى الغالب قسم من مسكنه والنيابة طريقة من طرق الظهور لانها تتيح للمحامى فرصة بيان فصاحته ونشر بلاغته وفى سراى البوربون منبر أرفع من منابر المحاكم . هناك يتكلم الواحد من علو عظيم ويسمع صوته من بعيد . اذن فى وظيفة النيابة

مزية للمحامي تعطيه زبائن ان لم يكن لهم أحد منهم « وقد حصل » أو تكثر عددهم . ثم ان ضرورة الكلام فى الاندية العمومية والمجتمعات التي يحجم عندها كثير من أهل الزراعة هي من الامور المقبولة عند المحامى فالكلام صنعته ومن هنا كان له على المتسابقين معه مزية كبرى

غير ان المحاماة لا تهيء الانسان الى ادارة مصالح البلاد كما تسهل له الدخول فى مجلس النواب لانها لا تتأثر باعتلال الاحوال العمومية كما هو الحال فى الزراعة والصناعة والتجارة بل الظاهر انها تستفيد من ذلك الاعتلال لان قوامها الدعاوى وهذه تكثر كلما كسدت الاعمال فتتولد القضايا السياسية فى أزمنة الاضطراب وتتولد القضايا بين الاقارب متى فسد نظام العائلة وعلى هذا فسوء حال المحامى فى قضاياه لا يدله على سوء مجرى الاحوال السياسية بل بالعكس

يقال انهم تعودوا على المباحث القانونية واختبروا القوانين فأصبحوا قادرين على التشريع وصحيح انهم يعرفون بمقتضى مهنتهم قوانيننا واحداً بعد واحد وواقفون على المذاهب التى ذهبت في تفسيرها وهم بذلك يفيدون النيابة الملية الا انهم لسوء الحظ ميالون الى تغليب الجانب النظرى الذى هو ميدانهم على الجانب العملى والمنافع الحية التى ليست بين أيديهم

قضوا حياتهم بين النصوص فكان منهم ان حسبوا لها تأثيرا لا مرد له والتأثير فى الواقع غير موجود واعتقدوا ان الامم انما تساس بوضع القوانين فقللوا من تأثير القوة الحيوية الذاتية واضعفوا تأثير الصنائع والفنون الجارية وهذا الميل هو الذى حمل أهل القانون فى الزمن القديم على الدفاع أى دفاع

عن حقوق الملوكية حتى أطلقوها من كل قيد اضراراً بحقوق الرعايا وحرية الافراد واستقلال البلاد وهم الذين لم تفتر لهم همم فى زمننا هذا من حزب اليمين كانوا أو من حزب الشمال عن جمع سلطة البلاد فى قبضة الحكومة العليا فادخلوا يدها الثقيلة فى كل ناحية ولم يرفعوا أصواتهم بالشكوى منها الا اذا رأوها فى جانب خصومهم السياسيين وهم المسئولون قبل سواهم عن اتساع دائرة المصالح الاميرية والدواوين الفرنساوية التى أضرت بمالية البلاد ووقفت حجرعثرة فى سبيل انتشار همم الافراد . وعليهم نصيب فى سقوط منزلة النظام الشوروى لان عادة ارتجال القول فيهم حملتهم على اطالة المباحث بكلام فصيح لكن بغير فائدة بدلا من المداولات المفيدة العملية التى تقتضي معارف مخصوصة وأصبحنا نسمع الناس يصيحون فى كل مكان طالبين مجلس نواب يقصر همه على الاعمال ووزارة تثني العنان عن النظريات أقول وزارة لانى أرى المحاميين قد شغلوا أهم مركز بين النظار والعيب فى هذا راجع الى نظام مجالسنا لانه يطلب فى الوزير قولاً رجيحا لا عملا مليحا ويشترط فيه من الصفات ما يزهو به الانسان لا ما تظهر فوائده الحقة للعيان . ترى النائب ان رام الكلام وجب أن يرقى منبر الخطابة لا ان يتكلم من مكانه كما فى مجلس نواب الانكليز ومتى توسط ذاك المقام لزمه أن يقدم مقدمة قبل الدخول فى الموضوع ويختم بخاتمة اذا انتهى فيضيع جزءاً ثمينا من الوقت فى فيهقة ورص ألفاظ ضخام ويقصى من المناقشة جميع النواب الذين لا قدرة لهم على طلاوة اللسان وأولئك هم الذين فى الغالب يعرفون حقيقة الاحوال الخبيرون بحاجات البلاد بدليل ما هو مشاهد فى

اللجان حيث يظهر فضلهم وكان الواجب ان يبقى القول قولهم فى الجلسات العمومية فمن المقرران أكثر النواب عملا أقلهم كلاما ونظامنا يبعدهم فى زوايا الخمول ويصدر للناظرين كل منطق فصيح

والخلاصة ان المحامين قد يفيدون النيابة الملية بما لديهم من المعارف الخصوصية ولكن لسوء الحظ زاد عددهم عن نسبة اهميتهم فى الامة فصاروا أصحاب النفوذ فى المجلس ووجهوا حركته الى حيث تسوء العقبى

وبقدر ما اغار المحامون على المجالس النيابية تأخر أهل الدين والجنود فلا ترى من الاولين فى المجلس سوى رجلين اما لانه يصعب على الرؤساء الروحانيين أن يجتازوا متاعب الانتخاب واما لخوف الناس من تسلطهم على الحكومة . والسبب فى ان رجال الجيش لا يزيدون على ستة نواب حظر القانون على جميع الضباط الذين فى الخدمة الدخول فى المجالس النيابية فلا يمكننا حينئذ ان نذهب مذهبا فى قلتهم

هذا وقد استوى الموظفون على قمة الشكل الذى رسمناه وهم الفريق الاكثر عدداً بعد أهل الحرف الادبية وليلاحظ انا نعد الموظفين باعتبار وظائفهم التى كانوا يشغلونها قبل الانتخاب لان النيابة والوظيفة لا تجتمعان . وهم ينقسمون الى ثلاثة وعشرين قاضياً واثنين وسبعين موظفا اداريا فالمجموع خمسة وتسعون عضواً وهو عدد أكثر من عدد الزراع والصناع والتجار معاً . واكثر أولئك الموظفين من رجال القانون ولكنهم زادوا على معارفهم الاصلية خبرة باحوال الناس وتعودوا بمقتضى وظائفهم على احترام أعمال الحكومة وعرفوا جميع الطرق التى تؤيد فوزها وتوجب نصرها وقوم

هذه صفاتهم يظن انهم أولى بالانتخاب لكونهم أدرى بمصالح البلاد وأحق أن يكون لهم العدد الاوفر بين النواب واعدل القضاة للحكم فى المنفعة العامة ولبيان ما فى هذا الظن من الخطأ او الصواب نبحث فى المنفعة العامة

المنفعة العامة تقتضى أن يكون ثمن الحكومة رخيصا حتى لا نكلف الامة من المال الا يسيراً لكن منفعة الموظفين تقتضى أن يكون ذلك الثمن رفيعاً الى حد الامكان فبقدر ضخامة الميزانية توجد الوظائف تحت تصرف الحكومة وتمتد الاطماع لنوالها . الا ترى فى كل سنة أن النفوس تميل الى التوفير والاقتصاد سداً للعجز الذى يزداد عاماً بعد عام حتى اذا حان زمان البحث فى ابواب الميزانية وتتابعت الفصول الربعضها تغير شعور مجلس النواب وانحرف ذلك الميل الاولى وتحرك الخمسة وتسعون موظفا بحركة شديدة لا دافع لها أمام تلك الميزانية التى هى دجاجة البيض الذهبى عندهم وقاموا يدافعون عن حوزة المال الذى عاشوا منهُ واليهِ المصير اذا خرجوا من مجلس النواب . ولهم فى دفاعهم نصير من أهل الحرف الادبية لأملهم اذا ضاقت عليهم رواتب المجالس ان يجدوا فى الحكومة ملجأ يأوون اليه كما يفعل فار القصة المشهورة فى الجبنة الهولندية . ولما كانت الحرف التى تقدم الاموال للحكومة أقل عدداً فى المجلسين من التى تعيش من ذلك المال ينتهى الامر بالاقرار على الميزانية ويؤجل الاقتصاد الى أجل غير مسمى الا ان الامر لا ينقضى بالاقرار على المصروفات لذلك يركض النواب نحو الاقتراض ووضع الضرائب الجديدة رغما عن وعودهم التى وعدوا الذين استنابوهم وهكذا يعظم العجز سنة بعد أخرى

المنفعة العمومية تقوم بتبسيط مصالح الحكومة وعدم الاكثار من انواع فروعها حتي تسهل على الناس معرفة جهات اشغالهم وتقضى شؤونهم كما ينبغي فى زمن قصير . ومن مصلحة الموظفين بقاء التعقيب الحالى وهم ينجحون على الدوام فى تأييده رغما عن المعارضين فى بقائه اوعن مشروعات الاصلاح التى تقدم فى كل حين . اما فائدتهم من بقائه على ماهو عليه فهى ان التعقيد يجعل وجودهم لازما لحل مشكلاته ويوسع في اختصاصاتهم ويصير التنقيب عليهم عديم الجدوى وبهذا يصيرون اقوياء مستقلين غير مسئولين

ومن المنفعة العمومية ان لاتتداخل الحكومة فى الاحوال الخصوصية المتعلقة بالافراد او بالقرى كل واحدة على انفرادها وان لاتعيق همم الافراد عن العمل بما ينبعثون اليه فى طلب مصالحهم وان لايجدها الانسان امامه كسور من حديد يصده كلما تحرك يمينا او شمالا او كلما أراد ان يدير بنفسه اقل الاعمال او يؤدى اقدس الواجبات . ومصلحة الموظفين تخالف كل هذا فلا تقوم الا اذا تداخلوا فى كل شئ يتعلق بالقرى والعائلات وكلما تداخلوا زادوا عدد الوظائف وزيادة الوظائف تجر زيادة الموظفين وهذا حال ضرره عظيم خصوصا وانه عام تشترك فيه جميع الاحزاب فمن الخمسة وتسعين نائبا واحد وخمسون من حزب الشمال واربعة واربعون من حزب اليمين وأقل شئ نختلف فيه هو حبنا جميعا للميزانية في كل عام

يقال ان كثرة عدد الموظفين فى الشورى غير معيب لانهم اداروا حكومة البلاد كلها فاكتسبوا الخبرة التامة فى أعمالها وعرفوا مايضرها وما

ينفعها وأصبحوا نوابا محنكين . والحقيقة ان خدمة الحكومة لاتربى الا أشد الرجال العموميين بغضا عند الناس لانها تقتل فى الرجل همته الذاتية والاستقلال وتميت شعوره بتبعة مايجرى على يديه من الاعمال وهى الصفات التى لابد منها فيمن تعرض لسياسة الامة . فان كان الموظفون من الحزب القابض على أزمة الاحكام رأيتهم تبعاً للحكومة قد أهدوها استقلالهم بما يرجون من حفظ مركز أونوال وظيفة عندها . وان كانوا من خصومه فهم أعداؤه لانهم خصومه يحاولون سقوطه لكي يسقط فهم ثورويون طبعاً بمحض انهم خصما . ضع نفسك بينهم تجدهم بين أمرين اما الموت أو الحياة لان الخدمة لم تؤهلهم الى كسب عيشهم بانفسهم فاصبحوا ولا عيشة لهم الا فى مخادع الوظائف العمومية . أذن لاعجب أن يحولوا وجهتهم الى قبلة واحدة ألا وهى خراب بصرة أى قلب حكومة الاخصام

لهذا يجب أن يكون في مجلس النواب أغلبية من أصحاب المنافع الحقيقة فى البلاد حتى تضم الموظفين وتحيطهم بدائرة لايظهر معها ضررهم . ويجب أن تتألف تلك الاغلبية من أهل الحرف الثلاث التى وضعناها فى أصل الشكل الذى قدمناه وهى الزراعة والصناعة والتجارة وقد رأينا أن عدد نوابها قليل وانهم ليسوا من الاخيار

هذا هو عيب نظام حكومتنا ولذلك فالموازنة مفقودة فى مجالسنا تدوم دوام اليقطين لان الاغلبية مؤلفة من الموظفين وأهل الحرف الادبية فقد بلغ عددهم ثلثمائة وخمسة وستين في مقابل مائة وخمسة وثلاثين نائبا عن

الحرف الجارية الثلاث

رأى القراء أن الشكل الذى قدمناه اليهم يشبه الحجارة العظيمة المتزعزعة لقيامها على أساس ضيق تموج في كل صوب لاقل صدمة تلاقيها أما تلك الاحجار العتيقة فثابتة أعنى انها تقاوم تقلبات الحوادث رغما عما بها من الاهتزاز وتمر عليها الاجيال وهي باقية ومن سوء حظنا أن الحال ليس كذلك عندنا فالنيابة الملية فى فرنسا تجرى مع كل ريح تهب من جانب الافكار وتسقط الى حيث تميل تارة فى الشمال وتارة فى اليمين فتهشم فى سقوطها المنافع الثلاث التى رزحت تحت أثقالها وأمست عاطلة مع أنها هي المنافع العمومية الحقيقية فى البلاد

الفرق بين حالنا وبين حال الامة الانكليزية فى هذا عظيم . ترى شكل نظام النيابة فى تلك البلاد لا يمثل ذلك الحجر الذى اختل مركز ثقله ولكنه يمثل اهرام الفراعنة ذوات القواعد العريضة القوية . هناك ترى نسبة التوازن مرعية وكل عنصر من عناصر الامة مستويا فى مكانه ونسبته تغيره على قدر المنفعة العمومية التي يشخصها وترى الحرف الادبية قد انحصرت فى دائرة مقبولة فزال شرها بل صارت كما ينبغى أن تكون زخرفا مليا وركنا مهما من أركان التقدم فى الافكار والآداب وملطفا لما عساه يتأتى من الافراط من جانب أهل الحرف الجارية

الضرر عندنا كل الضرر من أنه لم يمدلنا نواب طبيعيون

واذا أردت أن تعرف من النائب الطبيعى فاقرأ ما كتبه (تاين) (مذكرات على انكلترة صحيفة ٢١٧ الى ٢١٨) حيث يقول (انا النعجب باستقرار

الحكومة الانكليزية ولكن لاعجب لانها الخلاصة الطبيعية لتلك العناصر الحية التي علقت بالارض فى جميع انحاء البلاد . واذا فرضنا أن الحركة ثوروية كحركة اللورد غردون قامت في تلك البلاد وأدارتها يد أكثر تجاربا وأمهر سياسة وأضفنا اليها مطالب الفوضويين وضممنا اليها رجال الجيش وان كان محالا وحسبنا أن النتيجة العاجلة الكلية هي تقويض أركان المجلسين ومحق آثار العائلة الملوكية ثم نظرنا الى البلاد بعد ذلك رأينا أن قمة الحكومة هى التي عفت آثارها وما دونها باق لم يمسسه سوء لانك تجد فى كل قرية وكل ولاية عائلات ثابتة الدعائم تجتمع حولها عائلات مثلها ورجالا ذوي مكانة رفيعة من المهذبين وأهل الاحساب تبعثهم هممهم الى قيادة الزمام والتقدم الى الامام وللناس فيهم ثقة فيتبعونهم لانهم أبناء بجدتها بما عرفوا به من قبل من علو المنزلة وسعة المال وسابق الخدم وبما أتوا من التربية وحازوا من النفوذ ومنهم الضباط والقواد التي تلتف حولهم الجنود المتشتتة فيرجع الجيش على الفور الى نظامه بخلاف الامة الفرنساوية فان أواسط الناس فيها والفعلة والشرفاء وأهل الارياف كل يحذر من رفيقه وكلهم متخالفون متباغضون خائفون ولا رئيس الا الموظفون الذين هم عنهم أجنبيون والذين هم فى وظائفهم واجفون مؤقتون والذين لا يطيعهم أحد الا طاعة الخوف بلا ميل قلبي ولا احترام شخصى قد احتملهم المحكومون وهم فى احتمالهم مسيرون لا مخيرون . هكذا كانت حكومة الانكليز ثابتة لان للانكليز نوابا طبيعيين وقال فى موضع آخر صحيفة (١٩٠) ليست المدن في بلاد الانكليز كما هي عندنا الوطن المختار فانا اذا استثنينا المدن الصناعية

لا نرى أحداً يسكن عواصم الارياف مثل مدينة يورك الا البياعون الشراؤن أما خلاصة الامة وعظماؤها فبعيداً عن المدن يسكنون ومقامهم العزب والارياف حتي ان مدينة لوندره نفسها أصبحت ملتقى أهل الاعمال لاموطناً لاكابر الرجال)

ماأسعد الامم التي أسندت ظهرها الى نوابها الطبيعيين فتمكنت بذلك من ايجاد النسبة بين عناصرها فى النيابة الملية

الفصل الثانى

﴿ السبب فى أن الانكليز السكسونيين ﴾
﴿ أبعد عن مذهب الاشتراكين من الالمانيين والفرنساويين ﴾

الحوادث الاجتماعية كالنبات لكل نوع منها منبت مخصوص يظهر فيه والبزرة الواحدة لاتنبت فى جميع الاقاليم بكيفية واحدة بل للوسط تأثير عليها كما أن له تأثيرا فى كل شئ

ومذهب الاشتراكين لم يشذ عن هذه القاعدة ومن الواجب أن نعرف تاريخه كما ينبغى حتي نقف على حقيقة ذلك المذهب وترقيه

أصل نشأة مذهب الاشتراكين وأول تكوينه كان فى البلاد الالمانية ففيها منبعه ومنها انتشر فى بقية أرجاء المسكونة . ذلك ما أجمع عليه الاشتراكيون والذين كتبوا على مذهبهم قال موسيو (دولافلى) فى كتابه

(مذهب الاشتراكيين فى العصر الحاضر) صحيفة (٥) نقلا عن (بابمبرجر) احد النواب الالمانيين ما نصه (من الغريب ان افكار الاشتراكيين لم تجد مجالا فى أى بلد كما وجدت فى المانيا فانها لم تقتصر على الفعلة بل انجذبت اليها الطبقة الوسطى حتى سمعنا اهلها مراراً يقولون ربما صار الحال أحسن مما هو الآن اذا جرى العمل بالمذهب المشار اليه وانهم لا يرون سبباً يمنع من التجربة . وقد اخترق ذلك المذهب الطبقات العالية فى الامة ودخل فى جمعية المعارف واستوى على كراسى المدرسين . والعلماء هم الذين رفعوا اصواتهم بالشكوي من الحالة الحاضرة فتبعتهم جمعيات الفعلة والصناع والمحافظون هم الذين نددوا بالاختصاص فى الاملاك ونادوا بالويل على رأس المال ولسنا نرى نظيراً لذلك فى بلد أخرى) وقال فى مقدمة ذلك الكتاب نقلا عن نائب المانى آخر فى كلام له امام مجلس النواب ما يأتى (لقد حط جيش مذهب الاشتراكيين رحاله فى البلاد الالمانية وتربى عندنا التربية الفلسفية والعلمية)

وفى الواقع يجد الباحث فى المانيا جميع شيع هذا المذهب فمنهم الثورويون ومنهم المحافظون ومنهم الانجيليون والكاثوليكون والمدرسون فى المدارس . وهذا الانتشار يدل بذاته على ان جو البلاد الالمانية يلائم هذا المذاهب ويساعد على انتشارها وهو يظهر كثيراً ايام الانتخابات فللثورويين من أهله قسم كبير فى مجلس النواب وكان عدد الاصوات التى اصابت المترشحين منهم فى الانتخابات الاخيرة قريبا من مليون ونصف مليون فاذا اضفنا اليهم اهل الفرق الاخري كانت الاغلبية فى مجلس النواب

الالمانى للاشتراكيين

تختلف فرق الاشتراكيين فى مقاصدها ومطالبها الا انها متفقة كلها على امر واحد هو لب المذهب ورايته التي تخفق فوق رأس الجميع وعلامته الخاصة وهو وجوب حل جميع المسائل الاجتماعية بالقانون او بتداخل الحكومة فكلها تعلل النفس بحكومة تقرر طريقة الشغل وتحدد الملكية وتقدر الاجور وتتكفل باسعاد الامة فى مجموعها وفى كل واحد منها منفرداً بحيث تصير الحكومة رئيسا عاما للكل وبالجملة فالحكومة هى كعبة الامال الجديدة التى يحج اليها الاشتراكيون على اختلاف مشاربهم . ولكى يتبين هذا نأتى على طرف من احوال كل فريق

أقربهم الى المعقول هم الثوريون لانهم يذهبون برأيهم الى آخر ما يؤدى اليه وتكاد الفرق الاخري لا تعمل الا لخدمتهم اذ من عادة الفكر الانسانى متى قذف به فى منحدر ان يسير حتى يبلغ النهاية وهذا هو السبب فى ازديادهم على الدوام ومن بينهم نبغ استاذ مذهب الاشتراكيين الحالى الذي اكمل مبانيه وكان لرأيه تأثير عند جميع الفرق حتى المحافظين والمدرسين وهو (كارل مركس) ورأيه مبسوط فى كتابه المسمى (رأس المال) كتاب كله قضايا عقلية كقضايا الحساب بل هو أصعب منها قراءة وأتعب فهما ومبنى طريقته عدة استنتاجات مترتبة على حدود وتعاريف وفرضيات وحدسيات . فبأحدى القضايا يهدم المجتمع الانسانى الحاضر وبثانية يبنيه على اس جديد . ومن رأيه (ان العمل هو الوحدة الحقيقية التي يمكن تقدير قيمة جميع المصنوعات بحسبها ومعرفة الفرق بين الانواع

وبعضها » اذن فالعمل وان شئت فقل العامل هو الذى يوجد رأس المال وعليه فرأس المال كما وجد اليوم انما هو نتيجة تعدّ واغتصاب ومن هنا وجب رد المال لمالكه الحقيقى والمالك الحقيقى هو مجموع الفعلة والعمال اعنى انه يجب رد المال الى الجمعية ذاتها وهى الكل . وهكذا أخذ المؤلف يترقى من رتبة الى رتبة حتى انتهى باعتبار الحكومة رئيسا عاما هو الذى عليه ادارة العمل كله وتقسيم ثمرته بين الجميع بالعدل والانصاف . وقد تلقى الاشتراكيون الثورويون هذه المبادئ واستخلصوا منها طريقة قرروها بينهم سنة ١٨٧٧ فى مؤتمر « غوطا » واليك أهم ما تقرر

« ان العمل منبع كل ثروة وكل تمدن ولما كان العمل العام المفيد لا يتيسر الا للامة كلها فالثمرة كلها ملك لها أى لجميع افرادها ولكل واحد الحق فى نصيب يناسب حاجاته التى يقبلها العقل وعلى الجميع أن يعملوا

ان آلات العمل فى الهيئة الحاضرة محتكرة بين أيدى ذوى الأموال ومن ذلك كان الفعلة مسيرين بامرتهم وهذا هو السبب فى الشقاء والاستعباد على اختلاف طرقه واحواله . وعتق الناس من هذا الحال يقتضى ان تصير تلك الآلات كلها ملكا عاما للهيئة بتمامها وعليها أن تضع نظاما لجميع الاعمال وان يكون عمل الكل لمنفعة الكل وأن تقسم الثمرة على الجميع بلا غبن ولا تمييز »

اما كيفية الاجراء فى الهيئة الجديدة التى يطلبونها فهو ان يصير كل فرد عاملاً فى عمل حيث كان ويعطى لكل عامل أجر على كل عمل أتمه باعتبار متوسط الساعات التى تلزم لاتمام ذلك العمل ويدفع له فى ذلك وثائق تدل على عمله ليستبدلها بما يريد من المصنوعات وتوضع هذه المصنوعات فى

مخازن عمومية يصرح للموكلين بها باستبدال البضائع بالوثائق والوثائق بالبضائع وتصيير العقارات بانواعها ملكا للحكومة ويعيش كل انسان من العمل أو الوظيفة التي كلف بها فلا يدخر الرجل الا اليسير ولا يترك لورثته الى ما كان مالا منقولا

وأشهر رؤساء فريق الاشتراكيين الثوريين في هذا الحين ثلاثة هم موسيو « بيبيل » و « ليبكنخت » و « ڤولمار » والاول كان صانعا بيده فى أحد المعامل والثانى من أهل الطبقة الوسطى والثالث من أقدم العائلات العظيمة فى بلاد « باڤير » وكان من ضباط الجيش الالمانى والجيش البابوى وأولئك الرؤساء الثلاثة يشخصون حقيقة مذهب الاشتراكيين فى المانيا كما ينبغى ويدلون على ان جذوره تمتد فى اعماق الطبقات النازلة وتنتشر فروعه بين الاواسط حتى تصل أعلى درجة فى الناس . وقد أصبحت المانيا متشبعة بهذا المذهب من تحتها ومن فوقها على اختلاف فى الدرجة وتفاوت فى قوة الانتشار . ومع هذا فريدو الطائفة الثورية هم من الطبقة النازلة الا قليلا وأما الاواسط والاشراف فانهم يفضلون الطوائف الاخرى لانها اكثر اعتدالا وهى التى بقى الكلام عليها

قدمنا انه يوجد فى المانيا بين فرق الاشتراكيين فرقة تسمى بالمحافظين ولاحظ موسيو « دولاڤلى » صحيفة (٣٣) ان كلمتى اشتراكيين ومحافظين متنافرتان لان اشتراكى يرمى الى هدم ما بناه المحافظ ومع هذا فقد وجد حزب اتخذ الكلمتين اسما له وليس من المجازفة ان نقول ان اشهر رئيس له هو البرنس دى بسمارك على نوع ما . ولا تذهب هذه الفئة كسابقتها الى

وجوب القاء آلات العمل كلها بين يدى الحكومة وانما يصدق عليها اسم الاشتراكيين لانها تذهب الى حل جميع المسائل الاجتماعية بوضع نظام محكم وبزيادة تداخل الحكومة حتى تصير مناطة بادارة العمل وتقدير الاجور وسن القواعد لجميع طرق الانتاج والتحصيل . ورجال هذه الفئة هم فى الغالب من الاواسط الذين يخافون من مذهب الثورويين ويريدون الهرب من غائلتهم بدفع الامة كلها الى حما الحكومة كانهم يقولون لها (اعملى أنت ماهم عاملون ان فى ذلك نجاتنا أجمعين) وكل يعلم مسارعة امبراطور ألمانيا الشاب الذى يري أنه خبير بكل شئ الى تلبية هذا النداء . لذلك أتى بمظاهرات عدة كانت عقيمة العاقبة بمقدار مادوت في الارجاء وهو اليوم الرئيس الحقيقى لحزب الاشتراكيين المحافظين

وأما فئة الاشتراكيين الانجيليين فسميت كذلك لان رؤساءها من رعاة الكنيسة الرسمية وقد قامت كالتى قبلها لتؤيد الملوكية فى الاذهان وتساعد على انتشار نفوذ الملك متذرعة فى ذلك بمذهب الاشتراكيين وهى أيضاً تطلب حل المسائل الاجتماعية من الزيادة فى وظيفه الحكومة وتأييد تداخلها حتى تكون الرئيس العام لجميع الناس . واليك طرفاً من مقاصدها

(ان حزب الفعلة الاشتراكيين المسيحى مؤسس على الاعتقاد الدينى والولاء للملك والوطن وهو يطلب من الحكومة ايجاد طوائف للحرف ممتازة عن بعضها بحيث يكون لكل منها نظام قانونى فى جميع المملكة ويكون من مقتضى ذلك النظام تحديد شروط الاحتراف تحديدا دقيقا

وان تشكل مجالس تحكيم تكون قراراتها نافذة على أصحاب الشأن فيها — وان تنشأ صناديق لاعانة الارامل واليتامى وعجزة العمل — وأن تحدد ساعات الشغل على حسب طبيعة العمل — وأن تستغل أملاك الحكومة وأملاك القرى لفائدة الفعلة ويزاد على تلك الاملاك كلما كان ذلك مفيدا من الجهتين الاقتصادية والفنية — وأن يضرب على الايراد خراج يترقى بزيادته وأن يضرب رسم على التركات يترقى بحسب أهميتها وبعد قرابة الوارث من المتوفى)

فاقصى مايتخيله هذا الحزب هو أن يحكم البلاد مستبد عادل تكون سعادة الكل فى سيادته

وأما فئة الاشتراكيين الكاثوليكيين فكثيرة العدد وتألفت على أثر الكتاب الذى نشره موسيو (كتلير) قس (ميانس) وسماه (مسألة الفعلة والنصرانية) وكان له شأن كبير في البلاد الالمانية وقد نقل فى كتابه هذا كثيراً عن (لاسال) الاشتراكى وتخلص مثله الى وجوب تأسيس شركات للتعاون والعمل يكون الغرض منها وضع رأس المال في يد الفعلة فتنحل بذلك مسألة الاجور . ولكن الذى عمم فكرة المؤلف وانتزع من كتابه طريقة اتفق عليها أهل المذهب انما هو أحد تلامذته وهو موسيو (موفانج) شماس كنيسة (ميانس) واليك بيان المهم منها

(ان أجور الفعلة غير كافية بحاجاتهم فوجب تداخل الحكومة وهى تتداخل لتؤيد النظام الذى تدعه طائفة كل حرفة لابائها وعليها أن تقرر ساعات العمل وتقدر الاجور وتبين علاقة الصبيان مع الرؤساء والعمال مع

أصحاب المعامل وان تقرض جمعيات الفعلة ما تحتاج اليه من المال — وهنا يظهر ميل تلك الفئة الى الاشتراك — قال موسيو (موفانج) (لست أوافق على المعامل التي يشير بها موسيو (لويز بلان) ولكني لا أرى سببا يمنع الحكومة من مساعدة جمعية الفعلة اذا اسست على نظام متين) ومن مقاصدها أيضا أن تجعل الحكومة حداً لظلم أرباب الاموال ولكنها لم تبين طريقة الوصول الى ذلك قال موسيو (موفانج) (انى لا أتعرض للغنى ولا للاغنياء ولكن الذى اندد عليه هى الطريقة التى يغتنى بها اليوم أولئك الاغنياء والموسرون)

وليس بين هذا المذهب ومذهب الاشتراكيين الثورويين الا تفاوت يسير واهم ما يفترقان فيه هو اعتماد احدهما على الدين . نعم ان اصحابه لا يقولون بوجوب جعل الاراضى كلها مشتركة الملك ولكنهم ليسوا بعيدين عن هذه الغاية لان مبادئهم توصلهم حتما اليها فهم يطلبون ان يكون رأس المال مشتركا بين جمعيات الفعلة ورأس المال جزء من ذلك الكل . وعلى كل حال فهم يطلبون جهاراً ان تكون الحكومة هى الرئيس العام فى العمل وعليه تكون هذه الفئة تابعة حقيقة لمذهب الاشتراكيين كما عرفناه . وتكون تسمية نفسها بهذا الاسم حقيقية

والاخيرة هى طائفة الاشتراكيين المدرسين الأن رجالها غير متفقين على المبادىء لذلك يوجد بين مدرسى علم الاقتصاد من يقول بمذهب الاشتراكيين لكن على حذر وتهيب ومنهم من يتمشى فيه الى اكثر من ذلك حتى جهر بعضهم كموسيو (وجنير) الي القول بوجوب تحديد الملكية

الشخصية والتوسع في الملكية المشتركة ولكنهم كلهم متفقون على رأى واحد من حيث وجوب حل المسائل كلها بواسطة وضع نظام دقيق للعمل والزيادة فى تداخل الحكومة

وما سقت هذا البيان الا لا برهن على أن المانيا وسط يتخلله مذهب الاشتراكيين من اسفل الطبقات الى ارفع المقامات فيها . وقبل أن ننتقل من هذا الموضوع ينبغي أن نأتي بالاختصار على السبب الذى أدى الى هذه الحالة فى تلك البلاد

كان ظهور مذهب الاشتراكيين في الوجود معاصراً لتبدل الاحوال الاجتماعية فى الامة الالمانية بقيام سلطة الملوكية المطلقة مقام سلطة القرى والاقاليم كما حصل ذلك في أسبانيا منذ ثلاثة قرون ايام فيليب الثانى وفى فرانسا منذ قرنين أيام لويز الرابع عشر والمطلع على التاريخ يعرف كيف بدأ ملوك البروسيا بهذه الحركة وكيف ان امبراطرة الالمان يهتمون منذ سنة ١٨٧٠ باتمام ما بدأ به الاولون وادخال التحسينات فيه حتى أصبحت المانيا كلها فى قبضة البروسيا والبروسيا كلها فى قبضة الحكومة . وقد مضى زمن طويل على حكومة البروسيا وهى تعمل بمبادئ الاشتراكيين وان لم تقل بها . فالتوسع فى الجندية حتى عمت جميع الناس وتنظيم المصالح الادارية على شكل غير بسيط نزداد تعقيداً فى كل حين يشبهان من جهات كثيرة ما يرمي اليه الاشتراكيون من النظام الذى يردونه للامة بتمامها فى المستقبل . ومن المعلوم أن الحكومة البروسيانية تضع يدها على كل رجل منذ الطفولية فتبتدئ سلطتها عليه أولا بواسطة المدارس ثم بواسطة الجندية لتربيه

حسب مشيئتها على المبادى التي تختارها

واكبر من ذلك كله اننا نجد في القانون المدني البروسياني نصوصا مطابقة لمبادى الاشتراكيين . جاء في الفقرة الاولى من الباب التاسع عشر ما نصه (يجب على الحكومة أن تقوم بمعيشة الذين لا يقدرون على الارتزاق بانفسهم من مطعم وغيره أو الذين ليس في قدرتهم ان يتحصلوا على معيشتهم ممن هو مسئول عنها بمقتضى القانون) — الفقرة الثانية (يعين للذين لا عمل لهم شغل يليق بحالة كل واحد منهم) — الفقرة الثالثة (الاشخاص الذين يحملهم الكسل أو حب البطالة أو أي سبب آخر من الاسباب الرديئة على عدم الكسب وتحصيل وسائل المعيشة يستخدمون في الاعمال النافعة تحت ملاحظة الحكومة) الفقرة السادسة (للحكومة الحق كما هو واجب عليها أيضاً ان تؤسس مصانع ومعامل يكون فيها قوام حياة المحتاجين وتهذيب اخلاق المسرفين) — السابعة . (لا يجوز للحكومة باى حال من الاحوال أن تأتي عملا من شأنه حمل الناس على الكسل خصوصا الطبقات النازلة أو يلهي عن الاشغال) — العاشرة . (على جهات الادارة البلدية في القرى ان تقوم بمؤنة فقرائها) — الحادية عشرة . (وعليها ان تبحث عن أسباب ذلك الفقر وتحيط به السلطة العليا لتتخذ التدابير الواقية منه

ولا شك ان الامة التي تساس بمثل هذا النظام الذي يجهر بحق الناس في العمل ويقضي بتداخل الحكومة حتى يكون ذلك الحق تحت رعايتها ويوجب التداخل الى هذا الحد في حياة الافراد الخصوصية تكون مهيأة بالطبع الى قبول مذهب الاشتراكيين والعمل بما جاء فيه . هكذا تدرجت

تلك الامة فى مباحثها طالبة حلا لمسئلة الفعلة فوصلت الى وجوب مساعدة الحكومة لكل فرد بذاته وانه ينبغى تغيير نظام الاجتماع ذاته ولم تطلب الدواء من همة كل واحد بالذات . واذا تأملنا وجدنا ان هذه المبادئ التي قرأناها فى قانون البروسيا المدنى وهى التي يجاهر بوجوب اتباعها ملوك البروسيا وامبراطرة المانيا ويعملون هم بها تأييدا لسلطتهم المطلقة هى بعينها مبادئ الاشتراكيين ولا فرق بينهما الا ان الاشتراكيين اتخذوا تلك المبادئ صيغا تجرى على ألسنتهم ومطالب قالوا انها هى مطالب الانسان أي الامم

ولقد كانت الطبقات الوسطى وطبقات الاشراف مستعدة لقبول هذه الاوامر كالطبقات النازلة فان الافراط فى الجندية وبلوغ الادارة ذلك الحد العظيم من الجسامة والاتساع عطل فى هاتين الطبقتين وظائف العمل أولاً ثم انتهى بجعلهما يعتبران الحكومة مصدر كل شئ فى حياة الامة . وهم مستعدون لذلك اكثر من نظرائهم فى فرنسا لان تعدد الثورات عندنا اضعف كثيراً من سلطة الحكومة وان كانت الجندية والادارة سواء عندنا وعندهم . ولا شك فى ان القابضين على زمام الاحكام لا يسوسون الامة اليوم كما كانت تساس أيام الملك لويز الرابع عشر

ومما تقدم يتبين لنا ان السبب فى ان الامة الالمانية صارت بمقتضى حكم الزمان منبعاً لمبادئ الاشتراكيين هو تأخرها قرنا كاملا عن بقية أمم الغرب الاوروبى فى سبيل الترقى

ويتأيد هذا اذا ثبت ان مذهب أولئك القوم انما ينتقل الى غير تلك البلاد منها وبواسطة الالمانيين أنفسهم واثبات ذلك أمر سهل يقوم بتتبع

سير المذهب فى البلاد الاخرى

ففى فرنسا كان مذهب الاشتراكيين خاملا الى سنة ١٨٨٦ كما جاء فى كتاب « وانتزير » المسمى « مذهب الاشتراكيين العام » صحيفة ١٤٩ نقلا عن احدى جرائد الاشتراكيين الالمانيين اذ قالت متأسفة « يتقدم مذهب الاشتراكيين تقدما حقيقيا لكنه بطيء »

ومن ذلك الحين أخذ أحزاب ذلك المذهب فى الظهور والاستقلال والنمو وكان القائم بحركة النمو على الخصوص أنصار مذهب « كارل مركس » الالمانى. وأهم الرؤساء فيهم رجلان موسيو « جول جيزد » وموسيو «لافارج» وكان يطلق عليهما اسم مركستيين نسبة الى ذلك الرجل لاجتهادهما فى ادخال مبادئه التى وضعها فى كتابه « رأس المال » بالبلاد الفرنساوية . ومن المعلوم ان موسيو لافارج النائب عن مقاطعة « ليل » سابقا كان مصاهراً لذلك الاشتراكى الشهير لذلك لما نجح مؤتمر المركستيين فى باريس سنة ١٨٨٩ صاح الاشتراكيون فى ألمانيا طويلا بأصوات الفرح والانتصار. وفى هذا المؤتمر صرح موسيو « جيزد » بين تصفيق سامعيه بأن مذهبه انما هو مذهب الاشتراكين الالمانيين (راجع كتاب «وانتر» المذكور صحيفة ١٧٤)

ثبت اذن ان مذهب الاشتراكيين فى فرنسا مأخوذ عن مذهبهم فى المانيا وانه يسمى باسم أحد الالمانيين وانه ينتسب جهاراً الى ألمانيا

وفى بلاد البلجيك اختلط مذهب الاشتراكيين بمذهب الفوضويين والمتطرفين وبقى زمنا تتجاذبه عوامل الخلف والنزاع ولم يخلص ويستقل الا بعد جهد وعناء . وفى ابّان استقلاله رأينا اثنين من رؤسائه فى

المانيا وهما موسيو « ببيل » وموسيو « بيرنستين » جاءا الى البلجيك على الخصوص ليرشدا هذا الضوء الناشئ الى الطريق المستقيم وكان لهذا التداخل تأثير أثبته أحد مؤرخي مذهب الاشتراكيين هو « واتر » صحيفة ١٢٢ حيث قال (كان مذهب الاشتراكيين فى البلجيك منقسما على نفسه بغير نظام فأصبح اليوم فى نوع من الترتيب والانضمام على نسق المذهب الالمانى)

والذى أدخل مذهب الاشتراكيين في بلاد هولنده رجل كان من رعاة الكنيسة وهو « دوملا نيوفانهويس » وقد سافر هذا الرجل منذ ثلاث سنين الى برلين « ليتعلم من الاشتراكيين الألمانيين طريقة عملهم فى الانتخابات » وهذا الامر وحده كاف فى بيان ان المذهب فى هولندد مستمد من ألمانيا حتى انهم لا يقتصرون على الاخذ بمبادئهم بل يأخذون عنهم أيضاً كيفية أعمالهم فى الانتخاب

وهذا حال بولونيا فلما عقد مؤتمر الاشتراكيين فى باريس سنة ١٨٩٠ كان النائب فيه عن اخوانهم في بولونيا سيدة يقال لها « جانكويسكا » وقد جاء فى تقريرها عن أهل حزبها « انهم يجتهدون دائما في تقليد اخوانهم الالمانيين على قدر الامكان فى طرق نشر المذهب وكيفية السير واثارة الافكار) فألمانيا هى صاحبة الصوت أيضاً فى بولونيا

أما الروسيا فلم يكن لمذهب الاشتراكيين فيها من الرسل الا العدميون والفوضويون حتى هذه السنين الاخيرة غير ان الحال تبدل منذ بضعة أعوام كما ذكر ذلك فى مؤتمر باريس فكان للروسيا مندوبان اثنان فيه

أحدهما (لاروف) الثوروى الشهير القديم ومن قوله فى ذلك المؤتمر ان الثورة فى الروسيا تقترب كل يوم من حزب الاجتماعيين وان حزبها (يتقرب الى مذهب الاشتراكيين الالمانيين ويعمل على طريقتهم) هذا وقد نشر موسيو (بليكانو) أحد زعمائهم فى الروسيا كتاباً هو فى الحقيقة مذهب كارل مركس بتمامه وأسس حزب الاحرار الاجتماعيين الروسيين جريدة سماها باسم أشهر جرائد الاشتراكيين فى المانيا ونقل عنه الكلمة التى اتخذها شعاراً وهى (يا أيها التعساء من كل بلد ألا فاتحدوا) وكان ظهور تلك الجريدة الروسية فى (جنيف) سنة ١٨٨٨ والغرض منها كما جهرت به نشر مبادىء مذهب الاشتراكيين الالمانيين فى الروسيا

ومذهب الاشتراكيين لا يزال نبتاً حديثاً فى بلاد رومانيا ومع ذلك فقد قال نائبها فى مؤتمر باريس وهو (ماتى) القائم بالحركة فى تلك البلاد ما يأتى (يتقدم مذهب الاشتراكيين حتى بين الفلاحين وأكبر المساعدين له هم المعلمون فى مدرسة (جاسى) وطلبتها لانهم ترجموا كتب كارل مركس و (آنجل) و (لاسال) وهؤلاء هم اقطاب المذهب الالمانى

وقال موسيو (وانتر) (ولد مذهب الاشتراكيين في سويسرا من المذهب الالمانى وكان بينهما على الدوام روابط محكمة العرى فانا نشاهد الاشتراكيين السويسريين بجانب اخوانهم الالمانيين فى كل مكان يتقابلون فى المجتمعات ويتحدون في الادب والمبادى ويتضافرون فى مقاوماتهم ويتعاونون على ما يطلبون) ولا عجب بعد هذا من ان الاشتراكيين فى مدينة (بال) احتفلوا فى الرابع من شهر ستمبر بتذكار وفاة (لاسال)

الاشتراكى الالمانى وانهم عقدوا فى اليوم الثانى اجتماعاً عمومياً دعوا اليه موسيو (ليبكنخت) وهو ايضاً اشتراكي المانى لينشر بينهم مذهب كارل مركس . وللاشتراكيين السويسريين جرائد خاصة بهم الا ان قائدهم لاتزال تلك الجريدة الالمانية الشهيرة فانها روح مجتماعاتهم فى (زوريخ) و (انترتور) و (آرو) و (بال) و (فروانفلد) و (صان غال) و (شافوز) و (كوار) و (زوج) و (نيوشاتيل) و (لوزان) و (جنيف) وغيرها . وعليه فسويسرا هي اذن ضحية من ضحايا المذهب الالمانى

كذلك يأخذ التليان مذهبهم عن المانيا ويكفى للدلالة عليه ان نذكر التلغراف الذى بعث به اعضاء نادى المتطرفين فى رومه باسم الاشتراكيين التليانيين الى الاشتراكيين الالمانيين بمناسبة فوزهم فى الانتخابات وهو (ان النادى . . . يسلم على الاشتراكيين الالمانيين الذين هم دعاة الثورة الجديدة طلباً لتقرير العدل الاجتماعى ولا يزال الاحرار التليانيون يذكرون مفتخرين ما انبأهم به (منزينى) منذ سنين عديدة مع ماكان عليه من كراهة مذهب كارل مركس وهو ان المانيا الجديدة وايتاليا الجديدة هما اللتان يقومان في المستقبل بحل المسئلة الاجتماعية)

ويتضح مما تقدم باجلى بيان ان المانيا هى منبع مذهب الاشتراكيين وانها هى التى تبثه وتنشره فى الامم الاخرى

ويؤخذ منه أيضاً ان جميع البلاد لاتقبل مذهب الاشتراكيين بدرجة واحدة فمنها ماتكون أرضها مستعدة لنمو بزوره كالتي ذكرناها ومنها ما ليس كذلك كبلاد نرويج وانكلتره والولايات المتحدة وغيرها من البلاد التى

احتلها العنصر الانكليزى السكسونى

أما كون بلاد النرويج غير صالحة لانتشار المذهب فثابت من رسالة نشرتها جريدته الالمانية الشهيرة وفيها يشكو الكاتب مر الشكوى من ذلك الحال ويعزوها لما عليه تلك البلاد من التمسك الشديد بالدين وهو تعليل ضعيف لاننا رأينا فى المانيا كثيراً من الكاثوليك والبروتستانت وفى مقدمتهم رعاة الكنيسة قد اعتنقوا مذهب الاشتراكيين

وما من شئ يستوقف النظر لحيرة مؤرخى هذا المذهب عند الكلام عليه فى انكلترة فانهم لا يجدون او يكادون ان لا يجدوا شيئا يذكرونه عنه فى تلك البلاد اللهمّ الا ما قاساه موسيو « اڤلين » من الاتعاب — هو أيضا صهر لكارل مركس — التى ذهبت ادراج الرياح « وهنا أيضاً دليل على وجود الاصبع الالمانى » وكذلك اتعاب الشاعر « موزيس » ومسيو « هندمان » وهما رجلان خرجا عن تقاليد قومهم فلم يلتفت اليهما أحد الا ساخراً . وقد أتت الرسالة السنوية التى ينشرها الدكتور « لودويج ريشتر » فى كل سنة عن حالة المذهب فى جميع البلدان خالية من ذكر انكلتره والسبب الذى ذكره لذلك هو « انه لا يوجد شئ يقال » وحاول موسيو « ويزيوا » فى كتابه « حركة مذهب الاشتراكيين فى أوروبا » صحيفة ٢٠٩ بيان علة عدم انتشاره فى انكلتره فقال « ان الانكليز شخصيون بفطرتهم يريدون أن يتركوا لانفسهم ليحصل كل واحد منهم رزقه بالطريقة التى يرضاها وطباعهم تأبى ان يتجندوا تحت أى لواء كان وان يتنازلوا عن استقلالهم الذاتى طلبا لعمل مشترك وهذا فيما أرى أحد الاسباب التى تجعلهم لا يميلون

الى مذهب الاشتراكيين »

واذا انتقلنا الى الولايات المتحدة رأينا كذلك ان هذا المذهب لم يدخل بين العنصر الانكليزي السكسونى لانه يقاومه كما يقاوم كرم تلك البلاد آفة العنب « فيلوكسرا » وليس له فى تلك البلاد احزاب الا من الارلنديين وعلى الخصوص من الالمانيين كما شهد به موسيو « وانترير » فى كتابه « مذهب الاشتراكيين العام » صحيفة ٢٣٣ حيث يقول « انا عقدنا هذا الفصل للكلام على مذهب الاشتراكيين فى امريكا وكان حقه ان يعنون بمذهب الاشتراكيين الالمانيين فى امريكا لان احزابه فى تلك البلاد واخص القائمين به فيها لا يزالون من الالمانيين ومن رؤسائهم من كان عضواً فى مجلس النواب الالمانى ولقد كان كارل مركس يرجو النجاح لمذهبه فى الدنيا الجديدة وأشار بنقل مجلس ابحاثه الى تلك البلاد نخاب رجاؤه » وقال أحد الاشتراكيين الالمانيين يصف المذهب فى امريكا « ان ذلك الحزب لا وجود له الا بالاسم لان أصحابه لا يمكنهم انى كانوا ان يكونوا حزبا سياسياً . والمذهب نفسه يخال انه اجنبى فى الولايات المتحدة فقد كان الى عهد قريب لا يقول به غير المهاجرين من الالمانيين الذين كانوا يتكلمون بلغتهم ولا يعرفون اللغة الانكليزية الاقليلا ثم ان لهؤلاء المهاجرين رأيا مخصوصا فى وسائل انتشال الفعلة من التابعية التى هم فيها لا يفهمه الا النزر اليسير من الفعلة الاميركيين » . ولقد اجتهد كثيراً في استمالة انكليز أمريكا الى مذهب الاشتراكيين فبعثوا اليهم كثيرين من الالمانيين نذكر من بينهم موسيو « ليبكنخت » واحدى بنات كارل مركس التى تزوجت

موسيو « اڤلين » فضاع كل ذلك سدى ورفضت جمعيات الفعلة الانضمام الى حزب الاشتراكيين وخسر الالمانيون ما بذلوا من الفصاحة وذلاقة اللسان . ثم عمد بعض الاشتراكيين الى الانضمام فى سلك بعض طوائف الفعلة العظيمة التى بلغ اعضاؤها أكثر من مليون من النفوس وحسبوا انهم بذلك يتوصلون الى نشر مبادئهم شيئا فشيئا ولكنهم لم يفلحوا » وقال لهم رئيس الطائفة الاعظم ان رغبته موجهة الى « تطهير طائفته من تلك العناصر الثوروية المتطرفة » وعرض بعضهم رأيا مبناه الاقرار على مجرد الميل الى استعمال الوسائل الثوروية فرفض الطلب بمائة وواحد وخمسين صوتا ضد اثنين وخمسين

كذلك لم ينجح الاشتراكيون لدى حزب الفعلة المجتمعين اذ اقصيت منه جميع اللجان التى تلوثت بمذهبهم بقرار صدر من الجمعية العمومية فى « سيراكيز » والى الآن لم تنجح المساعى فى نشر جريدة واحدة للاشتراكيين باللغة الانكليزية وللمذهب عشر جرائد كلها باللغة الالمانية وهو أمر فيه نظر عظيم . . . ومن هنا يتبين السبب فى انه لم يأت فى مؤتمر الاشتراكيين الاخير بباريس من أمريكا الا المحازبون الالمانيون واضطر المندوب المقرر وهو موسيو « كيرشنر » الالمانى ان يقول فى تقريره « ان الفضل فى كون الفعلة الامريكيين اخذوا يدركون معنى التحزب راجع بالاخص الى المهاجرين الالمانيين فانهم لم ينثنوا عن ارشاد تلك الجموع التى لا يزال الجهل يعمي بصائرهم وتنظيم شتاتهم

ثبت اذن ان القائمين بنشر مذهب الاشتراكيين فى بلاد الانكليز

السكسونيين هم الالمانيون وانهم لا ينجحون مهما اجتهدوا وثابروا وهو أمر جديد لم نعهده فيما مضى وهذا هو ما تمتاز به تلك البلاد على التي ذكرناها من قبل فهم فريق قائم بذاته أهم صفاته انه نفور من مذهب الاشتراكيين .

والسر في هذا الاستثناء ان نشأة العنصر الانكليزى السكسونى استقلالية محضة كما ان نشأة العنصر الالمانى اتكالية بالمرة وبينما نفوذ حكومة الالمانيين يمتد امتداداً فوق الحد الذى ينبغى حتى أمات الهمم النفسية ومحق حركة القرى الذاتية نرى حكومة الفريق الثانى لم تتمكن من الاستيلاء على سلطة كبرى بل وقفت على الدوام عند حدها بما تلاقيه من اتحاد القوتين حياة كل فرد بذاته واستقلال كل قرية بخصوصها . فالمانيا هي اليوم الوسط الذي بلغت فيه اثرة الحكومة منتهاها وبلاد الانكليز السكسونيين هي الامم التى عاش افرادها مستقلين وحكموا أنفسهم بانفسهم . ومن البديهى حينئذ ان لا ترى الاولى سبيلا لحل المسئلة الاجتماعية في غير تداخل الحكومة وسن اللوائح وجعل آلات العمل مشتركة بين جميع الناس من أهلها وان الثانية لا تطلب النجاة الا من همم الافراد وترفض كل الرفض ذلك الاشتراك الجديد الذي يعرض عليها

ولست فى حاجة الى تكرار الاسباب التى أوجبت هذا الاختلاف العقلي بين الامتين ولكنى احيل القراء على ما كتبته عن ذلك مفصلا فى الجزء الثالث صحيفة ٥٥٨ ومابعدها والجزء الرابع صحيفة ١٣١ ومابعدها من مجلة العلم الاجتماعى واكتفى بان الاحظ ان أثر هذا الاختلاف في النشأة

يتناول الموضوع الذى نحن فيه

ثبت مما قدمناه ثلاثة أمور : ان ألمانيا هى منبع مذهب الاشتراكيين وان الالمانيين هم الذين ينشرون مذهب الاشتراكيين فى الدنيا وان مذهب الاشتراكيين لا ينتشر فى الامم التى نمت فيها همم الافراد الذاتية وقل تداخل الحكومات

ولم يبق عندنا الا البحث فيما اذا كان مذهب الاشتراكيين الالمانيين هو الافضل فى حل مسئلة الفعلة أم استقلال الانكليز السكسونيين وفيما هو الحل الذى يدخره المستقبل

وانى أرجو من القراء ان يعتقدوا بأن نظام الاشتراكيين ليس بالجديد أبداً كما يميل الى اعتقاده أولئك الذين ادعوا انهم اخترعوه بل أقول انهُ قديم قدما عظيما حتى انصرم عمره وانقضت أيامه وصار من السهل الوقوف على ما يأتى منهُ فى المستقبل بمعرفة ما نتج عنهُ فى الماضى

ونحن اذا جردنا المذهب من تلك الالفاظ المقعرة ورجعنا به الى صورته الحقيقية رأيناه انما يتقهقر بنا الى ما كانت عليه الامم الغابرة تقهقر البسطاء ان لم أقل تقهقر الجهلاء وسنرى ان كان هذا النظام يليق بالمستقبل ولنقتصر الآن على العلم بأنه كان نظام الزمن الذى مضى وانقطع

يريد الاشتراكيون كما عرفنا ان تكون الملكية وآلات العمل وهى وسائل العيش فى الدنيا مشاعا للمجموع وان المجموع يكون هو الرئيس الاكبر وهو الذى يوزع ما تحصل من العمل على كل عامل بحسب شغله أو بحسب حاجاته ولم يهتدوا تماما الى الاتفاق على طريقة التقسيم

هذا هو مثال الجمعية التي يطلبها الاشتراكيون وفى ظني انه غير مجهول عندنا فهو الذى ساد على الامم فى الأعصر الاولى ومع ما كان يوجد بين تلك الامم من أوجه الافتراق والاختلاف كانت كلها قائمة على الملكية المشتركة

فكانت الارض عند بعضهم كالرعاة الرحل ملكا لجميع السكان وكان الجميع يشتغلونها أقساما بحسب العائلات والقبائل التي يرجع نسلها الى أصل واحد . كذا كان حال أقوام الزبور وقبائل العرب والمغاربة وغيرهم فلما استقرت تلك العشائر النقالة فى نواحيها أقامت كل عائلة وكل قبيلة بالطبع كما كانت من حيث شيوع املاكها والاشتراك فى منافعها . وكان هذا شأن جميع الامم القديمة كالعبرانيين والجرمانيين والسلافيين وغيرهم ممن كانوا يقسمون الاراضي بين الجميع كل حين . ومن الامم من أسلمت ملكية أرضها الى الوازع وصار هذا سيداً عاما مكلفاً كما يبتغى الاشتراكيون بتوزيع العمل بالقسط بين الناس وتقسيم ثمراته عليهم وايجاد معاش للارامل والشيوخ وأكبر مثال لهذا النظام هى مصر أيام الفراعنة وانى أكتفي هنا بذكر مجمل هذه المسائل المعروفة عندنا وارجع القراء ان أرادوا زيادة الشرح الى ما كتبناه فى مجلة العلم الاجتماعى « رسالة الفنون أيام الرعاة ورسالة الزراعة بالاشتراك جزء أول وثانى وثالث وعاشر ورسالة مصر القديمة لموسيو « بريڤيل » جزء تاسع صحيفة ٢١٢ و ٥٤٩ وجزء عاشر صحيفة ١٦٠ و ٣٣٨ وجزء حادى عشر صحيفة ٨٠ و ٢٥٢ وجزء ثانى عشر صحيفة ٦٩ وغيرها)

على ان نظام الروكية ليس خاصاً بالامم السالفة بل ظل موجوداً في

بعض جهات المسكونة الى يومنا هذا ولا يزال سائداً بين أهل آسيا وأفريقا الشمالية بل وجميع بلاد أوروبا الشرقيـة . فمن المعلوم ان القرية التي تسمى عندهم (مير) عبارة عن روكية عظيمة هي التي تملك الاراضي وتقسمها بين روكيات العـائلات فى كل حين بحيث لا يكون تحت يد كل عائلة من الاطيـان الا بنسبة عدد الذين يعملون من اعضائهـا فالشغل مشترك كملكية الاراضي

ثبت اذن ان الروكيـة ليست حلا جديداً بل هى موجودة من يوم خلق الله الدنيا ولا يزال بعض الامم يعيش فيها

ودفعاً لما عساه يقال من انه حل مرضى ينبغى لنا نتوسع فى البحث حتى نرى الاشياء كما هى وأبدأ باستلفات القراء الى المشاهدتين الآتيتين

الاولى علمنا من التاريخ ان احدى أمم الازمان السابقـة تقدمت كثيراً على البقية وانتهى بها التقدم ان سادت على من سواها وأعنى بهـا الامة الرومانية ومما يستوقف النظر ان الامة الرومانية هى التى تمكنت من التخلص من الروكية بدرجة لم تصل اليها أمة سواها ولذلك اسباب شرحها موسيو (بريفيل) فى مجلة العلم الاجتماعى الصادرة فى شهر يناير سنة ١٨٩٢ ضمن رسالة على الرومانيين فى مصر القديمة . نعم انها لم تتخلص منها تماماً لان ذلك الحظ لم يتوفر لامة من أمم الازمان القديمة غير انا لانجد أمة عظمت شأن الملكية الشخصية وبالغت فى احترامها مثل الامة الرومانية وفيها وصلت انانيـة الانسان الى أعظم نمو اتيح لاهل تلك العصور وفيها صار الانسان مسئولا عن نفسه وعن عمله وفيهـا عرف الانسان انه لا ينبغى له الاعتماد

الا على نفسه وتأسست الملكية الخصوصية التى هى نقيضة الملكية المشتركة وصار لملكية الافراد على الارض من الاعتبار ما وصل الى حد العبادة حتى انهم جعلوا حدود الاملاك من الامور المقدسة وقالوا بوجود اله يسمى اله الحد واقاموا أعياداً دعوها الحدية وتقرر ان الحد متى تقرر لا يجوز نقله . وقد جاء فى قصصهم ما يدل على هـذا حيث نسبوا الى (جوبيتير) عظيم الالهة انه اراد ان يبني له هيكلا على جبل (كابيتولان) ولكنه لم يتمكن من نزع ملكيته من مالكه اله الحد وعدّ الذي يهدم الحد أو يزحزحه خارجا على الله ومارقا فى الدين وجاء فى قوانينهم القديمة ما يشير الى أن الرجل اذا أصاب الحد بطرف محراثه يصير ضحية هو وأثواره لالهة النيران

وعلى هذا فالامة التي ارتقت وسمت فوق كل الامم فى الاعصر البعيدة عنا كانت أقلهم اتكالا

المشاهدة الثانية ان استقرأ أحوال الامم الحاضرة يدلنا على ان التى لا تزال النشأة الاتكالية فيها شديدة هي أعظمها تأخراً وأقلها مالا واضعفها جانبا قد سبقتها فى كل شيء جميع الامم التى نمت فيها الملكية الشخصية وعظم فيها تأثير المرء منفرداً وذلك أمر لا نحتاج فيه الى دليل غير النظر فى أحوال الامم الشرقية التى هى الاتكالية والامم الغربية التى هى الامم الاستقلالية على اختلاف بينها حيث تبدو لنا الاولى غارقة منذ قرون عديدة فى سبات عميق وتبدو لنا الثانية فى مظهرها العظيم وقد أبلغت العمل الى الغاية القصوى ورفعت قدر الانسان الى أعلى الدرجات وجعلتنا حائزين على أفضلية لم تنلها أمم قبلنا مما نفتخر به ونتيه على الملا وما كنا لنعرف سبب

اعجابنا قبل قيام العلم الاجتماعى .

واذا جعلنا النظر رأينا ان أكبر أمم الغرب همة فى العمل وأرقاهم فى زراعتها وصناعتها وتجارتها وأشدهم بأساً فى التنافس الذى تخشاه الامم الاخرى وأسرعهم الى احتلال الاقاليم التى لاتزال خالية فى الدنيا هى تلك الامة الانكليزية السكسونية التي لاتماري والتى ضاقت بها بلاد انكلتره فتدفقت فى الجهات الاربع وترعرع فى أمريكا غصنها القوى فكانت الولايات المتحدة وكل يرى هذا حتى الذين لا يبصرون . ومن المعلوم ان الامة الاستقلالية الحقيقية بين أمم الغرب هى الامة الانكليزية السكسونية وانها أبعدهم عن النشأة الاتكالية وانها هى التى بلغت عندها همم الافراد منتهاها ووصلت سلطة الحكومة الى أدناها

هكذا كانت الامتان اللتان تمكنتا من أعناق العالم فى الزمنين أمة الرومان فى العهد القديم وأمة الانكليز السكسونيين فى هذا الزمان أبعد الامم عن الاتكال وما هذا الاتفاق بصدفة فان الصدفة محال وانما هو لازم من لوازم نشأة الاستقلال والاقتناع بما نقول سهل ميسور

ولقد يمكننا ان نلخص الموضوع فى كلمتين : ما اعتمد الانسان على غيره وانتظر المعونة من المجموع الا وقلت همته وقعد عن الكد بنفسه ليكسب معيشته . وما عرف الانسان الا انه لا اعتماد له الا على نفسه ولا معونة الا من عمله الذاتى الا وكبرت همته واشتد على الكد ساعده ليحصل رزقه ويترقى على الدوام

حال الافراد فى الامم الاتكالية كحال موظفي النظارات ومستخدمى

المصالح وهى حال لا تربي فى المرء ميلا الى العمل كما هو معروف لانه نظام يقتل فى الانسان ملكة العمل وتقدير فوائده العظمى . فاذا تناول ذلك النظام أمة بتمامها انتشرت آثاره بحسبه واذادام توارثه زمنا طويلا من الآباء الى الابناء اشتد ظهور تلك الآثار على قدر مدته فتضعف القدرة على العمل نوعاً فى الولد بعد أبيه ويشتد الضعف فى بنيه وهكذا حتى يصل الجيل الاخير الى خمول ذلك الرجل الشرقي الذى لم يبق له من القدرة على العمل الا مايحصل به القوت كيلا يموت جوعاً . ومهما قلبنا الحوادث وفتشنا فى بطون التواريخ لانستخلص غير نتيجة واحدة هي ان النشأة الاتكالية قد أضعفت الهمم فى كل زمان وعطلت استعداد الافراد الى العمل وجعلت أهلها من الضعفاء المتأخرين فان الاتكال وسادة لينة تليق بمن يميل الى النعاس ولكنه ما كان يوما بوقا يقوم على صوته من رام النهوض

ولعل قوما يقولون ان ذلك لمن أحب الاشياء اليهم وانهم يفضلون النوم على القيام لان غاية المتمنى فى الحياة ان يستريح المرء مهما استطاع لاان يشقى مااستطاع وانهم يرتاحون لخمول أهل النشأة الاتكالية ولا يبتسمون لذالك الكدوالعناء التى تنميه النشأة الاستقلالية . وأناأدرك هذا الاعتراض بل أقول ان فيه رفقاً وحنانا بالناس وليس فيه عيب الا ان مايطلبون محال لسببين

الاول ان الاسباب الطبيعية التى تولدت عنها النشأة الاتكالية فى الازمان الماضية لم تعد مؤثرة فى هذه الايام ولاعامة كما كانت . فالاصل فى وجود تلك النشأة حالة البداوة الاولى التى ظهرت فى سهول آسيا الفسيحة

ذات الاعشاب الكثيرة حيث بدأت الانسانية فى الترقى فلما تفرق الناس استصحبوا معهم نشأتهم الاولى وادخلوها حيث استقر بهم المقام ولم تتغير الا حسب ظروف كل بلد وطباع الساكنين فيه فخضعت لسلطانها جميع الامم القديمة كما بيناه لانها كانت قريبة العهد بمولدها ولان تلك النشأة كانت لاتزال كما وجدت باقية فى البلاد المجاورة لاعظم سهل موجود على وجه البسيطة . ومعلوم ان البداوة لم يعد لها ذلك التأثير على الامم خصوصاً فى الغرب لانها بعيدة عنها زمانا ومكانا ولوجود الامم الاستقلالية فى الغرب من يوم ظهور الدين المسيحى لاسباب وظروف شرحت فى مجلة العلم الاجتماعى ولا حاجة بنا الى تكرارها (جزء أول صحيفة ١١٠)

ثبت اذن أن السبب الاول المؤثر في وجود النشأة الاتكالية لم يعد صالحاً اليوم لغايته وانهم يريدون احياء تلك النشأة بسبب صناعى هو القهر أى سن القوانين أى تداخل الحكومة حتي تصير الرئيس الاعظم على الكل فى المجتمع الاشتراكى الذى يتألف فى خيال الاشتراكيين . وبديهى أن هذا الخيال لا يتحقق اللهم الا اذا اصطدم مع طبائع الاشياء فغلبها وناطح جميع المنافع المتألبة طبعا عليه فانتصر عليها لانه عبارة عن تجريد كل من كان فى يده مثقال ذرة من الارض أو يسير من آلات العمل مما ملك ولسنا نرى كيف الوصول الى هذا السبيل على فرض أن الناس كلهم سهل يلين لكل مطلب ولكن الاشتراكيين لا يتحيرون

هب أنهم نجحوا — ولا أدرى كيف أنهم ينجحون — فادخلوا نظامهم الاشتراكى فى البلاد التى لهم فى هذه الايام بعض النفوذ بين سكانها

اذ ذاك تنتصب أمامهم العقبة الثانية ولا غالب لها فتسد في وجههم الطريق سداً مكيناً وهي السبب الثاني الذي بقي الكلام عليه

الثاني اذا تم فوز الاشتراكيين بما يشتهون لا يلبثون أن يروا جميع نتائج النشأة الاتكالية قديما وحديثا بادية بين جموعهم الاشتراكية عملا بسنة العلة بذاتها تنتج المعلول بذاته أبدا . ويكون فعل تلك النتائج في الناس أشد لان النظام الذي يطلبه الاشتراكيون الالمانيون أقسى وأحرج من الذي عرفناه عن زمن الفراعنة في الامة المصرية . هنالك يستولي الضعف بعينه على دعائم تلك الامم ويدخل الانحلال الى أعصابها الحيوية وهو الذي رمى بامم الزمن القديم بين يدي الرومان . نعم لسنا نخاف اليوم من الرومان الا انه يوجد في طريق الامم الاشتراكية خصم أشد بأسا وأصعب مراسا وهو الجنس الانكليزي السكسوني الذي هم بالاستيلاء على الدنيا بما أوتيه من نمو همة افراده الى الحد المستطاع . أصحيح بعد هذا أن الزمن مناسب لبث روح مذهب الاشتراكيين بين الامم

وكيف يخطر بالبال أن تلك العقول النيرة لا تجد من الاصلاح ما تشير به علينا الا نظام الشرق مع زيادة في القيود وتشديد في التعاليم وأنهم يختارون لتقديم هذه المشورة ذلك اليوم الذي بلغت فيه قوة الغرب على الشرق منتهاها . أجل لن تبطئ عنهم نتيجة عملهم هذا وقد نبأنا بها التاريخ على أن ما يجري اليوم كاف للدلالة عليها

يجري اليوم أن أمم الغرب تحتل سائدة أمم الشرق وتنشئ فيها المستعمرات وتقيم الحكومات أو تضمها الى املاكها ضما لا تحتاج فيه الى مشورة

أو استئذان . يجرى اليوم ان تلك الامم الاتكالية أصبحت كانها خلقت ليحتلها قوم آخرون . والامة الانكليزية السكسونية هى التي تتقدم جميع الامم فى هذه السيادة العامة فلو انا وضعنا أنفسنا موضع أمم الشرق لزدنا فى سبق الانكليز السكسونيين علينا ولقدمنا اليهم فريسة أخرى . وليست الحرب سجالا بين أمتين أمة نمت فيها الهمة والاقدام بين افرادها وأمة باتت فيها الهمم مضغوطا عليها فتعطلت بل لا بد ان تستعلى الاولى على الثانية

أهذا هو الذي يخطر باحلام الاشتراكيين الالمانيين وهل يرون من أنفسهم ميلا الى أن يصيروا الى ما صار اليه هنود أمريكا امام الانكليز من سكانها

ومع ما تقدم كله فلسنا ممن يقول بانهُ ليس فى الامكان أبدع مما كان بالنظر الى الحالة الراهنة كما يذهب اليهِ فيما يظهر بعض الاقتصاديين . الآن خطأ الذين يسعون وراء حل مرضى للمسئلة الاجتماعية يأتى من الميل الى زيادة تداخل الحكومة والضغط على همم الافراد الذاتية والواجب بالعكس فان الحقيقة التى تبرهن عليها الحوادث هى انهُ يجب علينا أن نحذو على الدوام حذو الامم التى تقدمت على غيرها فى الماضى وفى الزمن الحاضر لا بقوة السلاح بل بما هو أشد بأسا منها وهي قوة النظام الاجتماعى

ومن المشاهد ان هذا النظام هو أليق الاحوال لحل المسائل التى اختلف عليها المشتغلون بالعمل فى جميع البلاد واعنى بها مسئلة الفعلة التي يدعى الاشتراكيون باطلا انهم عثروا على مفتاحها . والدليل على ما نقول

ان الامم الاستقلالية هي التي أصبح فيها عاملا العمل وهما السيد والفاعل في احسن الاحوال الموافقة لفض جميع المنازعات التي تحدث بسبب اتساع النطاق في المعامل الصناعيـة . ولا حاجة بي أن أبرهن على ان النشأة الاستقلالية تنمي بذاتها في الرؤساء الهمة والاقدام وتعودهم على الاعتماد على أنفسهم وتربي فيهم ملكة استنباط المشروعات أكثر من النشأة الاتكالية بدليل الفرق بين أمم الغرب وبين أمم الشرق . ولا مشاحة في ان هـذه الصفات المتعددة لازمة للنجاح في ادارة العمل بالنظر الى الظروف والاحوال الجديدة الدقيقة التي طرأت على الصناعة بعد اكتشاف مناجم الفحم . كما انهُ لامراء في ان مثال الرئيس الكبير ذي الكفاءة التامة والاقدام قد نما وتقدم في الامة الانكليزية السكسونية أكثر مما عليه أهل الامم الاتكالية أو التي تميل الى الاتكال وهذا التقدم هو الذي جعل لتلك الامة أفضلية يخشاها الجميع في الصناعة

قالوا (وما الذي يفيد هذا في تحسين حال العامل وهو المقصود أولا وبالذات) والجواب على ذلك بسيط

فاول شرط في اطمئنان الفعلة على وجود ما يعملون فيه باكبر ما يمكن من الفائدة لهم أن يكون الرؤساء ذوي أهلية كافية لانجاح صناعتهم ولا شك في ان النظام الذي يربي في الرؤساء ذلك الاستعداد يكون مناسبا لتحسين حال العمال اذ متى نمت صناعة الرئيس تيسر لهُ أن يدفع لعماله أجوراً طيبة وسهل عليهم تخصيص نصيب من أموالهم لايجاد المنشئات التي تدفع عن رجالهم جوائح الزمان فتعينهم اذا احتاجوا وتكفل لهم رزقهم اذا

قعدوا وهكذا وذلك لا يتيسر للرؤساء الذين ضعف استعدادهم وقل أقدامهم وصعبت عليهم الاعمال

يقال ان قدرة الرؤساء على القيام بتلك الاعمال لا يترتب عليها انهم يقومون بها وقد يجوز كما شوهد انهم ينتهزون نجاحهم فى اعمالهم فرصة لزيادة كسبهم غير ملتفتين أقل التفات الى تحسين حال العمال

وهو اعتراض وجيه غير انه يتيح لنا فى الجواب عنه أن نبين أفضلية النشأة الاستقلالية على النشأة الاتكالية لأنها مع عظمها لم يلتفت الباحثون اليها كما ينبغي وتلك الافضلية حاصلة عند الفعلة كما هى ثابتة للرؤساء

النشأة الاتكالية تجعل العامل غير أهل لاى حركة ذاتية عظيمة دائمة بل تصيره آلة صماء كما كان عامل الزمن القديم وكما هو حال العامل الشرقى فى هذه الايام وكما هو العامل الالمانى على التقريب فان هذا الاخير أصبح آلة فى يد المقلقين يجندونه تحت لوائهم بسهولة ليس لها مثيل لا فرق بين المقلق الاشتراكى الثوروى أو المحافظ أو الانجيلى أو الكاثوليكى أو غيرهم ولا قوة فى الظاهر لرؤساء المذهب الالمانى الا بهذا الاستسلام فقد لانت فى أيديهم طينة العمال فيصورونهم بالشكل الذى يريدون ويسوقونهم كالاغنام حيث يشاؤن وهذا هو السر فى اندهاشهم من استعصاء الامر عليهم يوم جاءوا الى انكلتره والولايات المتحدة لنشر مباديهم بين تلك الامم واندهلوا لانهم وجدوا الفعلة لا يسمعون لهم نداء وتلك هى دهشة الرجل الاتكالى الذى يصطدم فى طريقه مع الرجل الاستقلالى . لذلك وصف احد

أولئك المقلقين عمال الانكليز السكسونيين محتقراً «بأنهم قوم لا يبصرون»
واليك ما كتبه موسيو «ويزيوا» أحد مؤرخيه في كتابه «الاشتراكيون في
أوروبا صحيفة ٢١١» قال «لا يوجد في أوروبا بلد تحصل العملة فيه على الذى
نالوه في انكلترا لتحسين حالتهم فانهم أكثروا فيها صناديق الاقتصاد
وشركات التأمين وجمعيات التعاون وأصبحوا بطريقتهم المسماة «ترادسينيون»
من أهل الاموال ولكنهم حصلوا كل هذا بغير مذهب الاشتراكيين ومن
دون أن يفكروا في تغيير النظام الاجتماعي الحاضر» ومعناه انهم حصلوا كل
هذا بدون أن يرضوا بقيادة المقلقين والمتطفلين على السياسة وهذا هو ذنبهم
الذى لا يغفره أولئك المقلقون

والذى يحب الوقوف على ما أتى به الفعلة من الانكليز السكسونيين
فى انكلتره والولايات المتحدة بأنفسهم وبمحض قوتهم الذاتية واقدامهم وبدون
أن يطلبوا معونة الحكومة بل مع رفضهم تلك المعونة ينبغي له أن يقرأ
تاريخ جمعياتهم المسماة «ترادسينيون» المذكورة فلا شيء أفيد منه ولا أقطع
حجة على تقدم الفعلة من أهل النشأة الاستقلالية تقدما يفوق الوصف وعلى
ما توجده تلك النشأة فيهم من الاستعداد للتقدم والترقى

ومما يلاحظ فى تلك الجمعيات هو انها متشبعة باستقلالها كامتها وانها
ليست كالجمعيات الالمانية التى تتوق الى تعميم نظامها بين الفعلة عند جميع
الامم أو عند أمتها وترمى الى تغيير الهيئة الاجتماعية بتمامها وانما هى شركات
استقلالية تتألف كل واحدة من فريق مخصوص يجمعها مقصد معين محدود
ولا تتألف منها جمعية هائلة يقودها بعض المقلقين ويستعملونها فى اقامة

مبانى مجدهم بل هى جمعيات متعددة مستقلة عن بعضها أو لا يربطها الا رباط صغير . ويشعر الانسان اذا فكر فى نظام تلك الشركات انها وجدت في أمة تميل الى الاستقلال والاطلاق لا فى أمة تعشق التقييد والاستبداد والتاريخ شاهد على مانقول فقد نشر موسيو « كاستلو » رسالة فى « جريدة الاقتصاديين » الصادرة في ديسمبر سنة ١٨٩١ لخص فيها كتاب موسيو « هويل » كاتب سر مؤتمرات هذه الشركات الذى سماه « النزاع بين العمل ورأس المال » ومما جاء فيها « لقد جاءت شركات تراد سينيون للصناع الانكليز مدرسة تهذيب وأخلاق وعونا على الترقي ولا تزال حافظة لاستقلالها النوعى وبعبارة أخرى لم تخرج عن تقاليد النشأة الاستقلالية ـ يلاحظ ان الكلمة بذاتها وردت فى الرسالة ـ التي قامت حجابا بينها وبين انضمامها الى جمعية واحدة تدخل تحتها جميع الهمم الذاتية ومكاسب المشتركين كلها فخابت بذلك كل المساعى التى بذلت فى هذا السبيل) وقد بلغ أعضاء تلك الشركات فى انكلترا وحدها مليونا ونصفاً وبلغ دخلها مليونين من الجنيهات الانكليزية أعنى خمسين مليونا من الفرنكات وعندها مبلغ احتياطى مثل ذلك بالتمام . تلك هى قوة العمال الهائلة التي أوجدها الاقدام الذاتى فلتأت لنا المانيا بمثل هذا

ولا تنقص قوة العمال فى الولايات المتحدة عن ذلك كما بيناه عند الكلام على رفضهم الدخول فى مذهب الاشتراكيين

ومما يجب الالتفات اليه ان تلك القوة العظيمة لم تكن قائمة فى وجه « الهيئة ذات رأس المال » كما يقول الاشتراكيون مغضبين بل الغرض الوحيد

منها تحسين حال العمال فعلا بالمعارضة فى تخفيض الاجور واقتصاد جزء مما يكسبون لتخفيف البطالة التى قد تأتى عفواً وكل ذلك من دون ان يمدوا أيديهم الى طلب مساعدة الحكومة أبداً

أمر مجلس النواب باجراء تحقيق عن حالة الفعلة فقرر أغلب رؤساء العمل — رؤساء العمل هل أنتم سامعون — ان العمال الذين من تلك الشركات هم أمهر فى عملهم وأخلص فى شغلهم من بقية العمال الذين معهم . قال المؤلف السابق « وعلى العموم فانهم اكتفوا باستعمال الطرق الشرعية للحصول على مابه يصيرون جمعا من شأنه انماء الهمم واحترام المرء لذاته ولم يطلبوا فى الوصول الى غرضهم من الحكومة الا ان ترفع عنهم القيود التى كانت تغلهم عن الترقي فى هذا السبيل دون ان يلتمسوا منها منة أو معونة وقد مضى على تلك الشركات نحو قرن من السنين ولم يحيدوا عن طريقهم هذا لانهُ الطريق الجد وبه الفخار ولهُ الوقار وهو الذى حمل أقل الناس ميلا اليهم على ان يقوموا لهم بواجب الاحترام ذلك بأنهم نخبة العمال وقد عرفوا بما عرفت به الامة البريطانية من ثبات الاخلاق والبقاء هادئة فى مباديها »

هكذا تمكنت النشأة الاستقلالية من ايجاد رجال بين رؤساء وعمال هم أقدر الناس بأنفسهم على حل المسئلة الاجتماعية

والآن نفرض — والامر واقع لاشك فيه — ان بعض الرؤساء لا يدركون حقيقة مصلحتهم فيبتزون أموال الفعلة ويأكلون حقوقهم بالباطل ويعتبرونهم كآلات يستعملونهم متى شاءوا ويتركونهم متى شاءوا ويحملونهم مالا طاقة لهم به من الاعمال ولا ينقدونهم الا الزهيد من الاجور ولا

يحتاطون أقل احتياط لمنع البطالة ومعونة الشيوخ على مصائب الدهر . ألا يكون الفعلة من أهل النشأة الاستقلالية أعظم استعداداً وأكبر قوة وأشد بأساً لاسترداد حقهم المسلوب أضعاف أضعاف ما عليه الفعلة الاتكاليون . انهم أقوى لان قوتهم تأتيهم من أنفسهم ولأنهم يلاقون ما يعترضهم من الصعاب بالمقاومة الذاتية مباشرة وهم ناجحون . ان أجحف بحقوقهم فى أمر معين وجدتهم يشكون شكوى معينة ويطلبون الانصاف بما لا يخرج عن حد المعقول والامكان لا كما يفعل رؤساء الاشتراكيين من سرد المبادى ورص القواعد والقاء الخطب المهيجة ونشر الرسائل فى الجرائد وتحضير المشروعات الخالية التى يطلبون فيها قلب نظام الهيئة الاجتماعية بتمامها والفعلة فى خلال ذلك يموتون جوعا

لذلك نقول ان انكلتره والولايات المتحدة أسبق الأمم فى حل مسئلة الفعلة خصوصاً بالنظر الى من كان منهم استقلالياً محضاً وهؤلاء يجتمعون تحت لواء شركات « ترادسينيون » وأما الفعلة الذين هم أقل من أولئك فلا تزال المسئلة دقيقة بالنظر اليهم فى هذين البلدين وكذلك عمال الحرف الصغيرة التى لا تقتضى فناً مخصوصاً كالحمالين فى مخازن لوندره العمومية . الا ان أولئك العملة ليسوا من أهل النشأة الاستقلالية الذين استعدوا للتزاحم فى الحياة بل يمتازون عنها بما فيهم من النقائص الشخصية أو لانهم من النشأة الاتكالية كالارلنديين والايقوسيين ومهاجرى الالمانيين والتليان وغيرهم وأولئك هم العناصر الذين ينتخب الفقر من بينهم أهله ورجاله فى انكلتره والولايات المتحدة وهم الذين يجد مذهب الاشتراكيين من بعضهم ميلا الى

مبادئه وهم الذين يحتشدون تحت لوآء أهل الثورة والاضطراب

وهذا أيضاً يؤيد ما استخلصناه من الابحاث المتقدمة وهو تأخر أهل النشأة الاتكالية عن أهل النشأة الاستقلالية بمقدار عظيم

انما المستقبل للأمم التى تمكنت من الخلاص من تلك النشأة والحكمة تقضى علينا ان نقول بهذه الحقيقة ونقررها فذلك أولى من التمسك بما يدعونه حلا لما نحن فيه وهو خيال لان ذلك المذهب أصبح بالياً ودل ماضيه على انه كان سببا فى استيلاء الضعف على قومه فى أزمنة الفراعنة كما انه ينتشر اليوم فى الدنيا كلها بواسطة أمة هى أشد أمم الغرب خضوعا لسلطان الحكومة المطلقة

الفصل الثالث

﴿ فى ان تصور الوطنية يختلف عند الفرنساويين ﴾
(والانكليز السكسونيين)

يجب على الباحثين الذين يميلون الى اختبار الافكار بالحوادث ولا تخدعهم شقشقة الالفاظ ان يفقهوا معنى كلمتى « وطن » و« وطنية » كما ينبغى وهما كلمتان كبيرتان اعتاد قوم على النطق بهما ذات اليمين وذات الشمال من غير امعان ولا تمييز وبعضهم ينطق بهما معجبا مختالا فلا يقبل فيهما بحثا ولا تأويلا وآخرون يلفظونهما مغضبين محقرين بلا قيد ولا ميزان فبينما هؤلاء

يمجدون الوطن ويدأبون على اثارة الوطنية فى الافكار يسعى آخرون فى الحط من معانى هذه الكلمة ويقولون أن الوطن امرأة تدعي الامومة تطفلا وأن ذلك الوهم اقام زمانا وانقضى ولم يعد موافقا لمقتضيات الايام الحاضرة وأن كل الناس اخوان ويعلنون على رؤس الاشهاد أنهم لا وطن لهم غير مبالين بما يحسه مواطنوهم من الخجل لسماع مثل هاته الاقوال :

هذان مذهبان مختلفان يتعذر التوفيق بينهما غير أن لكل مذهب سببا يعلله ومصدرا يرجع اليه وينبغى لنا أن نبين حقيقة الوطنية ونشرح صورها فى الأذهان بحسب تقلب الازمان ونقف على أسبابها ونتائجها ليتبين ان كان العالم صائرا الى تأييد تلك الحقيقة أو أضعافها أو تحويرها فنعلم أى الحزبين أصدق رأيا وأصح فكرا فاذا بلغ منا العلم أنهما محقان من جهة ومخطئان من جهة أخرى بحثنا عن درجة خطأ كل واحد منهما

تلك مسئلة عويصة دقيقة تحتاج من كاتب هذه السطور ومن قرائه الى روية كبيرة وحرية فكر واسع فيجب علينا جميعا أن نطرح ولو الى حين كل ميل الى الحزب الذى ننتسب اليه وكل تحزب للبلد الذى نحن منه ونفرض أنا نوجد فى كوكب غير قارتنا حيث نشرف منه مطمئنين على جميع حوادث الأرض وما يجرى فيها

أول شئ يراه الباحث هو أن الوطنية لا تنمو بدرجة واحدة عند جميع الامم لانها ثمرة اسباب شتى فهى تتنوع بحسبها ولها صور مختلفة تمتاز منها اربع عن البقية وهي . الوطنية الدينية أى التى يكون مدارها على الدين والوطنية التجارية أى المبنية على التنافس فى التجارة والوظيفة السياسية أى

التى تبنى على التطلع السياسى والوطنية الشخصية وهى التى ترجع الى حرية كل فرد فى معيشته الذاتية

الوطنية الدينية

تمتاز بالوطنية الدينية امم العرب والتركمان ويقال لهم (التواريج) [١] والاتراك وأمثالها وقد بينت فى غير هذا الكتاب الاسباب التى تحمل تلك الامم التى نشأت فى الصحارى على الخضوع لسيادة الطوائف الدينية [٢] فيوجد فى هذه الأيام بين تلك الامم كما وجد فى جميع أدوارها الماضية طائفة يرى الناس كلهم أنها صاحبة الحق فى السيادة فلا ينازعها أحد ولا يخرج عن حكمها أحد وليس رجال تلك الطائفة من قبيلة واحدة بل هى تتألف من كل متعصب انى وجد لذلك تجد فيها قوما من شمال الصحراء وقوما من جنوبها على بعد مابين المركزين وتمتاز تلك الطائفة بقوة البأس وبامتداد نفوذها حتى كأنها الجامع العام لتلك القبائل والعشائر . وهى التى وقفت فى وجه جميع الفاتحين الذين حاولوا اختراق الصحراء كما وقفت أمام الانكليز على حدود السودان المصرى كأنها حصن عزيز المنال وهى التى

---

(١) التواريج أمة من برابرة منتشرة فى صحراء أفريقيا بين بلاد (القوت) شمالا وتنبوكتو جنوبا والنيجر غربا وفزان شرقا وهى تعتقد أنها من سلالة الترك وتحتقر العرب ورجالها طوال القامة شديدو القوى خفيفو الحركات وديانتهم الاسلام وهم أشد القبائل بأساً فى وسط الصحراء وأصعبهم مراساً وهم الذين أبادوا الارسالية الفرنساوية التى توجهت الى تلك الاقطار تحت قيادة الميرالاى فلاترلتخطيط السكك الحديدية فى تلك الاصقاع

(٢) راجع مجلة المؤلف (العلم الاجتماعى) صحيفة ٣١٥ وما بعدها من الجزء الخامس عشر

تصدم امامها الامة الفرنساوية فى حدود صحراء الجزائر

أولئك هم ملوك الصحراء واسمهم الطوائف الدينيـة واسم رجالهم « الاخوان » والخلفاء اسم للرؤساء كما يقال لهم المشايخ وغير ذلك من الاسماء واحيانا يسمونهم المهديون أو رسل الله اذا حميت نار الاعتقاد وظن بعضهم نزول الوحى عليه من السماء والويل الويل لمن يحاول الدخول عندهم فى مثل هذه الازمان

ولهذه الطوائف « زوايا » فى جميع الواحات وهى معابد تابعة للجامع الاكبر ففي واحة « غمار » بالصحراء اثنا عشر مسجداً وأربع زوايا مع ان سكانها لا يزيدون على سبعمائة أو ثمانمائة . وللاخوان كلمة سر يفهمونها واشارات تعارف مخصوصة وهم درجات بعضها فوق بعض مقررة لديهم أجمعين تبتدي من السيد الاكبر أو الخليفة الى حامل العلم الى الحارس وهكذا ولهم جمعيات عمومية يتلقون فيها أوامر السيد السرية أو يحتفلون بدخول بعض المريدين فى الطريقة أو يهيئون فى البلاد ثورة ضد عدو يريد الاغارة عليهم سواء كان من داخل البلاد أو خارجها وكلهم وطنيون وهم غلاة الوطنية فى الصحراء

الى هذه الوطنية يرجع نظام العشائر التى كانت تسكن اقليمى أشور ومصر فى الازمان الخالية اعنى فى الدور الاول من تاريخ تلك الامم التى كانت تتألف من الشعوب الوافدة حديثا من الصحراء ولذلك خضعت لحكم الطوائف الدينية وقسس الاله « آموز » خضوعا كلياً أو جزئياً واليها أيضا يرجع محمد « صلى الله عليه وسلم » واتباعه وجميع القبائل والشعوب التى

اجتمعت تحت رايته فى وديان العرب أو الصحراء وأطرافهما من بلاد اسيا الصغرى الى بلاد الاندلس . كذلك يدخل فيها الترك فانهم أخذوا عن الاسلام اشكال حكومتهم وكانوا يجهلونها لما هم فيه من البداوة غير مستقرين فى مكان

ويكفى فى بيان حقيقة هذا النوع من الوطنية ذكر هذه الامم فالمتمسكون بها لا يطيقون الجدال فيها ولا يشفقون أى اشفاق على أعدائهم لان مرجع الوطنية فيهم الدين وهو لا يقبل التحوير ولا يحتمل التسامح والتفسير . وأهم شئ يوجب الخشية منها هى انها لا تقتصر على اخضاع الاجسام الى سلطانها ولكنها تبسط سيادتها أيضا على الافكار والارواح فلا تكتفى برضوخ من تتغلب عليه الى حكمها وتكلفه اعتناق مذهب أصحابها فاما الايمان واما الاعدام . ولقد اهرقت هذه الوطنية دماء كثيرة خضبت بها تاريخ أجيال عديدة وهى اليوم تنكشف الى الباحثين مثقلة بالفظائع والآثام

ان الدين اذا اتخذ الارهاب سلاحه بدل الدليل والاقناع لم يكن الا غضبا وهياجا ومن الواجب التنكيل بهذه الوطنية بكل ما فى الجهد ومغالبتها حد الاستطاعة وهذا الواجب انما يطلب من المؤمنين لانها تحط من قدر الاحساس الدينى والعدالة الصمدانيـة وهما أشرف الامور وأعلاها مقاما ذلك لان مثل الذين يدعون هذه الوطنية كمثل اردأ الزنادقة وأخبث المنافقين تراهم يحملون السيف أو العصا ويأتون موارد شهواتهم ومواضع انتقامهم ومرامى اطماعهم باسم الدين وتحت ستاره (١)

(١) نحن لاندرك معنى لحصر هذا النوع الممقوت من الوطنية فى الامم التى تقطن

الوطنية التجارية

تمتاز بها امم شواطئ البحر الابيض المتوسط قديما أيام كان ذلك البحر شبيها بحوض ذى سور مقفل أعنى أيام كانت سواحله آهلة بالمدائن والشعوب التى تمتد على شواطئ فينيقيا وآسيا الصغرى واليونان وجنوب ايتاليا والاندلس وافريقيا الشماليه وكلها تطلب الرزق من التجارة . ولا بد من أن التنافس كان شديدا بين تلك الامم وأن حياة كل واحدة منها كانت متوقفة على فوزها دون غيرها وليس التاريخ القديم الا عبارة عن قصص تلك المنافسات التجارية

الاقطار الاسلامية والاقتصار على ذكر العرب والترك والتركمان فان كان يريد التعريض بالاسلام فانه لم يصب محجة الصواب لان الاسلام لا يلزم أحدا من مغاير يه فى الدين أن يصير مسلما بعد أن يدين لحكمه والتاريخ أصدق شاهد على خلاف رأيه وكتاب الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم صريحان فى حقن دماء غير المسلمين ومسالمتهم الا الوثنيين منهم . هكذا جرى العمل حتى فى زمن الفتح أيام ثورة الدين حيث ما كان يرجى الحنان والاشفاق . فان لم يكن الاستشهاد بالقرآن مقنعا فى مذهب غير المسلمين فانا نورد على عبارة المؤلف ما قاله حضرة العالم الشهير الكونت هنرى دى كسترى صاحب كتاب الاسلام فى الفصل الثانى عن ملاينة الدين الاسلامى وكيف انه عامل المسيحيين وقربهم اليه فى مناصب الدولة ووظائف الملك (راجع ترجمتنا هذا الكتاب سنة ١٣١٥ هجرية)

وليس من الانصاف أن يرمى مسيحيو الشرق بهذه التهمة دون اخوانهم فى الغرب لان المذهب واحد فان كان الدين هو الذى أغضب المؤلف من وطنيتهم لزمه أن يعمم حكمه على البقية وان كان غيره فقد فسدت قاعدة رأيه ولعله كان يقرب من الحقيقة لو أطلق شرحه على الوطنية الدينية من غير أن يقيدها بامة دون أخرى لان فعل الدين فى النفس واحد نصرانيا كان الرجل أو مسلما أو يهوديا أو مجوسياً

ومن أجل ذلك احتاجت كل أمة من تلك الامم أن يكون نظامها موافقا لحاجاتها خصوصا ما يتعلق بدفع الاعداء ومهاجمة الخصوم اذ كان لا مناص لكل منها من الاعتماد على نفسها وهذا هو السبب فى اعتنائها كلها بتربية شبانها على التمرينات الجسمية حتى صارت القوة والمهارة وخفة الحركات والحذق فى رمى النبال أعز صفات الشبيبة فاقيمت ميادين الالعاب العمومية وعظم الاهتمام بها وما ذلك الا لانها كانت فى الحقيقة مظاهر للوطنية فى ثوب مخصوص

هنالك كانت الوطنية محلية أى قاصرة على أهل كل مدينة أو طائفة دون جارتها ومن هنا جاء اسم المدينة والبلد بمعنى الوطن مما ملئت به كتب المتقدمين لجميع الاعمال العظيمة والوقائع الشهيرة التي احتفظنا عليها كأنها من الدين وجعلنا نحشو بها اذهان ابنائنا فى المدارس من غير نظر ولا تأمل كلها صورٌ من تلك الوطنية التجارية . وقد افتخرت كل مدينة بشجعانها كما افتخرت بحكمائها لان الفريقين غرس أرض واحدة هى حالة تلك المدن الاجتماعية فى هاته الازمان . قال (استرابون) عن (كروتون) أنهُ كان يعتنى على الخصوص بتربية الشجعان حتى توصل الى اختصاص رجاله بالغلبة فى ميادين الالعاب العمومية وقيل أن أضعف رجل من رجاله كان يعد فى مقدمة اليونانيين . وكان الناس يعظمون الظافرين فى تلك الالعاب تعظيما لا مزيد عليه فيخلعون عليهم أحسن الخلع ويختصونهم باكبر علامات الشرف والامتياز ويتسابق المصورون الى اقامة تماثيلهم فى كل ناد . هكذا أقيم فى (اولمبيا) تمثال (استيلوس) وهو من تلامذة كريتون المذكور وقد

تمت له الغلبة فى ثلاثة ألعاب متواليات . وتمثال « فيليب » صاحب الانتصارات الباهرة فى تلك الالعاب وكان أجمل أهل زمانه وتزوج ابنة « تيليس » ظالم « تيباريس » وعد بعد وفاته من أكابر الابطال . وتمثال « فايلوس » وكان مكتوبا عليه انه كان يقفز خمسة وخمسين قدما ويرمي بالكرة على بعد خمس وتسعين خطوة . وأشهرهم « ميلون » الكريتونى فقد بلغت انتصاراته ستا وعشرين على اختلاف الالعاب وسارت الركبان بقوته الى أقصى الشرق وبلغت مسامع كسرى الفرس وأقيم له تمثال من النحاس وكان له شأن خطير في حروب قومه مع « سيباريس »

وكانت جميع المدائن تطمع فى الانتصار فى ألعاب أولمبيا وان تفوقها بألعابها ولذلك أقام سيباريس وكروتون فى نواحيهم الالعاب العمومية وجعلوا للفائزين فيها وسامات من الفضة رجاء ان يجتمع اليها يونان ايتاليا وسيسيليا ومدائن آسيا الصغرى وتلك الالعاب هى الاصل الاصيل الذى نشأت عنه ألعاب الرومانيين المسماة « جلادياتور » وكانت من أفظع الشنائع أيام سقوط الدولة الرومانية

تلك هي صور الوطنية التى عظمت عند أمم البحر الابيض المتوسط فى قديم الزمان . والذى ألجأهم الى ذلك احتياج كل أمة الى رد غارة غيرها بتجارتها وهى وطنية ترجع الى المال وكان من لوازمها الاثرة والشره ولم يكن السبب في تلك الوقائع والحروب التى رواها لنا مؤرخو تلك الاعصر موشاة بما يعجب القرآء الا الرغبة فى اذلال الخصوم بالقوة القهرية بعد العجز عن مغالبتهم بالمهارة فى التجارة والتفنن فى أساليبها . ولم يكن لحب الوطن الخالص

ورغبة التفانى فى الذود عنه من صدور أولئك التجار الا مكان صغير فى الحقيقة لا كما يتصوره الناس عنهم والدليل عليه انه لما تمت الثروة لتلك المدائن وملئت خزائنها من الذهب والفضة لم تعد تطلب حمايتها من قومها وعمدت الى تجنيد جيوشها من الاجراء . قال « جوستان » انكسر أبطال « كريتون » سنة ٥٦٠ فى احدى الوقائع فأهملوا من ذلك الحين صناعة الحرب وألقوا السلاح ومالوا الى الانهماك فى اللذائذ والانغماس فى الشهوات مثل «سيباريس» وكذلك كان شأن « تارانت » فانه بعد ان اشتهر بالشجاعة وسارت بذكر فضله الركبان أضاعها فى التنعم والفساد

والواقع ان تلك الوطنية التى بالغ الناس فى الاطراء بها ترجع الى رواية ذات قسمين ففى القسم الاول نشاهد تلك المدائن تثير الحرب على بعضها لتأخذ حظها من التجارة وفى القسم الثانى نشاهد التى ظفرت منها قد تولاها الانحطاط ودمرت بيد متغلب جديد خرج من مجتمع يخالف نوعها

— الوطنية السياسية —

مهدها عند الامم التى عظمت فيها الحكومة وانحصرت السلطة فى رؤسائها وأعظم مثال لها الامم الفرنساوية والالمانية والروسية والتليانية والاندلسية « الاسبانية » فى زمننا هذا ومثالها فى الزمن القديم الامة الرومانية

وليس القائم بالحكم فى هذه الامم الطوائف الدينية أو المجالس البلدية المؤلفة من التجار كما فى النوعين السابقين بل القائم عليه رؤساء من رجال الحرب أو ممن جمعوا حولهم الجند المجندة وامتدت سلطتهم فى أقطار شاسعة

وجمعوا تحت تصرفهم وسائل عظيمة من المال والرجال وخضع لاوامرهم العدد العديد من الجيوش والموظفين وهم لذلك أقدر من غيرهم على اقامة الحروب لولا يتهم على جميع عناصر البلاد الحية اذ كل شيء خاضع للدولة من جهة ما وليس لاحد من العمال ارادة غير ارادة الحكومة التي تنقده راتبه ملكيا كان أو عسكريا. وفي مثل هذه الاحوال تميل الجيوش الى الحرب اكثر من ميلها الى السلم كما انهم لا يعظمون الملك أو الوازع الاكبر في الجمهورية الا بقدر ما يكون له من الغزوات وما يؤتاه من الانتصار ومن أجل هذا كان رؤساء الحكومات ميالين طبعا الى الحرب وكثيراً ما يكون الحرب سبيلهم الوحيد في الاستئثار بمرغوب أو في دفع منافس يخشون مزاحمته. وهذا هو السبب في تلك الحروب العديدة التي منشأها التنازع على الملك بين العائلات أو الاطماع الذاتية للملوك والنفس تنخدع عادة بالاستيلاء على سلطة تجعل المرء في سعة ونعيم والناس يعترفون بهما ويقدسونهما متى تم النصر للغير

غير انه يلزم للظافر بعد ظفره ان ينظر في استبقاء نصره والبقاء ليس بالامر اليسير على حكم واسع الاكناف لا بد فيه من اغضاب قوم وجرح عواطف آخرين لعلة انه تكفل بالقيام مقام الكل في التفكير والتدبير حتى لقد يخشى على تلك الحكومات الضخمة ان ترزح تحت هذه الاحمال الثقيلة التي جلبها عليها استعلاؤها وسلطانها الرفيع فاذا وصلت الدولة الى هذا الحد التمست مخرجا منها بالحرب لتلوي أفكار الامة عن النظر الى الصعوبات الداخلية وهذا أيضا هو السبب في حروب كثيرة مما خلده التاريخ وسطره الكتاب. ومتى انتصر أولئك الملوك زادت سلطتهم وتمكنت سيادتهم

وحينئذ تراهم يثيرون الحروب ليزدادوا بسطة فى الملك لا ليثبتوا أملاكهم وليمدوا حدود ممالكهم العظيمة التى يفرح بها المؤرخون وتحزن لها الامم أولئك هم أكابر القياصرة وعظماء الاملاك والاكاسرة الذين غصت باسمائهم صفحات التاريخ واتخذهم المؤرخون بيانا لمراحل الاجيال

على ان هذه الدول العظيمة لا توافق طبيعة الاجتماع لما يلازمها من ارتكاب أكبر الفظائع فى الحياة العمومية وجلب أعظم المصائب والرزايا فى الحياة الخصوصية ولذلك فبقاؤها محدود ودوامها محال تراها تخر مهشمة عقب موت شجاعها وكثيرا ما يدركها الدمار فى حياته . هنالك تهب نار الحروب ثانيةً بين الخلفاء وتستمر من جيل الى جيل وفى الغالب يكون انتشاب تلك الحروب رغم أنف الامم لاحتياجها الى السلم كى تتفرغ الى السعى وراء رزقها والحرب تعطل الاعمال غير ان صوت الامة ضعيف فى مثل هاتيك الدول فان من شأنها الضغط على حرية الافراد فيما عساهُ يأتى من عندياتهم بما استلزمهُ نظامها من جمع السلطة كلها فى يد قوم معدودين . أما العامة التى تزاول الاعمال النافعة وتكب على الاشغال التى تأتى بالثمرة وتمكنها من اداء الضرائب والخراج فانها مطروحة وراء السلطة العمومية التى انتهبت منها رويداً رويدا قدرتها على الاعمال العامة وأضعفت فيها بواعث الاجتهاد ومصادر الانتاج وجعلتها لا تعرف من أمورها الا الطاعة والانقياد فهى تخضع الى الحكومة والموظفين كما تخضع لاهل السياسة أو المشتغلين بالسياسة وما علمنا ان الامة أبدت حرا كا أمام رغائب فيليب الثانى ولا تحت حكم لويز الرابع عشر أو حكومة الثروة أو نابليون الاول

ومعلوم ان هذه الحكومات العظيمة التي جمعت من العدد والعدد ما يمكنها من ارضاء اطماعها السياسية لا يتيسر لها تسيير أممها وحملها على احتمال ما تطلبه منها من الرجال والاموال الا اذا تذرعت لديها بمنفعة الوطن واثارت فى نفوسها عواطف الوطنية . ترى تلك الحكومات تتفانى فى حب السلام وما من أحد يسبقها فى الجهر بهذا الميل وتقول ان الحرب اكبر المصائب وأعظم البلايا حتى لقد جاء ذكر السلم اثنتى عشرة مرة في خطاب امبراطور المانيا الذى ألقاه فى « كيل » ومع هذا يقضون حياتهم في الحروب أو في تجهيز معداتها وتهيئة لوازمها وتلك الاستعدادات التي لا حد لها هى في الواقع أشد تدميراً وأعظم تخريباً من الحروب فانها تستنزف ما فى الامة من الرجال والاموال وكلما اشتد وقر هذا النظام اشتدت الحاجة فى الحكومات الى الاستنجاد بالوطنية ومن الصعب معرفة درجة ما تفعله الوطنية فى نفوس أمة بلغت منتهى الاضمحلال من جراء هذه الاحوال كما لا تسهل معرفة مقدار ماتؤل اليه من الخراب اذ بلغت الوطنية منها حدها الاقصى ومع هذا قد يتأتى الالمام بذلك اذا نظرنا الى حالة الامة التليانية لان البحث فى حالتها العلمية والاجتماعية يفيدنا فائدة كبرى ويرشدنا الى الغاية التى نحن صائرون اليها . كذلك نهتدى الى غرضنا بالتأمل في حالة بلاد الاندلس « أسبانيا » وانا نكتفي بتوجيه ذهن أهل العالمين الى هاتين الامتين ونضيف اليهما جمهوريات أمريكا الجنوبية لمن رغب الاستزادة في البيان

قال بعضهم ونعم قوله « لو انا أمعنا النظر فى حقيقة معنى وطن لتركنا الطريق وقفلنا راجعين » ومن المحقق ان الوطنية هى التي كانت سبباً في

قسم عظيم من الفظائع والمنكرات التي ملأت التاريخ وصيرت قراءته معيبة مخالفة للآداب . نعم انا عالم بانني احدث بمقالي هذا اضطرابا في نفوس بعض القراء وأراهم لغلوهم في الوطنية يشددون النكير عليّ ويفوقون نحوى سهام اللوم والتنديد ولذلك فاني أخصهم بمقالي واسألهم ان كانوا حقيقة في وطنيتهم صادقين . وأريد بالوطني من يبرهن على أعدائه بالافعال لانى لست اجهل ان عدد الوطنيين بالقول لا يحصى غير ان الكلام في بحثنا لا يفيد وأنا أخشى أن يكون السواد الاعظم مغروراً جذبته الاوهام فادعى بما ليس فيه

انما الوطنية تقوم بامرين مهمين دفع ضريبة المال واداء ضريبة الدماء ولست انكر انهم يؤدون الخراج بالتمام ولكن رأس الحكمة مخافة الجباة . على انه لا محيص من الاداء والدليل عليه انهم جميعا يستغيثون من فداحة المصروفات ويشنون الغارة على استرسال الحكومة في توسيع دائرة مصالحها واذا جاءهم مترشح في المجالس النيابية وجعل يخطب فيهم انه يميل الى تخفيف الضرائب والاقتصاد في المصروفات اقبلوا عليه واهدوه أصواتهم مهللين ومكبرين . الا أنني اقسم انهم بما يعملون يبرهنون على انهم في وطنيتهم التى لست أرضاها كاذبون لانهم لا يجهلون ان النظام الذي يدافعون عنه خلافا لرأيي يقتضي المال الكثير فلو كانوا في ادعائهم الوطنية صادقين أى لو كانت الوطنية فيهم غير مجرد التشدق في المقال وكانت مفهومة لديهم بغير ما يتظاهرون به من الحركات التي لا يرضاها العقلاء لما ساوموا الحكومة على المال الذى تحتاج اليه في تغذية تلك الوطنية وصيانة دعائمها . انهم اذا

صدقوا لدفعوا المال ولم يشكوا اذ كلما دفعوا انتصرت وطنيتهم وكلما انتصرت استبشروا وفرحوا . أما أنا فلست من المبتهجين لانى غير راض عن نظام الهيئة الحاضرة القائم على تلك الوطنية ولا حق لهم ان يغضبوا غضبي لانهم ان غضبوا فقد خالفوا أنفسهم وتناقضوا

أيها الوطنيون — العلامة الثانية على الوطنية كما تفهمونها هي ضريبة الدماء فلننظر كيف أنتم بها قائمون اذن ليس يخاف على أحد ان كل اهتمام الفرنساويين حتى غلاة الوطنية منهم موجه الى التخلص من الخدمة العسكرية مدة ثلاث سنين هم وأولادهم وانهم نظموا حياتهم للسعى فى هذا السبيل . فان كانت الخدمة ثلاث سنين لازمة فما سبب الهرب منها وان كانت غير لازمة فلم الدفاع عنها . الا تشعرون انكم متناقضون فى دفاعكم عنها وهربكم منها . انا نشاهد المدارس التى أعفيت تلامذتها من الجندية مدة سنتين بمقتضى قانون العسكرية الجديد أصبحت غاصة بالطلاب وكان الكثير منها فى درجة سيئة من الانزواء لقلة الراغبين فيها فأقبل اليوم اليها العدد العديد حتى ان مدرسة الحقوق خفضت من شدة الامتحان وسهلت الدرس تسهيلا لنوال شهادتها التى تعفى حاملها من الجندية سنتين كاملتين . وكأنى بالمدرسين وقد تنبهوا الى انهم آباء وان غلوهم فى الابوة يربو على غلوهم فى الوطنية . وارجع الى النواب والاعيان فى المجلسين فلا تجد منهم عشرة يؤدى أبناؤهم خدمة الجيش ثلاث سنين . هكذا يصادق الرجل منهم على جعل الخدمة ثلاث سنين ولكنه لا يقر على دخول ابنه فيها

وبالجملة فالوطنية التي نحن بصددها قائمة على المطامع السياسية بواسطة

الحروب وتوسيع نطاق المصالح العمومية غير انها وطنية صعبة الاحتمال على الامم فهى تفرح بها فى أول الامر ثم لاتلبث ان تشعر بثقلها فترغب فى التخلص منها وحينئذ تتكاكل تلك الاحمال على الضعفاء والمساكين والبسطاء أعنى على الامة فتميتها وتضعفها ثم يضيق بها الخناق يوما فتثور ثورة واحدة وتتخلص من مثل لويز الرابع عشر وحكام الثورة ونابوليون غير انها لاتخرج من حكم هؤلاء الا لتدخل فى حكم لويز الرابع عشر وحكام الثورة ونابوليون لان أولئك المسيطرين على الدوام موجودون فى مثل ذلك النظام

﴿ الوطنية الشخصية ﴾

يوجد هذا النوع من الوطنية عند الامم التى تفهم من هذا اللفظ معنى غير المعانى الثلاثة السابقة فالرجل من تلك الامم يرى ان الوطن فى بيته وان المنفعة التى يجب عليه الدفاع عنها هى استقلال ذلك البيت وساكنه وان الوطن السياسى لامفهوم له الا ايجاد وسائل ذلك الاستقلال الشخصى وان الرجل لم يخلق للوطن خاصة كما فى النوع السابق بل ان الوطن انما وجد لخدمة الانسان فهو لايهتم كثيراً بأن يكون وطنيا من أمة عظيمة وانما جل اهتمامه ان يكون وطنيا مستقلا وبالجملة فانه يرى نفسه رجلا قبل ان يكون وطنيا

هذه وطنية تخالف وطنية الامم اللاتينية وكان أول ظهورها فى غرب القارة الاوروباوية نحو القرن الخامس من المسيح فأدخلها قوم « الفرنك » فى بلاد « الغلوا » والسكسونيين فى بريطانيا العظمى والفرنك والسكسونيون من هيئة اجتماعية واحدة هى التى سميناها بالامم الاستقلالية لانها خالفت

الجمعيات التي ترجع في أصولها الى الامة الرومانية القديمة فجعلت الشخص أي الفرد الواحد راجحا على الدولة

ورجحان الفرد على الدولة هو الذى كان السبب في تجزئة البلاد الفرنساوية والجزائر البريطانية الى امارات صغيرة لا تحصى حتى صار عددها في القرون الوسطى بقدر عدد الاملاك الخصوصية فكان كل واحد سيدا في أرضه له الحكم فيها وحفظ النظام بين ساكنيها وهكذا حلت أوطان كثيرة في محل ذلك الوطن الوحيد الروماني وليس من غرضي الآن أن أبين هنا السبب في زوال هذا الشكل الجديد شيئاً فشيئا من البلاد الفرنساوية حيث اقصته عنها الحكومة الملوكية التي جمعت اشتات السلطة وفي بقائه كما هو ببلاد انكلترا غير أن الواقع هو اننا لا نزال نشاهد تلك الصورة عند الامم الانكليزية السكسونية أعني في بلاد انكلترا ومستعمراتها العديدة وفي الولايات المتحدة . ولكي نبين حقيقة تلك الوطنية ينبغي لنا ان نذكر طرفا من الحوادث التي يعملها الكل لما فيها من الدلالة الواضحة

أولا سهولة هجرة الرجل عن وطنه وليس مقصدنا أن يهاجر منه على مقربة من حدوده بل يرحل عنه بعيدا جدا فيقطع الارض من ناحية الى أخرى . والمهاجر من الانكليز السكسونيين يشعر دائما بانه انما يرحل عن بلده مستصحبا لوطنه اذ هو يرى الوطن حيث يعيش المرء حراً (١)

---

(١) هذا يذكرنا بقول الحريري

لا تركنن الى وطن فيه تهان وتمتهن
وارحل عن الدار التي تعلي الوهاد على القنن
وجب البلاد فايها ارضاك فاختره وطن

وثانيا استقلال المستعمرات بالنظر الى العاصمة الكبرى فكل مستعمرة لا يلزمها الا ان تكون تابعة لها ثم هى بعد ذلك مطلقة تحكم نفسها بنفسها كمتبوعها ولا تحسب أن حب الوطن يحملها على تسليم نفسها اليه يسيرها كما يريد . ثم أن هذه التابعية وقتية لا تدوم الا بقدر ما يتربى التابع وان دامت فلزمن قريب لان المستعمرات الانكليزية تميل الى الهجرة مثلها كمثل شبان الانكليز . هكذا انفصلت الولايات المتحدة عن الامة البريطانية وهكذا تبدو الآن علائم الانفصال فى أوستراليا وزيلاندا الجديدة وكندا ورأس الرجا . قال أحد السواح الانكليز وهو موسيو (مكس أوريل) (يفتخر سكان المستعمرات فى هذه الأيام بأن يطلق عليهم اسم الاستراليين و (الكنديين) والافريقيين وينمو فيهم روح الملة كل يوم والانكليزى هو الذى يغذى ذلك الاحساس فيهم اذ كل انكليزى يقيم بضع سنين فى مستعمرة لا يبقى انكليزيا بل يصير أوستراليا أو كنديا أو افريقيا ويحلف بوطنه الجديد وهم لا يقبلون من العاصمة الكبرى أن ترسل عليهم ولاة الا تأدبا منهم ومع ذلك يشترطون عليهم أن لا يشتغلوا بالسياسة أكثر مما تشتغل بها الملكة ورجال البيت الملوكى

وثالثا عدم الالتفات مطلقا الى الجندية وقلة الاهتمام بشأنها قال (أدوار د ريكلوس) فى كتابه (تخطيط البلدان الجديد) (أن انجلتره هى أقل الدول فى الجيوش الدائمية مع أنها تحكم على امم أكثر مما تحكم جميع دول أوروبا بأربعة الاضعاف فلا تزيد جيشها النظامي على مائة ألف جندى) وهو سدس الجيش الفرنساوى والالمانى والروسى أعنى بلاد الوطنية الثالثة

وهو ربع الجيش النمساوى وثلث الجيش التليانى فى حالة السلم وهو جزء من ثلاثين أو من أربعين من عدد الرعايا [(١)]

وهناك أمر آخر يوضح جيداً ان نظام تلك الامم لا يوافق الحروب قال « ريكلوس » فى الجزء الرابع من كتابه المتقدم ذكره صحيفة ٨٧٩ « لا يوجد فى انكلتره قانون للقرعة العسكرية وليس فى استطاعة الحكومة ان تحشد من أفراد الأمة جيشاً تحارب به رغبات الأمة والخدمة عندهم سنوية ولولا ان المجالس النيابية تقضي فى كل سنة باستمرار العساكر مجندة لانحل الجيش فى كل عام . ومن مبادئهم انه لا حق للوازع فى استبقاء جيش مستمر ينفق عليه من بيت المال الا باقرار القرى والبلدان فهى التى تقدم المال اللازم وتقرر القانون العسكرى فى كل عام » وليلاحظ ان القرعة غير موجودة كذلك فى البحرية بل يحشد رجالها من المتطوعين كالعساكر البرية.

وعدد الجيش فى الولايات المتحدة أيام السلم قليل جداً . فلا يزيد على ستة وعشرين ألفاً مع كثرة عدد السكان وبعد ما بين مشرق تلك البلاد

ومن هنا يتبين لك أن تلك الامم ليست ميالة الى الجندية ويزداد عدم الميل بتكاثر جمعيات السلام غير ان هذه الجمعيات لم تنتشر انتشاراً

---

(١) يظهر ان فى الطبعة الفرنساوية خطأ لان مجموع الرعايا على تلك النسبة لا يزيد على أربعة ملايين وهو قليل كما لا يخفى ولعل الاصل جزء من ثلاثمائة أو اربعمائة ويجب أيضاً ان يكون المقصود بالمعدود الرعايا الاصليين لا التابعين

محسوساً الا فى انكلتره والولايات المتحدة فلا يبلغ عدد جميع أعضاء الشركات التى تألفت لهذا الغرض فى البلاد الفرنساوية الا ألفاً ومائتين ولا نعرف فى المانيا سوى جمعية واحدة لا يزيد عدد أعضائها على السبعين أما انكلتره ففيها خمس جمعيات تتألف من خمسة وعشرين ألف عضو وهذا بخلاف جمعية سادسة تسمى جمعية السلام تألفت سنة ١٨١٦ وفيها بضعة آلاف من الاعضاء . وفى الولايات المتحدة جمعية واحدة يبلغ أعضاؤها أكثر من مليونين وبجانبها جمعيات كثيرة لا تحصى وأعضاؤها فى ازدياد على الدوام . ومما يدل على بغضهم أيضاً للحروب اتجاه الاميال فى هذه الايام الى فض المشاكل بواسطة المحكمين لا باستعمال المدافع والسيوف

اذا تقرر هذا سهل علينا ان نقارن بين هذه الانواع الاربعة

فاما الوطنية الدينية فقد انحصرت اليوم في الصحراء حيث تتعب الطوائف الدينية فى استبقائها وعلى كل حال فانه لم يعد لها أثر فى الخارج . لانها لا تستطيع ذلك وقد مال الدين فى أمم الغرب الى الملاينة والمحاسنة وصار ينتشر بالاقناع والاستدلال لا بالقهر والغلبة ثم انه اتخذ الضمائر أرضا يسكنها ومال عن الاستعانة بسلطة الحكومة على جلب المحازبين وعليه ترى ان الوطنية الدينية آخذة فى التقهقر من جميع الجهات

وكذلك الوطنية التجارية انقضى زمامها ولم يعد للاسباب التى كانت قائمة بها على شواطئ البحر المتوسط أثر فى الوقت الحاضر وكادت المدائن العتيقة تنقرض ان لم تكن قد بادت مثل فينقيا وقرطاجنه واليونان ثم فينسيا وجين وأصبحت تدل باطلالها أو اضمحلالها على ان تلك الوطنية التجارية

لا تصلح ان تكون أساً يقوم به نظام الهيئة الاجتماعية . واليوم لا حياة للتجارة الا بالتنافس فيها وان عمدت بعض الامم الى تخفيفها أو تحديدها بجبي الخراج على المتاجر فى مرافئ بلادها بل نشاهد ان العقبات آخذة فى الزوال بين الامم وان التجارة تتخلص كل يوم من قيودها وتسير مسرعة نحو الاطلاق بلا قيد ولا حرج . وحينئذ لا يمكن الاعتماد على هذه الوطنية فستلحق بسابقتها لتصير معها من زخارف تاريخ الاعصر الخالية

ومن الاسف انه لا يسعنا ذكر الثالثة كما ذكرنا الاولتين فان روح الوطنية السياسية لم يمت حتى الآن غير ان المرض قد اشتد بها أكثر مما يتخيله الناس وبدت عليها أمارات الفناء المحتم ولم يعد فى الامكان استبقاء تلك الوطنية زمنا الا باستعمال الوسائل الوقتية واستخدام أسباب الغلو فيها الى حد التعسف والتغطرس مما جعلها تزداد وقراً على الامة حتى صارت عبأ ثقيلا . ومن المظنون ان الدائرة تدور على فرنسا أو المانيا مثلا اذا سبقت احداهما الاخرى نخرت قتيلة تحت أثقال هذا السلام الذى صار أصعب احتمالا من القتال . غير ان الظافر فى ذلك الحين لا يفضل المغلوب الا قليلا

والنصر كل النصر للامم التى وطدت أركان نظامها على دعائم الوطنية الرابعة أو الوطنية الشخصية فهى التى تلوح على وجهها جميع بشائر الموجودات النامية التى استقر لها الامر وأمست آمنة على مستقبل الايام

أولا لانها طبيعية فلا تحتاج لمنبه من الخارج دائما ولكنها آتية من حالة اجتماع شأنها ان تربى فى المرء بحكم الضرورة حاجة الاستقلال والبعد عن كل قيد تريده الدولة ولا منفعة له فيه . ثم هو لا يحتاج فى المحافظة

على هذا الاستقلال امام الحكومة والتخلص من تلك القيود الا ان يتبع وجدانه الخاص فتراه يجرى على هذه الوطنية بطبيعة الحال كما يأكل ويشرب وينام

ثانيا لانها تساعد على انماء الثروة فهى لا تقتضي للجيش نفقة طائلة وهى تحمل النفوس على الكد والاسترزاق ما استطاعت ولا مشاحة فى الامم التى من هذا النوع هى أغنى أمم الارض كلها وما لها من ثمرة اتعابها

ثالثاً لانها تربى الاحساس الادبى في الانسان وهنا موضع تأمل لان غلاتنا أفسدوه فى الاذهان طلبا لمنفعتهم فقالوا ويقولون ان الحرب منبع عظيم تستمد منه الشجاعة والهمة ان لم يكن أعظم المنابع واكبرها وانه لو انعدم الحرب سقطت همم بنى البشر وذلوا . وربما كان القول مفيداً فى حمل الامم على تقتيل بعضها بعضا ولكنه قول يخالف المشاهدات كل المخالفة . الا ترى ان متوحشى امريكا الجنوبية وهمج افريقا فى حرب ونزال مستمر منذ قرون على اماكن الصيد والاقتناص وهم مع ذلك فى أحط درجات الانسانية . ولو صح قول الغلاة لكانوا أول الامم فى نمو الاحساس الادبى منذ قرون . واذا راجعنا التاريخ رأينا ان الرجل لم تسقط آدابه ويفقد مزايا الهمة الصحيحة الا فى أزمان الحروب والغارات أيام كانت الوطنية الحربية بالغة منتهاها . هنا لك تترادف على أسنة أقلام الكتاب حوادث القتل والخديعة والزور ومصارعة الاخ أخاه وغير ذلك من أنواع الفظائع والمخازى . ومن الصعب ان لا يميز الانسان بين هذه الاحوال وبين

مايقتضيه نمو الاحساس الادبي فى الامم على ان ذلك من الامور الطبيعية فانه متى ثارت ثورة الجشع فى قلوب الرؤساء أقبلوا بكلياتهم وجزئياتهم على الحرب والفتوح وداسوا كرائم الشمائل بالاقدام . ومتى اشتبك القتال وحمى وطيس الحرب بين الجند اندفع العسكر الى ارتكاب الشناعات وأعمال القسوة والتوحش والفجور وهى الافعال التى يسميها الناس فظائع الحرب وموبقات الجيوش . نعم يرد ان نظام الجيوش فى هذه الايام لا يقتضى مثل تلك الاعمال وهو صحيح الا ان فساد الاخلاق حاصل أيضا وانما تغير شكله ليس الا

ومن حسن الحظ فى هذا الزمان ان صار الحرب نادراً وصارت معيشة الجندى معيشة سلم مدجج بالسلاح وصار بيننا وبين ذلك العسكرى الذى يقضى حياته فى الحروب أجيال طوال وأصبح جندينا يقضى حياته فى الثكنات يتمرن بسلاح قد لاتحين الفرصة لاستعماله فهو واحد من الامة يعيش مطمئنا الا انه على نفقة الحكومة وليس فى تلك المعيشة مايوجب نموّ الاحساس الادبي ولكنى أرى فيها مايدعو الى النقص فيه لانهم يعيشون فى شبه بطالة بغير عمل ذاتى ولا تبعة عليهم فى شئ محرومين من جميع المشتهيات كالرهبان وكلها شروط لاتوافق العزة ولا تربى الانفة ولاتشجع النفس ولا تنمى الاحساس لان أول الدلائل على نموّ الاحساس الادبى فى الانسان قدرته على مغالبة نفسه واستطاعته على تذليل متاعب الحياة ورضوخه الى ما تقتضيه من الكد والعمل . ومما لا يختلف فيه اثنان ان الخدمة العسكرية تضعف فى الرجل هذا الاستعداد اضعافا شديداً فلايليق الجندى

القديم الا للخدم فى مكاتب الشرطة ومن الصعب عليه ان يعود زراعا أو أجيراً كما كان قبل ان يصير جنديا لانه يري تلك الأعمال شاقة عليه فثبت ان مدة اقامته فى ثكنة العساكر أضعفت عزيمته وأوهنت قواه الادبية

كذلك يتأثر الضابط من ذلك الوسط تأثيراً ليس حميداً ومنهم من يشتغلون فينجون من عدوى الثكنات بعض النجاة ولكنهم لا يفضلون غيرهم من الناس الذين يكدون على رزقهم . ومنهم من لا يعمل عملا أبداً ويكتفون باداء الواجبات العسكرية دون غيرها وأولئك تراهم يقضون أوقات فراغهم الطويلة فى القهاوى أوالمقامرة أواستنشاق الهواء أوالزيارات أوالملاهي والملاذ . وليس فى هذه الاعمال كلها ما يرفع درجتهم الادبية فوق درجة أقل الناس

ولا شك فى ان الامم التى لم تحفل بالجندية والوظائف الادارية أرفع منزلة فى الآداب من التى بسطنا الكلام عليها لان شبانها لا يجدون فى العسكرية أو المصالح الاميرية مقاعد يتكئون عليها بلا تعب ولا عناء بل يضطرون فى تحصيل رزقهم الى الاحتراف بالصنائع الجارية وهذه تقتضى اقداما أوفر وعزما أوفى وفيها السرآء والضرآء وتبعتها أكبر ولكنها فى كدهم هذا لتحصيل عيشهم وايواء عائلاتهم يجدون همة وقدرة أدبيتين لا يجدهما من تيسر رزقه وعاش كسولا .

رابعا لانها تساعد على انتشار الامة وسهولة تعود افرادها على الاقامة فى جميع انحاء المسكونة فبينما نحن الفرنساويين نجتهد فى احياء العواطف الوطنية التى تولاها الانحطاط فى ارجاء البلاد كلها باستعراض الجيوش

واقامة الاحتفالات العسكرية يمخر خصمنا فى عرض البحار بسفنه العديدة ويغير على اطراف المسكونة بمهاجريه الذين لا نحصى لهم عداً وكأننا لا نراه أواننا نحتقره لانه لم يتسلح مثلنا من قدميه الى عينيه . ولكننا لا نزال متأخرين باعتقادنا ان قوة الامة من قوة حكومتها لانه اعتقاد باطل اذ لو كان صحيحا لاصبحت سيادة العالم بأسره فى يد الامم اللاتينية ومن المشاهد انها ترجع القهقرى كل يوم امام تقدم الامم الانكليزية السكسونية على صغر حكوماتها وقلة جيوشها .

اذا تبينا هذا كما ينبغى تمكنامن أخذ ثارنا من ألمانيا كما يبتغيه كل واحد منا لاننا اذ ذاك لانطلبه بالافراط فى حشد الجيوش وتعبئة السلاح فان ذلك يضعف الغالب والمغلوب سوآء بل نبتغيه من وراء اعلاء كلمة الامة فهى القوة الحقيقية لان قوامها العمل واستقلال الافراد فيه

وليلاحظ ان حالة الحرب أوحالة السلم المسلح ليست من الضروريات الازلية بل هى نتيجة أشكال الجمعيات التى استولت على زمام الامم الى هذا الحين وكانت كلها راجعة الى الافراط فى تعظيم السلطة العمومية وتوسيع نطاقها . أما الامم التى اتخذت شكلا آخر فانها لم تعد تشعر بحاجة الى الاقتتال وصار الحرب عندها نادراً وهم لا يستبقون جيوشهم على قلة عددها الا تمسكا بالعادات وجريا على الماضى أو لاجل ان يدفعوا بها غارة الامم التى لاتزال ترى كل شئ من خلال الجند مليحا

ولنلخص ماتقدم فنقول :

ان الوطنية السياسية وطنية صناعية كاذبة تقود الامم الى الدمار

والوطنية الحقيقية هى التى تفضل استقلال الشخص وتحميه من تعديات الحكومة وتوسيع نطاقها ضد مصلحته لان هذه هى الطريقة الوحيدة فى استبقاء قوة الوطن وتحصيل سعادته

الفصل الرابع

﴿ فى ان الفرنساويين يختلفون عن الانكليز السكسونيين ﴾
« فى ادراك حقيقة التضامن والتكافل »

أصبح التكافل اليوم مذهبا مقبولا فى فرانسا كالبديهيات حتى ان أحد رؤساء الوزارة السابقين وهو موسيو « ليون بورجوا » كتب فيه رسالة مخصوصة قال فيها ان أحزابهُ عديدون وذكر منهم الاشتراكيين من المسيحيين وبعض علماء الاقتصاد الالمانيين والفلاسفة كموسيو « فويه » و « ايزولى » وحكماء الفلسفة الوضعية الذين يسمونه مذهب « الغيرية » قال « والمذهب واحد عند الجميع وان اختلفت أسماؤه ومرجعهُ الى القول بوجود رباط طبيعي من التكافل بين كل فرد من الافراد وبين البقية » ولو اقتصروا على ذلك لامكن التسليم بهذا المذهب اذ لاضرر فيه ولانه انما جاء بحقيقة لاتخفى على عامة الناس غير ان فى الامر شيئا آخر ينبغى التحرز منه ذلك ان القائلين بهذا المذهب يريدون ان يجعلوه المرجع الاصلى فى المسئلة الاجتماعية بتمامها ويرون انه الوسيلة فى حل مشكلاتها ومقدار بحثهم كله على المسئلة الآتية هل يجب ان يكون الفرد تابعا للكل أو الكل للواحد وهم يجيبون

بأن الصواب تتبع الواحد للكل وعليه فالموضوع ليس بسيطا ولكنه يحتاج الى النظر والتنقيب

وأكبر دليل فى رأى موسيو « بورجوا » على صحة المذهب هو قوله ان الرجل تابع للجمعية لانه مدين لها وليس هو مدينا لمعاصريه فقط بل « يولد مدينا للنوع الانسانى بأكمله » ومنه الاجيال الماضية « لانه يأخذ حظه مما ترك آباؤه وآباء الآخرين »

ويرى المتأمل من ايراد هذا الدليل على هذه الصورة انه يسهل على صاحبه اطالة الشرح فيه كما يعلم ان من السهل انتحال طريقته للرد عليه قال « يتبادل الناس المنافع وهم أحياء » فهم حينئذ متكافلون

وقد يجاب على هذا القول بأنه قول صحيح وبأن الناس يتبادلون أيضا احقاداً وبعضهم مع البعض الاخر يتنافسون فليسوا حينئذ متكافلين

قال « اذا ولد الانسان رأيته يتمتع برأس مال عظيم جمعته الاجيال الماضية » فهو حينئذ مدين

ويقال فى الجواب نعم ولكنهم أيضا أضعفوا قوة العمل الذاتى لانهم لم يتركوا من الارض الا يسيراً لم يستغلوه فصيروا التنازع فى الحياة عنيفا لذلك يكون الفرد من الدائنين

وهكذا يسهل الاسترسال فى هذا البحث على هذا النحو والموضوع واقف عند الحد الاول وتكون النتيجة لعبا بين متناظرين ينتهى باعتقاد كل واحد منهما انه ألزم خصمه الحجة وأسكته بقوة البرهان

والحقيقة ان بين الناس منافع مشتركة وأخرى متناقضة فهم للاجتماع

دائنون ومدينون وهنا عقدة الاشكال الا ان موسيو «بورجوا» قد سهل لنا حلها برسالته

ولنجعل مبدأ بحثنا ذلك الدليل الذى اختاره دون غيره وردده مرارا وجعله العماد الاول في تفضيل الكل على الواحد وهو قوله «يولد المرء مدينا للهيئة الاجتماعية فيأخذ حظه مما ترك آباؤه وآباء الاخرين حتى ان أحقر الصناع في زمننا هذا ليفضل متوحش الازمان القديمة بمقدار ما بينه هو من التفاوت وبين رجل من نوابغ عصره» الى أن قال :

«وما تاريخ الانسانية الا عبارة عن تاريخ ما تحمله النوع الانسانى من المتاعب والخسائر التى لا يحصى عددها ولا يمكن تقدير أهميتها حتى وصل بعقله وقوة ارادته الى أدراك ما أودع فى الكون من العناصر والقوى وتمكن من اخضاع الجميع لسلطانه واستعمالها فى منفعته ليجد كل فرد من أفراده يوم يوجد وسطا يسهل عليه فيه تربية ملكاته وانماء ما اختص به من القوى بحرية أو فى وأكبر أى لتكون الانسانية أحسن فى الحال والاستقبال منها فى الماضي والى راحة الاجسام أقرب والى دعة الافكار ألزم والى اطمئنان الضمائر أوجب»

ذلك أمر لا شك فيه فالرجل مدين للهيئة الاجتماعية بما وصلت اليه من الترقى واليها يرجع فضله الحالى على متوحش القرون الاولى . غير ان البحث الوحيد المهم الذى ينبغى الخوض فيه هو معرفة كيف حصل هذا الترقى فى الهيئة الاجتماعية . هل كان فى حصوله الكل خاضعا للفرد أو الفرد تابعا للكل كما يشاء موسيو بورجوا . وبعبارة أخرى هل الذى أوجب

ذلك الترقي الذى صير فى رأيهم الواحد مدينا للكل هو عمل الجمع أو عمل الافراد . وبعبارة أوضح هل هو من عمل الجمعيات التى كانت السلطة فيها فوق كل شيء أو من عمل الجمعيات التي كان كل فرد حراً فيها يجرى وراء مصالحه كما يشاء : لانه لا يتأتى لهم بالطبع ان يبنوا مذهبهم على ما حصل من الترقى ولا يلتفتون الى كيفية حصوله وطريقة اكتسابه

واذا تمهد هذا سهل علينا البحث فى موضوعنا

من الحقائق التى يعرفها كل واحد ان الامم الحاليـة ساعدت على نمو التقدم أكثر من الامم الماضية وان الامم الغربية تفضل فى ذلك الامم الشرقية

ومن الواضح ان الامم الحالية والامم الغربية انما فضلت غيرها بتغلب العمل الشخصى على العمل العام أي بقوة استقلال الفرد امام الكل فكلما انتقلنا من الماضى الى المستقبل وسرنا من الشرق الى الغرب نشاهد شخصية الافراد تعظم شيئاً فشيئاً وان الواحد يستقل عن الهيئة ويستأثر بكثير من الاعمال دون البقية وان العمل أصبح حراً بعدان كان مقيداً واضحى ذاتياً بعد ان كان كليا كما انتقلت الملكية من يد الجمع وتقسمت على الافراد فبطلت صولة القبيلة على كل واحد من اعضائها وبادت اثرة الطوائف دون افرادها واستوى كل باخيه مدنيا وسياسيا وتبدلت الحكومات من ملوكية مطلقة أو جمهورية مستبدة الى ملوكيـة أو جمهورية حرة نيابية . وبالجملة نشاهد التقدم الاجتماعى يسير خلف استقلال الافراد تجاه الحكومات: واذا نظرنا الى أمم الغرب وحدها رأينا ان التى تفوق غيرها منها فى التقدم وسرعة

الترقى والثروة والانتشار هى التي يعظم فيها قدر الواحد ويتأيد استقلاله الذاتى ذلك كله واضح محسوس فلا أطيل الشرح فيه .

على ان موسيو « بورجوا » لا يخالف فى الحقيقة ما أقول ولم يفته ما فى مذهبه من الضعف والفساد وان بناه على ظاهر خداع قد تفوت مضاره على غير الناقدين بل عرف يقيناً انه يؤدى الى اماتة روح العمل فى الافراد وسد باب التقدم الذى هو مدار مذهبه لذلك أخذ يقدم الرد على ما خشى الاعتراض به عليه فقال « لقد عرف الكل فى تاريخ الامم والشعوب ان السبب الاصلى فى الترقى تزاحم الافراد على استقلالهم وان الامة لا تتجه نحو التقدم الا اذا نشط الواحد من قيوده وتيسر له استعمال ما اختص به من الملكات والمزايا وانه بقدر تقدم الافراد فى استقلالهم ونمو حركاتهم الجسمية والنفسية التي هى قوام كل حركة اجتماعية يكون تقدم الهيئة بتمامها ويعظم عملها فى سبيل الترقى والنجاح »

وذلك أبلغ ما يقال غير ان المؤلف بعد ان فرغ من هذا التحقيق جعل يتأوله ويتدحرج فيه حتى ارجعه الى مذهبه كيلا لا تترك قوى الافراد للافراد فقال « واجتماع قوى الافراد تحت لواء واحد قهراً فى أزمنة الاستبداد أو اختيارا في اعصر الحكومات الحرّة هو الذى أيد بقاء المجتمعات الانسانية وحفظها من الشتات وهى العائلة والقبيلة والمدينة والشعب والدين والامة » وعليه فارق نظام فى الوجود هو « الذى تحصل به الموازنة بين الافراد والكل حتى يعيش الكل للواحد ويعيش الواحد للكل ويصبح هذان المؤثران متلازمين بعد ان ظنهما الناس نقيضين زمنا مديداً الا وهما تقدم

كل فرد فى حياته وتقدم الامة فى حياتها » ومزج النظامين الفردى والكلى على هذا النحو يأخذ بالافكار علما ويدل صراحة على ان المؤلف يريد أن يرضى الجميع لكن من ذا الذى يبين لنا مقدار ما يجب من كل عنصر فى هذا المزيج ومن الذى يتولى أمر المزج بين العنصرين وهل يوجد من يتسنى لهُ هذا المزج ونحن نعلم ان علم تحليل الهيئات الاجتماعية أكثر تعقيدا واكبر استعصاء من علم تحليل الاجرام .

لم يفت ذلك موسيو بورجوا فعقد لهُ فصلا مخصوصا عنوانه « تطبيق مذهب التكافل الاجتماعى عملا » اليك أهم حديثه فيهِ

يجب في التأليف بين العنصرين ان يلتفت الى طبيعة الاجتماع وغايته والظروف التى تكتنف كل فرد يوم ينضم اليه وحظه منه وواجبه فيهِ وبالجملة ينبغى أن يقابل بين مزايا الاجتماع ومتاعبه بالنظر الى كل فرد من افراده حتى يتبين بذلك ما لهُ من الحقوق وما عليه من الواجبات

« وليس لشارع الامة ان يكون هو مفرق الحظوظ والمتاعب فى الاجتماع فلن يكون من وظيفته ايجاد الحقوق بين الناس بل تنحصر واجباته فى انتزاعها من ملاحظة روابطهم مع بعضهم البعض والوقوف عند بيانها وتقرير احكامها ومتى تبين النسبة الكائنة بين عناصر الهيئة الاجتماعية وضحت لهُ النسب التى توجد بين ضمائر المجتمعين ومشاعرهم فيقررها

وحينئذ لا يكون شرعه قانونا سنتهُ الهيئة الاجتماعية وألزمت الافراد باتباعه الزاما بل يكون ذلك القانون عبارة عن الناموس الطبيعى للهيئة الاجتماعية الواجب العمل به بين الناس

ويرى القارئ ان موسيو بورجوا على رجاء من وصول الناس — بعد زمن طويل — الى درجة من التنور والعرفان والحكمة تمكنهم من الاتفاق على عقد اجتماعي يصيرون بمقتضاه شركة اختيارية يسهل عليهم فيها « الجمع بين القوى المتناقضة وتحويلها كلها الى مؤثرات مفيدة لكل فرد وللمجموع وان يقيموا على اطلال التنافس والخصام ودوارس السلطة القهرية والاستبداد بناء هيئة اجتماعية جديدة عمادها السلام وقوامها التراضي والاختيار »

ولا شك فى ان هذا مطمح لا يرمى اليه الا حكيم وهو الغرض الذي يجب أن تقصده الانسانية فى خطاها وهو الذى يمكنها أن تسير اليه الا انه يصعب علينا أن نمشي مع المؤلف هذا الشوط البعيد كما يصعب علينا ان نوافقه على ان المقدمات التي وضعها تؤدى الى النتيجة المذكورة فقد دلنا على وجود قوتين فى الحياة الانسانية وهما قوة كل فرد منها وقوة الهيئة المجتمعة واعترف بان التقدم الذى وصلت اليه راجع الى الاولى منهما ثم استنتج مع هذا وجوب انماء الثانية وجعلها محل الرجاء فى « الوصول الى هيئة جديدة عمادها السلام وقوامها التراضي والاختيار »

وانى لا اخطئ كثيراً اذا قلت بان هذا التناقض مقصود فان موسيو بورجوا رجل سياسي أولا وبالذات وشغله الشاغل قبل كل شيء تأليف حزب يكون له نصيرا ثم العمل على دوام هذا الحزب وانتشاره بما يصل اليه الامكان وهو يخشى أن ينفر محازبيه ان قال لهم ان الحياة أيها الاولياء ليست لعبا ولهواً وانما هى مغالبة دائمة ضد متاعب لا تحصى متجددة فى كل آن ولن تنالوا الظفر فى هذا الجهاد الا اذا جعلتم كل اعتمادكم على أنفسكم

لا على غيركم اذ كل ما يمكن لاهليكم واصدقائكم وجيرانكم وحكومتكم ان يساعدوكم به أقل فى الحقيقة بكثير مما يمكنكم ان تساعدوا به انفسكم بانفسكم اذا عولتم عليها ولم ترجعوا فى أموركم الا اليها . لانه من المسلم أن مثل هذا الخطاب انما يؤثر فى عقول المتنورين ولا يأخذ الا بقلوب الذين سمت مداركهم وكانوا قوما عارفين . ولكنه لا يجذب الجماهير خصوصاً من أسلموا أمرهم الى أهل السياسة وأوقفوا حظهم فى الحياة على مايعملون . ذلك لانهم لا يطلبون نصيبهم فى الوجود الا من الحكومة ولا يرجون مزية الا من الهيئة بتمامها ومثل هؤلآء القوم يسهل اكتساب قلوبهم اذا وعدوا اصلاح امورهم بواسطة ذلك التكافل لانه صيغة مبهمة بسيطة يقبلها الناس بالسهولة ولا تضيق على أحد ولا توجب شيئاً من المتاعب ولا تستلزم مع ذلك تغيير شئ مما يجرى عليه الناس في الحياة الآن . وهى دعوة تلذ لعامة الناس الذين لا يطلب منهم عمل من الاعمال وهم لا يطلبون كل شئ من غيرهم وتلذ أيضاً لرجال السياسة والمشتغلين بالمسائل الاجتماعية والحكماء ومحبى الانسانية الذين لا يتكلفون من القول الا يسيراً ليظهروا أمام الناس فى ثوب قوم عرفوا متاعب الانسانية وكانو بها مشفقين

نعم يكفى ذلك لتأليف الاحزاب وجمع النصرآء ولكنه لا يكفى للنهوض بالانسانية نحو كمالها بل أنه يزيد في سوء حالها لان التكافل أمر وهمى أكثر مما هو حقيقى واليك البيان بالايجاز

أولاً مجرد النداء بان الناس كفلاء بعضهم لبعض وأن مساعدة البعض للبعض واجبة لا يكفى لايجاد التكافل أولا حكام روابطه بينهم وانما ميل الافراد

الى الاعتماد على الجمع أو جعل الفرد تابعاً للكل يتولد فى الهيئآت الاجتماعية بمقتضى نواميس مقررة يرشد اليها التأمل فى الوجود ويعرفها قراؤنا فحيثما وجدت تلك النواميس تولد هذا الميل من غير احتياج الى النداء به أو الارشاد اليه لانه يحدث بانتظام كما تتولد جميع الحوادث الطبيعية فاذا أردنا انماءه وجب علينا ان نعرف الظروف والحوادث التى استلزمت وجوده

وهنا يظهر ما فى مذهب التكافل من الوهم والخيال اذ لسوء الحظ كلما قوى هذا الميل اشتدت تابعية الواحد للكل وتأصلت عنده عادة الركون اليه وقل اعتماده على نفسه وصار اعزل امام متاعب الحياة لما يعتريه من فتور الهمة وضعف الارادة وسقوط العزيمة على العمل . وما لتأخر الشرق عن الغرب سبب غير هذا

واذا أردنا أن نحفظ التوازن بين الواحد والكل على الدوام لزمنا القول بوجوب زيادة اعتناء الكل ومضاعفة سهره على قدر ما يعترى الواحد فى ذلك الوسط من الخمول والانحطاط . ومن نكد الطالع أن العكس هو الواقع وهو معقول لان ذلك الكل الذى نحتاج اليه فى الاستعانة على ضعف الواحد انما يتألف من مجموع أولئك الضعفاء فطبيعته من طبيعتهم والذي يضعف الفرد ويجعله مفتقراً الى غيره يضعف الكل ويعوزه ومعناه ان التكافل يزداد ضعفاً بقدر اشتداد الحاجة اليه . وأنى أسأل القرآء عفواً عن تقرير هذه الحقائق التى هى فى الواقع بديهيات

وعليه يتبين أن هذا المذهب معيب من جهتين أولا لانه يولد فى الامة أفراداً لا اهلية لهم فى شئ من الاعمال ويساعد على كثرة عددهم

شيئاً فشيئاً . وثانياً لان أمة تضعف عن مساعدتهم كلما كثر عددهم

مامساعدة الهيئة للافراد الا وسيلة عرضية وقتية تحصل بطريق الاستثناء عند اشتداد الضنك ببعض الناس فليست دواء يشفي العلة بل هي مسكن كالمخدرات تهدئ صورة الالم حينا لكنها لاتنيم الالم الا اذا أنامت المريض

كذلك يحتاج فى تطبيق مذهب التكافل عملا الى اتفاق جميع الافراد على قبوله أى الى تحرير ذلك العقد الاجتماعى الذى ينشده موسيو بورجوا ويحصر آماله فيه . اما اذا اعتضنا عن عمل الكل بعمل كل فرد فانا نفتح لكل واحد سبيل نجاة الهيئة الاجتماعية بتمامها كما أن الدين يفتح لكل فرد باب سلامته الابدية . فالواقع أن الحياة الاجتماعية كالحياة الابدية كلاهما متعلق بالافراد لا بالجموع و على كل امرئ ان يتخير السبيل الذى يوصله الي نجاته بنفسه كما يتخير التربية التي تجعل ابناءهُ قادرين على الحياة بأحسن الطرق والوسائل . وكلما تشبعت الافكار بان قيام المجتمع الانسانى متوقف على عمل كل فرد أحس كل واحد منهم بوجوب التعويل على نفسه دون غيره ومال الى استعمال ما أوتيه من الهمة والارادة والاجتهاد .

رب معترض يقول انا مقيم حب الذات مقام مذهب عليه صلاح الانسانية وفيه نجاتها وهو اعتراض نخيم الالفاظ يخاف منه اناس كثيرون لذلك وجب أن نفصح القول لنعلم ان كان حب الذات فيما نقول أو فِي المذهب الذى يقول به غيرنا

قلت ان مذهب التكافل خيالى وأزيد عليه ولا أخشى معارضاً انهُ

صورة من صور حب الذات المخجل حتى انى كنت وضعت لهذا الفصل عنوانا آخر (هو حب الذات عند الغيريين) وسيتضح للقراء ان التسمية كانت صحيحة لا مجرد تلاعب بالالفاظ . ذلك لانه بالبحث فى التكافل نراه يشتمل على أمرين كون المرء يساعد غيره وكونه ينتظر المساعدة من غيره ولعمرى لست أدرى اى الاعتبارين يجذب النفوس نحو هذا المذهب ويجعل الناس يجتمعون حوله ان كانت رغبتهم فى مساعدة غيرهم أو رجاءهم المساعدة من ذلك الغير . ومن المشاهد ان الذين يميلون الى مساعدة غيرهم يؤدون تلك المساعدة من انفسهم وهم يفعلون ذلك منذ خلقت السموات والارض ولم يقولوا بان عملهم هذا مذهب لازم فى الانسانية ولم يتحروا النداء به على رؤوس الاشهاد . وعليه فميل المرء الى مساعدة غيره ليس هو الاعتبار الذى أوجب انتشار مذهب التكافل الجديد وانما الذى أوجب ذلك هو تصور المساعدة من الغير حيث يمسى الواحد راجيا أن تجعل له الحكومة أو الامة راتبا أو توجد له عملا ايا كان يعيش منه . هذا هو الذى يختلب الافكار ويجتذب النفوس ويحشد الجموع حول مذهب ظاهره التضامن والتكافل وباطنه الاثرة وحب الذات .

ان الرجل الذى يؤدى الجزية الى صندوق الحكومة والذى يتقاضى الراتب من ذلك الصندوق شريكان متكافلان في عملهما غير ان لكل وجهة فى شركته فالتكافل يحلو لاحدهما دون أخيه . الا ترى أن المرء ميال الى التوظف أكثر من ميله الى أن يكون ممن وجب عليه الخراج واقرب الى اعتبار التكافل فى منفعته من اعتباره واجبا عليه .

والخلاصة ان المرء ميال الى استخدام غيره اكثر من ميله الى خدمته وان صاح موسيو بورجوا بما يخالف ما ذكر واليك دليلين قريبي العهد منا أخذناهما من طريقة الاستعمار عندنا

الاول ننقله عن أستاذ الفلسفة موسيو «لابى» من رسالة نشرها فى مجلة الفلسفة العقلية يصف فيها معاملة الاوروباويين للاهالى فى مستعمراتنا قال «لقد نشر الاستبداد جناحيه فى كل ناحيـة وشملت الاثرة جميع الناس باشد حالاتها وصرنا نشاهد ان حكم الشرفاء يحيي من جديد فى المستعمرات حيث الاوروبى هو السيد الامير والوطنى هو الخادم الحقير حيث الامير هو الذى يقضى بين اتباعه بمعنى انه يصادرهم فى ماشيتهم ان جاءت لترعى فى أراضيه أو يقدر الغرامة التى تجب عليهم وقد حذا الخدام حذو المخدومين فما وجد خادم أوروبى بين خدام وطنيين الا رأيته ألقى ما فى يده من آلات العمل وجعل يصدر الاوامر للآخرين ثم الجندى يوحى الى المدنى طريقة الاستبداد وبالجملة فان عيشة المستعمرات لا تلائم الفضيلة ولا تدعو الى مكارم الاخلاق»

والدليل الثانى نأخذه عن موسيو «لانسان» وهو من الطبيعيين خلافا لموسيو «لابى» وكان حاكما فى «التونكين» وقضى فى المستعمرات زمناً طويلا وله كتاب سماه «مبادئ الاستعمار» تكلم فيه عن علاقات الاوروباويين بالوطنيين ومما جاء فيـه قوله «أعظم رجل متمدن يصير فى المستعمرات كالطفل فى معاملة العجماوات فهو يعامل الوطنيين كانهم آلات خلقت للآلام. يبعث بدينهم ولا يحترم عائلاتهم ولا يوقر ما اعتادوا على توقيره فى

مجتمعاتهم ولا يعبأ باملاكهم ولا يتهيب أشخاصهم ولا يقدر لهم حياة وليس توحش الاستعمار فى هذه الايام بأقل من توحشه فى غابر الازمان » ثم أتى بالشواهد على قوله فسرد وقائع وحوادث لاعدد لها . والحال واحد فى كل جهة فى الهند الصينية ومد غشقر وشطوط أفريقيا ثم ختم موسيو « لانسان » الكلام بقوله « يجب وضع حد لهذه المعاملات الفظيعة ان كانت الحكومة تريد ان لاتسوء عقبى السياسة الاستعمارية بسببها » نحن نرى أيضا انه يجب اقامة حد لتلك المعاملات الشنيعة التى تقسم الناس الى قسمين من يستعملون التكافل فى منفعتهم ومن يترقبون الفرص ليستأثروا بمنافعه والفريق الاول ظالم والفريق الثانى مظلوم ولكنهما يجتمعان فى رغباتهما ان يعيشوا كلا على الكل أى على المجموع أى على الامة

واذا بحثنا عن طريقة للخلاص من هذه الحال فانا لا نجدها فى نشر مذهب التكافل لانا رأينا أقل الناس استحقاقا للعناية قد انتهزوه فرصة لاحتكار منافعه اضراراً بحقوق غيرهم فلم يستفد منه الا الخبثاء الذين اتخذوا التكافل آلة يبتزون بها أموال ذلك الغير ويستعملونه متكأ لهم حتى كل منهم واستجار وقرب من العدم

اذا ثبت هذا علمت ان ترقى الهيئة الاجتماعية لا يقوم بالاتكال على الغير والحيف عليه وذلك هو اكبر برهان يقدمه كل واحد لاخيه على انه واياه متكافلان . ويحصل هذا الترقى بمقدار ما عند كل واحد من الاعتماد على نفسه وكفائة حاجاته بنفسه ونشأته على استعمال قوته الذاتية وهمته الشخصية . ومعنى ما تقدم انه ينبغى الاهتمام بتربية القدرة الشخصية أكثر

من الاهتمام بتعظيم السلطة الاجتماعية

علمنا ان تربية الناس على الاعتماد على الهيئة يضعف من قوتهم الذاتية ومنه يؤخذ ان تربيتهم على الاعتماد على أنفسهم تزيد فى تلك القوة وهو برهان ساطع على ما للوسط من التأثير فان كان ملائما للعمل أصبح العامل الطيب ماهراً والعامل المتوسط متقدما والعامل البسيط متوسطا والعامل الخمل بسيطاً وهكذا تترقى الطبقات واحدة بعد الاخرى

وليلاحظ انى لا أقول هذا اعتباطا من غير أن يكون لى سند فيه غاية ما فى الامر انى ألخص للقراء حوادث كثيرة كلها ثابتة بالخبر والاستقراء ودليله ما كتبه الىّ صديقى وزميلى الفاضل موسيو « پول دوروسيه » فى الشهر الماضى من مدينة « سنسناتى » بامريكا حيث ذهب ليستطلع الاحوال فى تلك البلاد قال « رأيت فى أمريكا كنزا للاستقراء لا يفنى فهى بلد يأتيها المهاجرون من كل ناحية بلا انقطاع وقد اشتغل علماؤها بالبحث عن الاجناس التى فيها قابلية لاحتمال العيشة الامريكية والتي لا تقدر عليها وفى ذلك فائدة كلية لا تخفى وأغرب ما شاهدت هنا هو تقدم الارلنديين منذ عشرين عاما وكل شئ قابل للترقى والنمو يعظم ويكبر فى هذه البلاد لذلك لا ترى الارلندي اليوم يكنس الطرقات ولم يعد هو ذلك العامل الحقير الجاهل الذى كنا نعرفه من قبل بل ذلك شأن قد اختص به الآن « البولونى » والايتالى وغيرهما

ولا شبهة فى أن هذا الاستقراء مفيد جداً وانه يساعد كثيراً على توضيح مسألتنا الاجتماعية التى نبحث فيها وعلى القراء أن يقابلوا بين هذا

وبين ما نقلناه عن موسيو « لاپى » و « لانسان » ليتبينوا الفرق ويقفوا على حقيقة الموضوع ويهتدوا الى الصواب فيه

الاوروبى هو الذى يهاجر فى الحالتين الا ان الفرق عظيم بين النتيجتين والسر فى هذا ان بعضهم أقام ببلد اتكالى أى لم يتعود أهله الاعتماد على أنفسهم بل على الهيئة التي وجدوا فيها وكانت نتيجة تأثير هذا الوسط مضرة بالفريقين الوطني والاوروباوى الاول لما يصيبه من الظلم والاستبداد والثانى لما يأتيه منهما . وبعضهم أقام ببلد استقلالى أى تعود كل واحد من أهله المحافظة على استقلالهِ تجاه الهيئة بتمامها وشب على الارتقاء بجده وعمله مستعيناً بهمته وقوته حيث القدرة الشخصية بلغت غايتها وقل تأثير الهيئة الى الحد الادنى . فاذا وصل الاوروبى الى هذا الوسط الحى سرت فيهِ حركة الحياة وتنبهت قواه وتبدلت أحوالهُ فصار رجلا غير الذى هاجر وأصبح قادراً على تحصيل حاجاته بنفسه اذ لا سبيل للاعتماد على الغير فى تلك البلاد ولا الى ابتزاز المال من يدهم ولا الى الاتكال على تكافل وهمى يخدع النفوس كذبا وتلبيسا . تلك بلاد « المرء بنفسه » فكل مافيها يناديك أعن نفسك بنفسك . لذلك تحول الارلندى وارتقى وهى معجزة من السهل على من لهم أقل المام بالعلم الاجتماعى أن يدركوا السر فيها

مضت الاجيال الطوال على ذلك الرجل وهو فى وسط اتكالى حتى صار يهرب من كل عمل يكلفهُ بعض العناء أو يقتضى بعض الهمة الذاتية متعوداً على المعيشة من تكافل عشيرته حتى وصل بتأثير ذلك التكافل الى حالته التى نشاهدهُ عليها فى أوروبا من الانحطاط السياسى والضعف الاجتماعى

فاصبح رجلا ترفع عن الحرف الدنيئة التي كان مقصوراً عليها بحكم مذهب التكافل المميت ولم يعد كناسا فى الشوارع والطرقات أو صانعا كالآلة تتحرك بارادة غيرها وأمسي قادراً على العمل بنفسه وتحصيل الرزق من غير الاستعانة فيه الا بهمته ودخل فى طريق سعادته

أما المهاجرون من التليانيين والبولونيين فهم أقرب منه عهدا بمعاشرة الامة الانكليزية السكسونية ولم يتم خلاصهم حتى الآن مما تربوا عليه فى بلادهم ولم ينته تحولهم من حال الى حال الا ان الشوط الذى ساره الارلندى فى تلك البلاد يدلنا على الغاية التي هم صائرون أيضاً اليها بالتدريج فلا بد لهم مثله أن ينالوا فى ذلك الوسط وبتأثيره ما فيه سعادتهم

ولا يتوهمن أحد ان هذا الانقلاب يحصل اجماعا أن يناله الكل على السواء بل هو يحصل لكل فرد على حدته كما أشرنا اليه فا كثرهم عملا واكبرهم همة أسبقهم الى الترقى ثم تليهم الطبقة التي دونهم فالتي من بعدها وهكذا لكل امرئ ما كسب

ثبت من هذا ان الامم الاستقلالية أصلح لنمو التكافل الاجتماعي من الامم الاتكالية . وكاني بالذين يحبون التمادى فى الجدال من القراء يتساءلون عن مصير الافراد الذين لا قبل لهم على الارتقاء بانفسهم فى مثل ذلك الوسط الاستقلالى رغما عن تعدد وسائل الحث والتحريض فاجيبهم بان من لوازم هذا الوسط تقليل عدد أولئك الضعفاء جدا بخلاف مذهب التكافل فانه يساعد على كثرتهم دائما وبرهانه الارلنديون فى الولايات المتحدة . ثم ان مذهب التكافل فضلاً عن كونه يعود الناس على عدم الاهتمام

بتحصيل حاجاتهم بانفسهم ويربيهم على طلب المعونة دائما من أمتهم لا يساعد الضعفاء على النهوض من خمولهم كما انه يضعف من همم أولى العزم بما يقلل من نتائج عملهم كما يقول علماء الاقتصاد ويلحق بهم الفقر فتقل قدرتهم على مساعدة الغير وان رغبوا فيها ما استطاعوا . ونقص الثروة فى يد كل فرد يؤدى الى نقصها فى يد الامة تماما وحينئذ يعدم البائس الضعيف سبيل المعونة من الافراد ومن الحكومة سواء . ولن تقوم الامة بمساعدة الضعفاء ومواساة الفقراء والبائسين الا اذا توفر المال لدى الكثير من افرادها حتى يسهل عليهم تخصيص ما زاد على حاجاتهم الى الخيرات . والذى يساعد على انماء ثروة الافراد هو الذى يساعد على انماء روح المعونة وفعل الخيرات الخصوصية والعمومية . واذا قابلت بين ما ينفقه الانكليز والامريكان كل عام فى هذا السبيل وبين ما ننفقه نحن مثلا فى فرنسا مما يقل سنة عن سنة وجدت الفرق عظيما وارتاح ضميرك من هذه الجهة

تلخص من هذا ان رجلنا الاجتماعى يمتاز على رجل مذهب التكافل بقدرته على مساعدة الضعفاء وبكونه يسهل لهم أيضا سبيل التقدم والارتقاء وهو الذى يسير بالانسانية الى طريق حل مشكلاتها وعلى الخصوص الى حل ما يسمى « مسئلة الفعلة والصناع » فهو الذى يخطو نحو فض الاشكال بمحو حالة الفعلة الحاضرة من الوجود وذلك هو مستقبل الدنيا

ربما عد هذا من قبيل السفسطة لتعودنا الحكم على المستقبل بالماضي ولكونه يصعب على الفكر طبعا أن ينسى الاوضاع التى اعتادها وان اخذت فى الانزواء والزوال وأن يلتفت الى الاوضاع الجديدة التي تظهر فى

الوجود هنا وهناك غير أن علائم هذا الانقلاب بادية جلية فى الامم المتقدمة فى طريق المستقبل وهى واضحة تماماً فى انكلترة والولايات المتحدة فانك ترى الصناع فى الحرف الدنيئة كلهم من الاجانب أو من القادمين حديثاً ولم يمض عليهم زمن كاف ليتشبهوا بأهل تلك البلاد والصنائع الرفيعة تدار بالآلات شيئا فشيئا والرجل ينتقل من كونه صانعا أو عاملا الى كونه موظفا أو ملاحظا . كذلك أصبح الصانع الفلاح الذي نعرفه في بلادنا من زمن مديد على وشك الزوال فان آلات الزراعة تكثر كل يوم حتى كأن الفلاح فى كثير من أقاليم امريكا عالم يبحث في طبقات الارض عن معادنها فيحرث ويمهد ويحصد ويدرس وهو مستريح على جلسة منتظمة يقود منها دابته كأنهُ فى عمله أحد الظرفاء فى عربته وربما رأيته بلباس الظرفاء أحيانا . ولم يبق عليه الا أن يتعلم اطوارهم ويتهذب بافكارهم وسيتم له ذلك . وقد اتسع ذهنه فى جميع ما يرقى الزراعة لذلك لايحجم عن استعمال كل جديد فيها

الولايات المتحدة الآن فى طليعة الامم من حيث التقدم الاجتماعي كما سبقتهم فى المصنوعات الميكانيكية وهما نوعان من انواع التقدم متلازمان لا كما يظن الناس عادة فالثانى نتيجة الاول والاول يتأثر كثيراً بالثانى وليس فى قدرة أحد أن يخبر بما تصل اليه الامم من الترقى باجتماع هذين الامرين

وجب علينا اذن ان نقلع عن التمسك باوضاع الاجتماع القديمة كما أخذنا فى ترك آلات العمل التى تديرها يد الانسان فذلك هو الماضى الذى يبعد عنا كل يوم ولا مرد له أبداً

وبينما العالم الانسانى يسير مظفراً نحو حال جديد نرى رجلا كموسيو بورجوا نجله ان يكون فى عداد كل الناس مع كونه يطمع فى رئاسة حزب الترقى فى البلاد الفرنساوية يعرض علينا أن نرجع الى مذهب تقادم العهد عليه حتى بلى ظاناً انه اكتشاف جديد وهو أوهى المذاهب وأشدها تعسفاً واستبداداً . حقاً ليس لنا من نصيب

الفصل الخامس

﴿ ما هى أحسن حالات الاجتماع لتحصيل السعادة ﴾

الف السير (جون لوبوك) كتاباً عنوانه (سعادة الحياة) وقد انتشر انتشاراً عظيماً فى انكلتره حتى ان الذى عنى بترجمته الى اللغة الفرنساوية لم يفرغ من الجزء الاول الا بعد أن اعيد طبع الكتاب عشرين مرة ومن الجزء الثانى الا بعد ان ظهرت طبعته السابعة والسبعين

ولا يحسبن القراء أن المؤلف امسك العنقاء وجعل يعرضها على أهل زمانه فى نظير بعض شلنات يدفعونها ثمن كتابه اذ لو كان الامر كذلك لقلنا أن الانكليز ليسوا بطماعين بل الكتاب بجزئيه عبارة عن جمع حكم ونقل افكار من كتب جميع المؤلفين المشهورين وغرض المؤلف من هذا الجمع وذاك النقل أن يبرهن للناس انهم سعداء لكونهم أحياء

وللدلالة على صحة رأيه جعل يسرد موجبات السعادة التى يشاهدها الانسان واحداً فواحداً كالارتياح بعد أداء الواجب واللذة من قراءة أشهر

ما ألف وأحسن ما كتب ونعمة المحبة ولذة السياحة ولذة البيت والملاذ العلمية والعشق والفنون والشعر والموسيقى وبدائع الطبيعة وهكذا . وهو لكل شيء باش الوجه هاش النفس يملاؤه الامل على الدوام فلا يرى الا سرورا بحيث يضعف خصمه مع مناضلته . ومن قوله « لقد سمعت الناس كثيراً يشكون مما فى هذه الدنيا من كفران النعم ومحبة الذات أما أنا فلم أشعر مرة واحدة بأثر هاتين المصيبتين ولعل ذلك من حسن حظى » ذلك أمر يوجب الاستغراب أو يدعو الى القول بان صاحبه رجل من البسطاء واليك أغرب منه قال « نحن فى الحقيقة أغنياء أكثر مما نظن وكثيرا ما نسمع عن شدة رغبات الناس فى الكسب والاستحواذ وبعضهم يحسد كبار الموسرين ويظن السعادة فى امتلاك الاراضى الواسعة غير ان الغالب ان الرجل يملك الارض والارض تملكه كما قال « أيمرسون » واذا ارتقينا قليلا بالفكر لوجدنا ان لنا الالوف المؤلفة من الفراسخ والاميال فالشوارع والطرقات والسكك العمومية والجسور وشواطئ البحر على اختلاف صنوفها وتنوع مناظرها كلها ملك لنا فنحن من كبار الاغنياء ولا علم لنا وليست الارض هى التى تنقصنا بل الذى نحتاج اليه هو القدرة على التمتع بما ملكنا وتلك مزية عظمى تتبعها مزية أخرى وهي انها لا تكلفنا عملا ولا تطلب منا عناء فصاحب الاملاك مشغول البال على الدوام ولكن المناظر الطبيعية مملوكة لكل من له عينان تبصران . وبهذا المعنى صح لموسيو « كنجلى » أن يقول بان بستانه زمن الشتاء كان الخضرة التى تكتنف بعض المكان الذي يسكنه لا لأنه كان يملكها حقيقة بل اعتباراً بالمعنى الذى يجعل

الالوف من البشر سالكين للشيء بعينه »

والكتاب كله محشو بهذا الامل الشديد وأدلة المؤلف على مذهبه كلها من هذا القبيل ومن المعلوم ان الانكليز السكسونيين لا يقنعون بمثل تلك الادلة الضعيفة كما ان تلك الادلة ليست هي السبب في انتشار الكتاب بينهم ذلك الانتشار

ومما يجب البحث عنه معرفة السبب الذى لاجله لم ينتشر هذا الكتاب عندنا الا قليلا ولاجله يضحك الفرنساويون من قراءته ويتبسمون لسرد أدلته

ويلزمنا فى ذلك أن نمعن النظر ونطيل التأمل اكثر من موسيو « لوبوك » فى موضوع تلك السعادة التى شغلت الانسان طول الزمان

— تعريف السعادة —

نريد بهذه الكلمة « السعادة » حالة ارتياح تقوم بنفس أولئك الذين يتمكنون من التغلب على متاعب الحياة المادية والادبية تغلبا حقيقيا .

والغرض من وصف المتاعب بالمادية والادبية أن يتناول التعريف حاجتى المرء العظيمتين فى الدنيا وهما راحة الجسم وراحة النفس فوجوده كله راجع اليهما

ويلزمنا قبل كل شيء أن نقف على حقيقة الاسباب التي ذهب الكثيرون الى أنها هى وحدها مصدر سعادة الانسان كالطبع والصحة والمال والدين

فاما الطبع الحسن فهو الذى يميل بصاحبه الى أخذ الاشياء باحسن جهاتها أى يحمله على اعتبار جهة الحسن في الاشياء مطلقا . ولكل شيء

جهة حسن وأخرى نقيضها غير أن الخيال محدود مهما كان شديداً وعلى كل حال فهو لا يغير من حقائق الامور شيئاً ومتى اتضحت الحقيقة ووجب التسليم بها كان اليأس أشد وقعاً وعليه فان توهم عدم وجود الضرر لا ينافيه

وأما الصحة فانها تكفينا شر كثير من الآلام الجسمية وتجعلنا بذلك قادرين على مزاولة العمل اللازم فى تحصيل المأكل والملبس والمسكن غير أنها لا تعطى الا القدرة وقد تتعطل القدرة بسبب من الاسباب فيجوز أن يكون المرء بالغا منتهى الصحة وهو مع ذلك فى أشد حالات الضنك والاحتياج وما ذلك من موجبات السعادة فى شيء

وأما المال فكثيرون يعتبرونه أهم وسيلة فى السعادة والواقع أنه يضمن لصاحبه عيشه اليومي ويسهل له اجتياز الكثير من المتاعب المادية وليس هذا بيسير ولكن المال لا يفيد شيئاً فى اجتياز المتاعب الادبية فمن شأنه الميل بالهمة الى الفتور واضعاف الارادة ومن أهم أسباب السعادة الامل أي رجاء الحصول على المرغوب فاذا ملكت ما رجوت ضاع جزء عظيم من ميلك السابق اليه والمال لا يجعل للامل محلا لانه يسهل الحصول فوراً على المراد وذلك يؤدى الى ضعف لذة الانتظار وهذا هو السبب فى أن الاغنياء يطلبون دائما ملاذ جديدة وملاهى غير التى اعتادوها لانهم سريعو الشبع من كل أمر فى أوله . فالمال يضيع الاهتمام بكل شيء ومتى ضاع الاهتمام فقد الرجل ذوق سعادة الحياة ذوقا صحيحا فلا يحفل بشيء ولا شيء يحمله على الاهتمام . وخطأنا فى المال آت من اعتبارنا اياه بالنظر الى الفقر أو التوسط فى المعيشة والواجب أن ننظر اليه من حيث هو ونقدره حق قدره

في الواقع ونفس الامر تقديراً صحيحا . واذا فعلنا ذلك وجدناه أبتر من جهات كثيرة حتى ان صاحبه لا يتمكن بواسطته في بعض الاحيان من التغلب على الصعوبات المادية التي تعرض له وان خيل لبعضهم ان ذلك من المستغربات . ألا ترى أن الذين يميلون في معيشتهم الى اللذات والزخارف يصرفون في غالب الاحوال أكثر مما يكسبون وينتهي بهم الامر الى تعود الصرف من غير حساب والى فقدان التعود على العمل فيختل التعادل عندهم وفي ذلك الجب العميق انهالت ثروة كبار الاغنياء في كل زمان . كم من عائلة كانت ذات بسطة كبيرة من اليسار فأصبح أبناؤها بائسين . فان دام الحال لأبنائهم افتقر الدور الثاني أو الثالث ويمسون غير قادرين على اصلاح حالهم المادي فضلا عن الادبي لان من فقد عادة العمل والكد يصعب عليه استرجاعها . كذا حال الشرفاء منا وكذا شأن الموسرين من الاواسط وهي سنة أبدية . والخلاصة ان فراغ اليد أدعى الى تحسين حال الانسان ماديا وأدبياً من الثروة لانه أدعى الى العمل والاجتهاد

بقي علينا الدين وقد اعتبره بعضهم كافيا في تحصيل السعادة ولا شبهة في أن الدين يساعد كثيراً على اجتياز متاعب الحياة النفسية غير أنه ان لم يصادف في نفس صاحبه قدرة على العمل واستعداداً للكد كان تأثيره قاصراً على التوكل والاستسلام الى حكم القضاء والاستسلام لامر اذعان من المستسلم بأنه متعب شاق . وهذا هو الاعتقاد الذي يحدثه الدين في النفوس من جهة الحياة في مثل تلك الاحوال . فيرى صاحبنا أنها دار عناء وبكاء ويميل الى الاعتقاد بأن السعادة ليست من هذه الحياة الدنيا . والواقع

ان الدين لا يقصد به أولا وبالذات سعادة الامم فى الدنيا بل السعادة الاخروية لانه لا يلتفت الى الامور الزائلة ولكن الى الخلود وهو أفضل ما يبتغى على التحقيق . لكننا لا نبحث فى هذا وانما كلامنا فيما يحصل لنا سعادة هذه الدار الفانية لانا لا نتكلم فى التوحيد بل نتكلم فى العلم الاجتماعى

ولا يغيبن عن القراء ان بعض المتصفين بالتقوى يخطئون خطأ فاحشاً فى العمل بمقتضى قاعدة التسليم فيتذرعون بها الى الكسل والخمول ويقولون فى انفسهم ان الحياة لا تساوى تلك المتاعب كلها ثم يرمون تكلانهم كله على الله « الذى لا ينسى من آمن به ولجأ اليه» وينسون قوله تعالى «اعن نفسك يعنك ربك » والادعى للراحة عندهم ان يرموا أحمالهم كلها عليه . ومن كان هذا فكره أصبح ضعيفاً لقاء اتعاب الحياة مادياً وأدبياً . وعليه فالدين اذا فسد العمل به يصير آلة ضعف وانحطاط مع انه قوام الحياة وفيه أكبر معين على تحصيل السعادة ولكن الناس يعزون أنفسهم متى فسدوا بقولهم (ان الله يبتلى عبيده المخلصين) أو بقولهم (أبناء الجحيم اكبر حذقاً وأوفر حظا فى الدنيا من أبناء النعيم) وما اسهلها طريقة فى ارجاع الانسان خطاياه وآثامه الى الله وحده

اذا ثبت هذا فلنا ان نقول بان الاسباب السالف ذكرها لا تكفى لتحصيل السعادة وانما هى من المساعدات على تحصيلها والواقع ان تأثيرها يتبع الوسط الذى توجد فيه وكيفية استعمالها قوة وضعفا ومن هنا وجب علينا ان نعرف كيف يكون الوسط ملائما أو منافيا لتحصيل السعادة أى لايجاد ذلك الارتياح الذى يشعر به من تمكن من التغلب على متاعب

الحياة المادية والادبية تغلبا حقيقيا

واذا نظرنا الى الامم وجدناها لاتسير فى طريق واحد نحو السعادة بل تفترق الى ثلاث

الاولى هي التي سهل فيها تحصيل السعادة لسهولة وسائل المعيشة

الثانية هى التي يصعب فيها الحصول على السعادة لصعوبة تلك الوسائل

الثالثة هي التي تتحصل فيها السعادة رغما عن تلك الصعوبة

ولنشرح تلك الاحوال الثلاثة التي يخال انها غامضة لايدرك المراد منها كلنا يعرف المثل المشهور — ليس للامة السعيدة تاريخ معروف — والمثل صحيح علما

أما الامم التي لاتاريخ لها فهي التي تعيش من الرزق الطبيعي كالعشائر الرحالة التي تنتقل من مكان الى مكان بين المراتع والمروج . هنالك تكثر الاعشاب فلا يجد الرجل منهم للعمل داعيا . وأهم أولئك الاقوام عشائر التتار (المنغوليين).واني لا أذكر قبائل الصحارى كالعرب وشعوب أواسط أفريقيا لأنهم مضطرون الى شيء من العمل ليحصلوا اتمام عيشهم .

فعند العشائر الرحالة الحقيقية تجد صعوبة الحياة المادية والادبية ممهدة مذللة من ذاتها

أما المتاعب المادية التي ترجع الى المأكل والملبس والمسكن فهى معدومة اذ الماشية كافلة لتلك الحاجات وهي تتغذى بما تنبته الارض من الاعشاب بدون عمل للانسان . وليس على وجه المسكونة رجل خلص من تلك الاثقال وأمن الموت جوعا مثل أولئك القوم فلا يهتمون كل يوم بتحصيل

قوتهم كما هو حالنا لان العشب قدكفاهم مؤنة ذاك الاهتمام والعشب ينبت وحده ولا يحتاج النازل فيه الى حصده أو تجفيفه أو ادخاره . وبذلك نجا أولئك القوم من مخالب الفقر والفاقة ولا يعرفون ما نسميه مسئلة الفعلة لانهم ليس فيهم رجل أجير

وهذا الرجل الذى أمن بطبيعة الحال من جهة حاجاته المادية آمن أيضا من حيث الحياة الادبية . ولا ينبغى ان نقيسه بنا فان لنا حاجات ورغبات ومقاصد كيفتها ظروف اجتماعنا وأكدتها حالة معيشتنا مما لا نسبة بينه وبين ماهو فيه . وتلك الحاجات التى استحدثناها أو التى ولدها فينا وسطنا الاجتماعي تجعلنا من التعساء ما عجزنا عن القيام بها . فاذا كفينا مؤنة حاجة تولدت فينا حاجات جديدة ورغائب غير الاولى أشد تحكما وأصعب ارضاء . لذلك قالوا (السعادة فى الاقلال من الرغبات) كما قالوا (ينبغي للمرء ان يكتفي بالعيش الوسط الهنى) وهو قول حسن غير ان حالتنا الاجتماعية تدفعنا الى ضد مابه ينصحون . على انهم لم يرشدونا الى تلك الحكمة الا لان العمل بها نادر فى الوجود . وأقطع دليل على ان ذلك الرحالة راض عن حالته وهذا الرضاء هو أقصى مراتب السعادة فى هذه الدار انك لن تفلح فى حمله على استبدالها اذ من المقرر ان أشد الناس استعصاء على الانتقال من حال الى غيره هو البدوى الذى لا يرضى ان يستعيض في غدوه ورواحه بالاستقرار فى مكان واحد ولا أن يتخلى عما ألف فى البداوة ليعتنق ما نحن فيه من الاعمال التى نجاهد فيها لتحصيل قوتنا . والامم المتمدنة المتاخمة لتلك العشائر تعلم ما تقول فانها لم تصل الى

ادخال بعض التعديل فى أحوالهم الابشق الانفس واستعمال طرق الاعنات مما يكاد يبلغ حد القهر والاجبار . ولم ينجح القياصرة فى هذا السبيل مع (السلافيين) الا بعد مرور الآجيال والقرون ومعلوم ان يد القياصرة لم تكن رحيمة أبداً ومع هذا فانهم لم ينجحوا تماما ولا يزال السلافى على جانب عظيم من حالته الاولى يعيش فى مبادىء البداوة أكثر مما يعيش فى عوائد الحضارة والتمدن ولا يزال يقدر السعادة بكثرة الماشية لا بسعة الارض التي يفلحها

وقد كان القدماء يعرفون تلك السعادة فى العشائر البدوية فكان (هومير) ومن بعده (ايفور) يسميانهم (أعدل الناس) وقال (كوريلوس) الرحالة (هم أولئك القوم الافاضل العدول) وقال (استرابون) (أنهم يعيشون عيشة تقشف ولا هم لهم بجمع المال) ولا يزال هذا رأى السواح فى هذا العصر قال موسيو (هوك) يحدث عن (المنغوليين) وقد عاش بينهم حولين كاملين (أولئك المنغوليون لهم نفوس دينية كما ينبغي فتراهم دائما مشتغلين بالحياة الباقية وكل مافى هذه الدار صغير فى أعينهم فهم يعيشون فى هذه الدنيا كأنهم ليسوا منها)

ذلك هو مثال الرجل الذى يقلل من رغباته ويرى السعادة فى عيش وسط ليس بالمغبوط عليه . ومرجع هذه السعادة هو الوسط المادى الذى يعيش فيه لكفايته بالحاجات وتوفيره وسائل العيش أى توفير . ثم ان سهولة المعيشة تزداد لديهم بضرورة اجتماعهم فقد تبلغ العائلة منهم مئآت من النفوس كما كان عليه اسباط التوراة . فليس الرجل بمعزل عن الناس

ابدا بل الواحد منهم يستعين بأخيه فيصبحا فى مأمن من طوارق الحدثان. وليس الضعفاء منهم والمقعدون وفاقدوا الاهلية والطائشون مهملين وشأنهم ولا معرضين لتلك الحالة التعيسة التى تفاقم خطبها بين القوم المتمدنين

والخلاصة أنك ترى الرجل فى تلك المجتمعات سعيدا بوفرة الغذاء الطبيعى ومعونة الوسط الذى ولد فيه فهو بهما فى مأمن من غوائل الحياة بعيد عن موجبات الشقاء سعيد لا يبتغي عن حالته بديلا

ويوجد بجانب تلك العشائر أقوام آخرون غير قليلين يعيشون من الاعشاب مستعينين بجمعيتهم المتكاثفة لكن على حال أقل كمالا من الاولين فهم أيضا فى مأمن على التقريب من صروف الحياة. وأولئك الاقوام طبقات بعضها أحط من بعض فى درجة السعادة وهى تبتدى من تلك الطبقة التى وصفناها لك حتى تصل الى حالة الامم الثانية التى سنتكلم عليها

تلك الامم الثانية هى التى فقدت وسائل الحياة المادية لفقد الاعشاب الطبيعية وتمزق العائلة فالرجل فيها واقف بنفسه أمام متاعب عيشه ولكنه لا يقدم على اقتحامها بل انه يفرغ جهده فى الهرب منها. وقد يقال ان السبب فى هربه هذا ما فطر عليه المرء من حب الابتعاد عن الشقاء وهو سبب صحيح من بعض الوجوه الا أنه يلزمنا البحث عن السبب الذى جعل التربية وقيام الضرورة لا تزيلان ذلك الداعى الى البطالة والكسل

والعلم الاجتماعى يدلنا على ان هذه الامم التى تسكن القسم الاكبر من وجه البسيط وناحية من غرب اوروبا قد نشأت اتكالية ايام كان آباؤهم الاقدمون يعيشون فى تلك البقاع ذاتها مما تنبت الارض بغير عناء

فامم اليوم سلالة امم الامس والفرق بينهما ان الارض لم تعد تنبت شيئا من نفسها كما مضى

ورجل اليوم من تلك الامم تعود الاعتماد على ما يسوق الله اليه من الرزق الطبيعي وما يساعده به الاهل والمواطنون ثم امسي وقدفقدالمعونتين واضطر الى اقتحام الاتعاب ليحصل قوته بنفسه . فالحاجة تناديه (اعمل وكن ذا عزيمة ومضاء ولا تركن الى غيرك اذ ليس من سبيل غير هذا فى تحصيل رزقك وسعادتك) وفطرته الاصلية وما شب عليه من العادات يجيب هذا النداء (ان العمل والجد والعزيمة متاعب أحلى منها اجتنابها وفى البعد عنها سعادة الانسان) والغالب هو صوت الفطرة لانه يجد أذنا صاغية هى العادة المألوفة لاسيما وانها مقبولة يرتاح الى الاسترسال معها

ومن المعلوم أنه لاملجأ للمرء من تحمل هاتيك المتاعب الا استعمال ما ورثه عن آبائه من الاعتماد على الغير والعيشة مما يكسبون أعنى بذلك التمادي فى طلب المعونة من الناس شأن الزنبور مع النحلة

نعم زنبور ذلك الفتى الذي بلغ العشرين من عمره وكان سليم الجسم صحيح القوى ثم جعل كل اعتماده على ما يتناوله من عائلته فلا يعيش الا من مكارمها

زنبور ذلك الفتى التى بلغ الخامسة والعشرين أوالثلاثين ثم هو لا ينظر الى الزواج الا من حيث المهر الذى يكون لخطيبته ليكون لهُ منه سبيل سهل للمعيشة على نفقتها

زنبور ذلك الفتى الذى يحتقر المهن الحرة والصنائع المستقلة ويرى الشرف

كل الشرف فى وظائف الحكومة حيث لاجهد ولا عناء ولا همة ولا اقدام فيعيش كلاً على بيت المال

زنبور ذلك الرجل متوسط الحال أو الاجير الذى لا يرى فرجا من مصاعب الحياة في الزمن الحاضر غير الالتجاء الى الهيئة كالبلدية أو الحكومة ليطلب المعونة منها ويعيش أيضا من بيت المال

ثم زنبور ذلك الذى اتخذ السياسة مهنة واستخدم سذاجة قومه فتحبب اليهم بوعدهم ما يشتهون حتى يعيش على نفقة أولئك القوم الذين يخدعهم ويلحق بهم الفقر والدمار

اذا بلغ الحال فى امة هذه الدرجة انتفى العجب من ظهور الاشترا كيين فيها وسرعة انتشارهم بين طبقاتها اذ فى مذهبهم وعد للناس بهيئة اجتماعية جديدة يكون الكل فيها من الزنابير . لكن لسوء حظ المبشرين بهذا النعيم لا وجود للزنابير الا اذا وجد النحل ولا سبيل للاكثار من الاولى الا اذا ضوعف عمل الثانية وهذه ضرورة يؤسف لوجودها ولولاها لحلا بالطبع لكل انسان أن يعيش من مال الجميع

ورب معترض يقول اجل ان حالة الزنابير مما ترتاح له النفوس والهم كل الهم فى صيرورة الانسان زنبورا فمن نال ذلك كان سعيدا وعليه فلتحيي الزنابير . غير أن الامة التى يكون هذا حالها لا تساعد على تحصيل السعادة كثيراً لان من المعضلات أن يحصل الانسان سعادته باقل عمل ممكن فى امة لاقوام لها الا باكثر عمل ممكن . وطالب هذا شبيه بالرجل الذى يطلب حاجته من وراء نهر جار فهو مضطر الي مقاومة الماء على الدوام

فى كل يوم وساعة والنهر لا يزال يجرى ضد مقصده ومن كان هذا شأنه تعذر ان يكون خلي البال سعيدا

هذه حال لا يأمن الضيم معها أولئك الذين صاروا من صف الموظفين انفسهم مع انهم قد خلصوا بذلك من متاعب كثيرة فى الحياة لان غالبهم يعيش فى ضيق وتقتير اضطرارا الى المعيشة هم وعائلاتهم والى تربية ابنائهم برزق قليل . ذلك هو الشقاء تحت الكسوة السوداء وهو أقسى شقاء فى الوجود . ذلك بؤس لا يتمكن المرء معه من المحافظة على درجته بين الناس ولا هو يخلص من التألم به فهو جرح يتجدد فى كل صباح . وزد على ذلك أنه يعيش مسلوب الارادة مؤتمراً بغيره والآمال محصورة وللرجاء حد قريب

ثم الحال اشد فى تلك الامم بالنظر لغير الموظفين الذين يضطرون الى العمل بانفسهم وهم عليه غير قادرين لانهم لم يتهيأوا اليه من قبل بالتربية والتعليم والكسب غير محقق فيوم يسر ويوم فى اعسار . ولهم فوق ذلك أعين يبصرون بها وظائف الحكومة واطماع تمتد نحوها وهم على الدوام يرجعون من آمالهم خائبين

وبالجملة فالحياة شاقة على الجميع والكل متأثر بنشأته الاتكالية وهى السبب فى اعتقاد كل واحد ان مال الاب مال لجميع عائلته لذلك ترى الرجل يتجرد عن املاكه فى حياته ويهبها مهرا لاولاده متى حان وقت الزواج ووجب على كل والد أن يجمع من المال ما يكفى لجميع أولاده مع أن من الصعب فى هذه الايام أن يحصل الانسان مالا يكفيه وحده . فلما رأى قومنا أن القيام بهذا الواجب متعذر لم يجدوا لهم بدا فى الهرب منه الا

الاقلال من الابناء وأصبحنا نفضل ان نمهر ابناءنا على الاكثار من نسلنا . ومع هذا لا تزال الحياة تعبة اذ نحن نعيش عيشة ضيق وحرمان ونقتصد اقتصاد الفقرآء والمساكين وذلك مما يكدر صفو الحياة ويعطل السعادة فى الامة

ولهذا الضيق فى تلك الامم آثار ينبغي النظر فيها واكتفى بذكر اربعة يرجع كل واحد منها الى دور من أدوار الامة التي ظهر فيها وقد عينت باختيارها فى بلاد مختلفة

فالاول هو يأس النفوس الذي امتازت به الامم الهندية وهو مذهب الفناء المعروف عندهم باسم (نيرفانا) وقد انتشر هذا الروح بسرعة بين سكان الشرق الاقصى مع ان زراعتهم لاتزال قريبة من الحالة الطبيعية الا انهم حرموا من التسهيلات اللازمة فيها ومعنى (نيرفانا) هو النجاة أو السلامة وبعبارة أخرى السعادة التي وعد بها الهنديين صاحب المذهب البودى المشهور . ومدار هذه السعادة على ان الناس لا يرجعون بعد موتهم الى حياة كالتي فارقوها بل يدخلون فى حياة أخرى غير جسمانية ولا محسوسة ومن الموصلات اليها السبات المستمر والتسليم المطلق وهجر العمل وانكار فضله حتى يكاد المرء ينسى انه موجود . وهو عبارة عن انكار السعادة فى الحياة الدنيا فترى الرجل منهم قد استولى عليه اليأس من تحصيل سعادته الدنيوية فلا يجد له ملجأ فى معيشته غير الانكماش والاستماتة لا يسعى لتحصيل رزقه ولا يغالب مايعرض له من الصعوبات فى حياته بل يسلم نفسه لكل جائحة على الدوام والاستمرار

والثاني مذهب العدميين المعروفين فى الامم السلافيـة الشمالية باسم (نهليست) وهو ضرب من ضروب اليأس أيضاً . وهم أمم خرجوا من حالة المعيشة البسيطة الى حالة أوروبا الغربية ورأوا انهم ملجأون الى الكدو العمل فارادوا الهرب من تلك الواجبات الجديدة ولم يهتدوا اليه سبيلا . لذلك تولد فيهم مذهب العدم أى انكار كل مافى الوجود ووجوب العمل بما يقتضى التخريب والابادة . وأولئك قوم لاسعادة لهم في هذه الدار أيضاً

والثالث مذهب الاشتراكيين وهو اليأس الذى استولى على أمم الغرب الذين لايزالون على الحالة الاتكالية قليلا أو كثيراً . والسبب فى ظهور هذا الروح كما بيناه النشأة الاصلية التى فطرت عليها تلك الامم . وخلاصة المذهب حمل كل فرد على طلب السعادة من أمتهِ وفيهِ انكار مزايا العمل والاجتهاد والهمة والاقدام . ومن أراد الوقوف على حقيقة رأيهم فليقرأ رسالة موسيو (لافارج) ضد العمل التى عنوانها (حق الانسان فى الكسل) فنها (لقد استولى الجنون على طبقات الفعلة فى الامم التى ساد فيها أصحاب الاموال ونشأ عن هذا الجنون بؤس حال الناس وضنك الهيئة الاجتماعية اللذين أصيبت بهما الانسانية منذ قرنين كاملين فكدرا صفو العيش عليها . والعمل هو السبب الفعال فى فساد أفكار الامم التى ساد المال فيها وهو السبب فى تشويه الانسان وتركيب الانسان) ثم أراد المؤلف ان يستدل على افضلية الكسل على العمل فذكر المثل الاندلسى (الراحة هى الصحة) [1]

---

(١) ولو كان يعرف العربية لتمثل بقول بعضهم

ان البطالة والكسل أحلى مذاقاً من عسل

وعلى كل فان ظهور ذلك المذهب يدل دلالة قاطعة على ان أهله لا يجدون سعادتهم فى هذه الدار كما خلقت

والرابع مذهب التطير وهو الفكر الذى استولى على طبقات المتنورين فى الامم الغربية وأريد به تلك المذاهب الفلسفية أو التى تنتسب الى الفلسفة التي سادت بين الامم الالمانية والسلتية وبنوا عليها نظرهم فى هذه الحياة الدنيا . نعم لا أنكر ان اليونانيين والتليان يتوسمون الخير فى الحياة اكثر من غيرهم ولكن السبب فى هذا عند الامتين المذكورتين سكناهم بلادا تكثر فيها النباتات والاعشاب فيسهل عليهم زرعها زرعا بسيطا وذلك مما يؤيد القاعدة التى ذكرناها وقد يعيش العدد الكثير منهم من جنى الثمار ولا يعملون الا قليلا . والشحاذون فى مدينة نابل هم أعظم مثال لتلك الامم لذلك تتصل الامم التي تسكن جوانب البحر الابيض المتوسط بالامم التى ترى سعادتها العظمي فى سهولة معيشتها

ويتبين مما تقدم ان مسئلة السعادة مفصلة فى الحالة الثالثة غير انها هى الحالة التي ينجح السعى فيها وراءها فقد رأينا الانسان يبحث عن سعادته في راحته أو فى انهُ لا يشتغل الا القليل ما استطاع وهو فى حالة الراحة يجد السعادة الا انها عفنة ضئيلة وهو فى الثانية لا يجدها أبداً

لكنه فى الحالة الثالثة يطلبها بجده الذاتى وعمله الخاص فلا يهرب من صعب ولا يجزع لعمل شاق بل يقدم على المتاعب ثابت الجأش ويقدرها كما ينبغى ثم يجتازها بعزم واقدام

ويخال فى أول الامر ان طلب السعادة من الكد والعناء أمر يشبه

التهكم المؤلم أو لعب النصيب وهو صحيح اذا لم يلاحظ الانسان فى الحكم على هذا الا ذاته وما يشعر به لانه بالطبع ميال الى الراحة اكثر من ميله الى التعب أعنى انهُ يفضل السهل على العسير ولو لم يكن لهُ باعث يدعوهُ الى الحركة لصبا الى عيشة الزهاد والمتعبدين واكتفى بحشائش الارض طعاما

ولكن لا نبحث عن شعور القارئ أو عما نشعر به نحن بل نتتبع الوقائع ونستقرى الحوادث لنقف عليها كما ينبغى ومهما كانت غرابة الامر فان ادراكه من الميسور عقلا والمرء لم يطالب السعادة بالهرب من الكد والنصب الا لكونه يستعظم الجهد الذى يجب عليه أن يتحملهُ فى التغلب على الصعوبات الممكنة وعادة الانسان انهُ لا يقبل العمل المطلوب منهُ اذا علم من نفسه عدم القدرة على ادائه غير ان العمل الذى لا يتأتى لزيد من الناس فعلهُ لصعوبته عنده يكون سهلا عند كثيرين غيره بل ربما كان من الامور المحببة اليهم واذا ثبت هذا ثبت بالطبع ان أولئك القوم الاشداء الاقوياء لا ينظرون الى الحياة كما ننظر نحن اليها وانه لا تأثير فيهم لتلك المذاهب من يأس وعدم وفوضى وتطيرهم يرون الحياة كلها بعين غير أعيننا فتتجلى لهما فى بهاء وجمال لذلك كان مذهبهم مذهب رجاء وآمال وحسن ظن بالاستقبال

بقى علينا أن نعرف ان كان أولئك القوم موجودين أم لا ولا يشك أحد ممن قرأ الاسطر السابقة فى انهم موجودون ولكنى أريد أن أبرهن على أمر جديد وهو ان الجمعيات الاستقلالية كما توجب رفعة أممها فى العالم وتقدمها على غيرها فانها هى التي تميل بالانسان الى تحصيل أو فى حظ ممكن

من السعادة فى هذه الدار اذا اتفقت فى جميع الظروف مع الامم الاخرى

شرحت فيما تقدم نظام مدرسة غرض القائمين بها تعليم الانسان كيف يقدر على تحصيل عيشه بنفسه وقلت انها تربى العزيمة والارادة والثبات وانها تقوى الجسم كما تربى العقل . وشرح موسيو « روزيه » و « بيرو » في مجلة « العلم الاجتماعى » تلك الطريقة عينها فى بلاد الانكليز والولايات المتحدة فعرفنا منهما ان الشاب يشب على اعتقاد ان الرجل اذا سقط يجب ان يسقط على قدميه كالهر سواء تعلم فى البيت أو فى المدرسة أو بين اخوانه وهم يعملون فوجهة الشبان هناك الكد والتزاحم فى الحياة لا الخلود الى الراحة والكسل وهم لا يخافون من تلك الكلمات تزاحم فى الحياة كد نصب لانهم لا يخافون من مسمياتها وما عدم خوفهم الا من ان تربيتهم جعلتهم قادرين على مغالبتها

والواقع ان تلك الامة الانكليزية السكسونية قد أخرجتنا من معظم البلاد التى كنا نحتلها فلم يحل علينا القرن مذ كنا أصحاب السيادة والنفوذ فى آسيا وأفريقا وأمريكا وقد انهزمنا فى كل مكان امامها فهى خصمنا الموروث وهى الخصم الذى يجب علينا أن نقلده فى ارتقائه ولسنا بترداد هذا النصح نعمل كعالم وقف على حقائق الاشياء ليس الا بل كمحب لوطنه يلاحظ المستقبل ويأخذ بالاحوط

الا ان غرضى الآن ينحصر فى بيان ان تلك التربية تجعل الرجل سعيداً اكثر من غيره لما توجده فى نفسه من الاعتقاد برفعته عمن سواه واستخفافه بالمتاعب واستسهاله كل صعب في سبيل وجوده واليك مثلا لا يخلو من

الغرابة فى بابه وهو من ألطف ما يحكى عثرت عليه فى جريدة « الطان »
بقلم موسيو « دى فارينى » قال « اجتمع فى أواخر يناير الماضى على مائدة فى
أحد مطاعم « بوسطون » لفيف من الشبان ذوى البيوت الكريمة تخرجوا
حديثا من كلية « هاروارد » وفاقوا فى العلم والتمرينات الجسمية ثم أخذوا
يتجاذبون أطراف الحديث فقال أحدهم وكان اسمه « بول جونيس » انه لم
يبق فى الولايات المتحدة فقير الا الذين لا ثقه لهم بانفسهم وانه لو أضاع
هو جميع ما تركه له أبوه من المال وأصبح لا يملك فلسا واحداً وكان عريانا
كيوم ولدته أمهُ لوسعه أن يحصل عيشه وأن يرجع من تلك البلاد بخمسة
آلاف دولار أى خمسة وعشرين ألف فرنك بعد مصاريفه كلها وذلك
بعد سنة واحدة من الزمان . فتراهن معه أصحابه على خمسين ألف فرنك
واتفقوا على انه يتوجه فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يناير الى الحمامات
التركية وهناك يتجرد عن جميع ملابسه حتى اذا جاء الزمن المحدود بدأ فى
طوافه حول الارض وكانت الصعوبة عليه أن يبدأ بسياحته لانه كان عريانا
لذلك وجه اهتمامه أولا وبالذات الى ستر عورته باقل ما يمكن من المال
فجعل يمسح أحذية رجال المكان الذى هو فيه بجد ورضاء كأنهُ لم يتعود
غير تلك الصنعة فى حياته . ثم يتناول الراتب المخصص لهذا العمل وهو زهيد
فيقسمه بين قوته وكسائه ومكث هكذا خمسة عشر يوما وهو زمن كبير
نظرا للاجل المحدود له وهو سنة واحدة فلما خرج من الحمام قصد مدينة
لندره ليسافر منها الى الهند ولكى يحصل أجرة السفر جعل يبيع الجرائد فى
الاسواق ويشتغل بالسمسرة ومرافقة الاجانب كترجمان لانه كان يعرف

الفرنساوية والالمانية والتليانيـة وتوصل بصفته ترجماناً الى السفر مجاناً على احدى البواخر الامريكية الى لنـدره ومعه من المال خمسون دولار أى مائتان وخمسون فرنكا وصار يلقى الخطب في لنـدره حتى كثر المال لديه والتحق ببعض الجرائد الانـكليزية وتحصل من ذلك على مصاريفـه الى البلاد الهندية ولما قام الى تلك البلاد أخذ معه متجراً خفيفا بما جمع من المال وباعهُ فى مدينة (كلـكوتا) بثمن ربيح ولا يزال الآن سائراً فى طريقه ويظهر من خطاباته لاصحابه وما ينشره في الجرائد انه متأسف على عدم جعله الجعل ضعفين ولو استلزم ذلك مضاعفة المبلغ الذى تعهد بكسبه لدى عودته من سياحته

ويظهر ان انتشار هذه الروح فى جسم الامريكانيين حرم الانـكليز لذيذ المنام فقد قرأنا في جريدة (بتى جرنال) ان اثنين من شبانهم تراهنـا على الامر بعينه واجتازا البـلاد الفرنساوية للغاية نفسها حتى يبرهنا انهما غير متأخرين عن اخوانهما

عرفنا السعادة بقولنا انها حالة ارتياح تقوم بنفس أولئك الذين يتمكنون من التغلب على متاعب الحياة المادية والادبية تغلبا حقيقيا وعليه فكل وسط يساعد الانسان على اجتياز تلك المتاعب كما يجتاز الصبي حواجز الالعاب يساعد من غير شك على تحصيل السعادة اكثر من غيره ولست أدرى ان كان أولئك الشبان الثـلاثة الذين ذكرتهم يفوزون بما تراهنوا عليه أم لا على أن ذلك ليس محـلا للنظر بل الذى يقتضي الالتفات هو تلك الحالة الفكرية التي دبت فى اذهانهم وتلك الهمة الذاتية التي يدل عليها عملهم . ولا

شك انهم ينظرون الى الحياة بنظر يخالف نظر الامتين اللتين قدمنا ذكرهما مخالفة كلية فان الرجل فيهما يلقى السلاح امام الصعاب اذا اعترضته فى طريقه ويمسى تعيساً لشعوره بما هو فيه من الضعف والانهزام . أما رفيقه ففى نفسه اعتقاد بان همته أكبر من كل صعب يلقاه وهو فى الواقع أشد مراساً وأثبت قدما واعتقاده هذا سبب فى اطمئنانه وتبسمه للحياة تبسم الموقن بالنجاح . ذلك رجل قد تولى بيده زمام السعادة على قدر ما يسر الله للبشر فى الحياة الدنيا

لهذا لا نرى الزنابير بين صفوف تلك الامة الا نادراً وليس لهم وجود فى الامم الانكليزية السكسونية اللهم الاان كانوا من تلك الامم الاتكالية الذين استوطنوا البلاد الانكليزية قديما أو هاجروا الى البلاد الامريكية حديثا ومن المعلوم أن طائفة السياسيين فى هذه البلاد الاخيرة من الارلنديين وليلاحظ أنها هى الطائفة التى كثر شغبها وقل رضاها بما قسم الله لها

حقيقة ليس من الزنابير أولئك الشبان الذين اذا بلغوا المتممة للعشرين لم يطلبوا مساعدة من آبائهم ابداً وتزوجوا بنساء بغير مهر واحتقروا الوظائف فى الحكومة وفضلوا عليها الاشتغال بالحرف الجارية والصنائع المألوفة المستقلة وجعلوا اتكالهم على هممهم غير منتظرين معونة من الحكومة أو الامة . ومن الواجب علينا ان نعتقد بان هؤلاء القوم الذين قد ترك كل واحد منهم لنفسه أقرب الى السعادة من أولئك الذين اذا صادفتهم صعوبة مدوا الاعناق نحو الغير يرجون معونته . وهذا الشعور هو السر فى نجاح

كتاب موسيو « جون لوبوك » وانتشاره ذلك الانتشار الغريب مما لا ندرك له نحن سببا فان أدلته ضعيفة لا تؤدى بذاتها الى اقناع واحد من قرائه بالرضى بما نال من رزقه الا اذا كانت نفسه متشبعة بذلك الارتياح والاطمئنان وتجلت له الحياة بمظاهر الفرح والابتهاج مما يبعد عنا تصوره وبالجملة فانه كتاب الفه انكليزى لقوم من الانكليز . وكأنى بمترجم هذا الكتاب الى لغتنا وقد أحسن بهذه الحقيقة حيث قال « لقد شرح هذا الكتاب أجمل صفات الانكليز العقلية فهو انكليزى بما أودع فيه من الاستبشار وحسن الحظ بالمآل وكمال الرضاء والارتياح) وهو استنباط صحيح لان المؤلف يلقب انكلتره بانكلتره المبتهجة ويقول (اذا اردت ان تعرف الحزن الصحيح فول وجهك قبل المشرق اذ ليس شيئاً أشد حزنا من شعر عمر الخيام أو شعر ديواس [1] قالا

(الزمن الذى يقضيه المرء فى هذه الحياة الدنيا قصير وهو لا ينال منها غير حزن وآلام ولا يدرك من حقائق الاشياء الا اليسير وقد اصبحت مسائل الحياة بغير حل ولات حين النظر فيها فقد انقضى الاجل ووجب الرحيل)

(الحياة اشبه برياح ضلت وجهتها ونحن اشبه بصوت بتلك الريح نطلب الراحة فلا نلاقى الا مايوجب التحسر والانتحاب وانهمال العبرات ولا نلاقى الا عواصف تهددنا وحربا نقتتل فيها)

ثم اتفق رأى المؤلف ورأينا فقال (واذا صح هذا وكانت الحياة

---

(١)قد بحثنا عن هذين الاسمين فلم نقف على ثانيهما ولم نعثر لا ولهما على منظوم بهذا المعنى ولذلك سقنا الترجمة نثراً

الانسانية على قدر ماقالوا من الايلام والشدة فلا غرابة فى أن العدم أي انقضاء الاكدار يكون من أقصى الأماني ولو أضاع الناس فى سبيله وجدانهم ومايشعرون) وفى هذا كما قلنا بيان لوجود مذهب التطير فى كتب الجرمانيين والسلتيين أى فى الامم التى لم تتعود العمل ولم تترب على الاجتهاد كما هو موجود فى فلسفة الشرقيين واشعارهم

كذلك اتفق معنا فى القول بان الانكليزى السكسونى لا يهاب الكد ولا يرهب العمل ولا يخشى الصعاب وأيد قوله باقوى الحجج قال فى أول الفصل العاشر الذى عنوانه (الراحة والعمل) ماترجمته (انى بالطبع لا اعد ضرورة العمل بين متاعب الحياة) وهذه جملة لااظنها تصدر من قلم كاتب نشأ فى أمة اتكالية لانه من غير شك كان يعد العمل فى مقدمة تلك المتاعب ما السير (جون لوبورك) فانه يستثنى منها العمل بلطف وصدر رحيب حيث يقول بالطبع لان ذلك أمر طبيعى عنده وفى اعتقادى أن قرائى لن يوافقوه كما أنى أشهد على نفسى انى من صفهم . ولا غرابة فانى اقيم هذه الدعوى على نفسى كما اقيمها على قومى . ثم ترقي السير جون لوبوك فى فكره فقال (ان العمل وان شق منبع من منابع السعادة متي ابتعد المرء فيه عن حدى التفريط والافراط فكلنا يعلم كيف ان الزمان يمر سريعا على الانسان المشتغل وأن الاوقات تثقل على الكسالى ثم الاشتغال يذهب الهم ويسرى احزان المعيشة اليومية ولايجد المشتغل من زمانه وقتا يقتله فى التخيل أو الاضطراب ونحن معاشر الانكليز انما نجحنا وصرنا أمة حية نامية لا نناقوم نحب الشغل ونهوى العمل)

وقد مدح علماء الاخلاق عندنا العمل واجتهد أساتذة المدارس في غرس محبته في قلوب الاطفال ولكننا نمدحه ونوصي به ونعلم محبته باعتباره أحد الواجبات وكانه ضرورة لامفر منها فوجب الرضوخ لحكمها وحمل النفس على القيام بما اقتضته أما عندهم فصيغة الكلام غير ذلك فهم انما يشيرون الى ان الامر يجرى كذلك في العالم بطبيعة الحال ولا يعدون العمل متعبا بل يقولون انه (منبع من منابع السعادة) وما من أحد يخالف قولهم حتى انى سألت فتاة من الانكليز فوجدتها على رأى السير جون لوبوك ترى الراحة فى العمل والكد والتغلب على الصعوبة وتقول ان كل الناس في بلدها على رأيها وكنت اثناء كلامها أظهر الاستنكار فقالت ولا بد للانكليزى من عمل فان لم يكن لديه من الاشغال الاعتيادية ما يعمل فيه عمد الى التجذيف فى النهر أو الى لعب الكرة والرياضة الجسمية أو قصد قمة جبل شاهق يصل اليها ولو كان فى الامر خطر تلذذ باجتياز صعب من الصعاب . ولا شك فى ان الانكليز لا ينظرون الى الشغل بهذه العين الراضية الا لانهم متعودون عليه حتى صار فى جبلتهم امرا مقضيا قال موسيو جون لوبوك (وقد شاهد أحد السواح الشرقيين جماعة فى أوروبا يلعبون لعبة شاقة ورأى بينهم كثيرا من الاغنياء فعجب وسأل لم انهم لا يستعملون غيرهم فيما شق من هذه اللعبة باجرة يدفعونها) والسائل انما جرى في سؤاله على حسب تربيته لان الامم الاتكالية لا تنظر الى العمل الا من حيث كونه أمرا متعبا . وقد جاء فى المثل التركى (أولى للمرء ان يكون جالسا من ان يكون قائما وان يكون نائما من ان يكون جالسا وان يموت من ان يكون نائما)

ومعلوم ان تلك الاماني بعيدة المنال لذلك كانت الامم التي تودها أتعس الامم في الحياة الدنيا وهي لذلك أشدها حزنا وكدرا . أما الامم التي تعتقد ان الاولى للانسان ان يكون قائما من ان يكون جالسا فهي بالطبع أوفر حظا وأوفى سعادة اذ يلزم للفوز في الدنيا ان لا يجلس المرء ما استطاع الى الوقوف سبيلا

لكن ليس من السهل ادخال هذه الروح في الاذهان فلا يكفي لذلك ان ينادى على منابر الخطابة أو في المدارس بان السعادة في العمل لان هذه الصيغة بهذا التركيب (السعادة في العمل) غير صحيحة حتى عند الذين ينطقون بها ولا يعملون بها الا قليلا ولو كانت صحيحة لاصبح الناس أجمعون لا تنثني لهم عزيمة عن العمل أبدا اذ ما من أحد الا وهو يحب السعادة حبا كثيرا والحقيقة ان معظم البشر لا يجد السعادة في العمل

والواقع ان السعادة ليست في العمل بل هي في القدرة عليه وفرق بين الحالتين فمن الناس من يقولون ليتنا نحب العمل ولكنهم لا يحبونه ولن يحبوه مع ما يقرأون في كتب الاخلاق من الحض عليه والنصح به ومع ما جاءت به الفلسفة وأمر به الدين من وجوبه وأسناد النجاح اليه . ولن يصل المرء الى أجتياز هذه العقبة الا بعد ان يكون من وسط تعود حب العمل زمانا طويلا وذلك يقتضي أن الابوين لا يريان من واجبهما بالنظر الى أبنائهما الا تربيتهم تربية صحيحة . وان الابناء يرون ان لا ملجأ لهم في الحياة لا أنفسهم . وان الزوجة انما يقصد بها الرفيق لا المال الكثير . وان الحكومة لا تأخذ من السلطة الا ما احتاجت اليه . ولا تتوسع في الوظائف

لا بقدرة الضرورة لتشجع الناس بذلك على اعتناق الحرف والاشتغال بالصنائع التي تقتضي العمل وتستلزم الجهد وتطلب الهمم الذاتية

وبالاختصار ينبغي أن يقل اعتبار الموظف والسياسي والبطال الذي لا عمل له عن اعتبار الزراع وذوي الصناعة والتاجر وظاهر ان ذلك كله ليس بالامر البسيط غير انه كله لازم في تحصيل السعادة للناس وكله لازم في استمالة الرجل الى العمل أولا وغرس محبته في قلبه ثانيا

ومهما بحثنا عن حل صحيح للمسئلة الاجتماعية لا نجد الا هذا

الفصل السادس

﴿ في ضعف المؤثر الادبي ﴾
﴿ وفي امارات نهوض الهيئة الاجتماعية ﴾

ظهر في هذه الاوقات فريق من الناس يطلب من علم الاخلاق الاخذ بناصر بني الانسان للنهوض مما آلوا اليه من الانحطاط ويسعى وراء « تطمين السرائر وتهدئة الضمائر بعيشة أحسن وأرضى » كما هو اللفظ الذي اصطلحوا عليه ويقولون ان الطريق الى غرضهم هذا هو تربية الانسان على تحمل الحرمان ومحبة الغيروان حالة الناس التي هم فيها اليوم ليست « مسببة عن أحوالهم الاجتماعية أو السياسية » بل « مرجعها الى الاخلاق والدين » . ومن هنا كان أنجح الوسائل في تغيير تلك الحالة هو أن يبدأ كل واحد بتغيير نفسه وان يولد من جديد » كما هو قولهم وقول انجيل يوحنا

وان « أول عمل يدخل به المرء باب هـذا الاصلاح هو العزم على ترك محبة الذات والخضوع الي التعاليم المأثورة » وبالجملة يريد أولئك القوم لاصلاح حال البشر أن يعيدوا « زمان الاخيار » أهل التحقيق والابرار » ويقولون ان منهم من هو الآن بيننا « ولكنها الينا بيع الرائقة والعيون الصافية تذهب سدى واحداً فواحـدا فى الاراضى المجدبة والرمال المتربة والناس لاهون فيتركونها تضيع ولا يستقون منها ومن استقى فقليل غير ظاهر » ثم يشيرون بالمحافظة على تلك الينابيع والاكثار منها

وهم مع هذا يتبرأون من الميل الى ايجاد دين جديد أو اضافة شيعة على التي وجدت من قبل وينادون بانه « ليس من الغرض بناء مرسى جديد ترسو اليه الارواح وانما المراد اطلاق الينبوع فى المراسى الموجودة ليملأها الماء فتتصل ببعضها »

والواقع انهم لا يأتون بدين جديد لانهم لا يقولون بمذهب مخصوص بل تلك فكرة دينية أى ميل دينى مخصوص الغرض منـه مقاومة مذهب الماديين وأهل اليأس لذلك مدوا أيديهم الى جميع الطوائف والنحل المسيحية وغيرها ممن يشعرون بحاجتهم الى مساعد أجنبي في محاربة الشهوات والتغلب على الاهواء جاء فى كتابهم المسمى « عقلنا » « انا وان اعتبرنا جميع التابعين للكنائس على اختلافها من المساعدين المحبوبين لدينا نرى أيضا فى المنشقين أو المتفرقين ابناء لنا لانهم فى عزلة شـديدة » أعنى انهم يدعون اليهم كل من آلمته الحياة أدبياً وماديا حتى يكونوا هيئة جـديدة أساسها تضحية المنفعة الذاتيـة وترك محبة الذات واماتة الشهوات وأغفال الاميال

الشخصية ومحبة الغير ويقولون « ان الانسان يؤثر بارادته فى نفوس الغير بمجرد اقدامه بشجاعته على العيشة الروحانية »

لكن هل تضحية الذاتيات وتذليل النفس وحب الغير وهى التى يجمعها قولهم « المؤثر الادبى » تؤدى كما يؤكدون لزوما الى رفع شأن العالم الانسانى وايجاد النظام الاجتماعى المطلوب .

هذا هو محل البحث وموضع النظر . وأنا أجهر بمخالفتهم وأقول بأن المؤثر الادبى مهما عظم فعله لا يكتفى للقيام بحاجة الهيئة الاجتماعية ولا أبالى اذا أخجلتهم بشذوذى عنهم وأخجلت معهم قوما آخرين . على انى لست من اليائسين الذين خرجوا عن جميع الاديان ولكنى من المؤمنين التابعين لمذهب مقرر فى الدين ولى كنيسة أركن اليها فقولى هذا ليس ناشئا عن بغض أو مجافاة بل العلم هو الذى أملاه علىّ . واذا أردتم أيها القراء فابحثوا معى فيه

لنا فى البحث طريق سهل حقيقى وهو ان نقيس مرادهم فى المستقبل بما كان فى الماضى . وقد نبغ فى بعض الازمان الماضية رجال من الاولياء البررة الاخيار اعتقد الناس بحق فيهم انهم بلغوا من كمال الصفات وتهذيب الاخلاق حد الاعجاز وبرهنوا على تضحية الذاتيات ورد جماح الشهوات وحب الغير أى برهان . ولا شك فى ان أصحابنا يرضون كمال الرضى ويصبحون آمنين على صلاح النوع البشرى اذا تيسر العود الى مثل تلك الاوقات وظهور مثل أولئك الاقطاب ورجوع ذلك الينبوع الى مجاريه

ولننظر ماذا نتج عن ذلك فى الايام الاولى لظهور الدين المسيحى

جرى ذلك الينبوع وفاض حتى فار الماء واستوى على جانبيه وكان بجانبه أيضا ينبوع آخر يساعده ماؤه يتكوّن من دماء ألوف المستقتلين حبا في ذلك الدين وأهله فما أزهرت رياض الاولياء فى زمن أكثر من تلك الازمان وما بلغ الانسان فى الادب والكمال درجة أعلى من التى بلغها فيها . ومع هذا يخال لى ان الناس لم ينحطوا الى درك أسفل مما هبطوا اليه فى تلك الايام بذاتها . زمان كان الحكم فيه حكم القياصرة أعنى ان حكومته كانت أردأ الحكومات التي تولت زمام الناس فى جميع الازمان وأفظعها وهى التى سبقت غيرها في أساليب المظالم وأفانين المغارم وليس لما استولى على الانسان من الذل والهوان والخسف والحرمان وفساد التربية العامة وسوء التربية الخاصة اذ ذاك نظير الا شذوذاً . قال القس « سلفيان » « لسنا نجد مثل تلك المظالم فى جميع الامم الا عند الرومانيين فما بلغ الفرنك من الشره هذا المبلغ وما عرف «الهونس» وأمم « القندال » و« الجوط » مثل هاتيك الفظائع والآثام بل ان الرومانيين أنفسهم الذين يعيشون بين المتبربرين لا يطيقون تلك الفعال ولا يتمنون الا انهم لا يعودون الى حكم الرومان مرة أخرى وهذا هو السبب فى ان اخواننا هجروا الاوطان وفضلوا الاقامة بين المتبربرين ومن لم يقدر على الرحيل لكثرة عائلته أو ثقل بيته لم ير بداً فى الحياة من الالتجاء الى الاغنياء فأسلموا أنفسهم اليهم ومع ذلك لم يحمهم الموسرون من ظلم الظالمين بل زادوهم بلاء وشقاء »

وهذا الشقاء قديم تكلم عنه « لاكتانس » فقال « مسحت الاطيان حتى قيست الذرات منها وجرى تعداد قوائم مكعبات الكروم وأصول

الاشجار وسجلت أنواع الحيوانات على اختلافها فى الدفاتر والاوراق ولم تغب نفس واحدة عن الحاسبين وقد حشدت الخلائق في المدن من جميع الجهات وسارت قوافل الرقيق تروح وتغدو فى الخلاء وسمعت أصوات السياط وضربات التعذيب صاعدة من كل جهة ومكان وكان الرجل يدفع الضرائب عن أرض لا يملكها ولا هى فى يده حتى العجزة حتى المرضى حتى الاموات سجلوا فى دفاتر الصيارف وضربت عليهم الجزية أى على الاحياء من أجلهم)

ولم تترك تلك المظالم بغير طعن ولا تنديد بل قام الالوف من القسس والرهبان والاولياء لنصرة المظلوم ورفعوا أصواتهم بالتنديد على المعتدين وجعلوا يعظون الناس باتباع أسلم المسالك وكانوا لهم فى ذلك قدوة حسنة ولكن الانحطاط استمر فى هبوطه وسار سيراً حثيثا ولم تجدِ الاقوال ولا نجحت التعاليم ولم يقف الدمار برهة واحدة من الزمان بل ظل يتقدم حتى استحكم الفشل وتم التمزق والانحلال

هنالك أقبل المتبربرون وأتوا بتلك المعجزات التى عجز عنها أولئك الافاضل والاولياء بسهولة لا مزيد عليها ومن دون ان يلتفتوا الى مايصنعون ورغما عن توحشهم ومعائبهم وما ارتكبوا من الجرائم والآثام فبرزت من بينهم الامم الحاضرة التى تخالف الامم الغابرة كل المخالفة وتفوقها من حيث الاخلاق والاحوال الاجتماعية

ربما يعترض بأن المتبربرين انما نجحوا فى تغيير الاحوال الاجتماعية لانهم نشروا فى الامة الرومانية بساطتهم فى المعيشة ولانهم كانوا أقل فسادا

في الاخلاق لقلة المال عندهم الا ان هذا الاعتراض يسقط اذا لوحظ ان الامم المتبربرة ليست كلها هى التى احتلت البلاد وان الذين جاءوا منها اليها لم يكونوا من أبسطهم معيشة وأقلهم مالا « راجع فى شرح هذا الدليل ما كتبه موسيودى نورفيل » فى مجلة العلم الاجتماعى تحت عنوان « تاريخ النشأة الاستقلالية ».

على اننى لا أنسب نجاح المتبربرين الى توحشهم ورذائلهم وجرائمهم وسأبين فيما بعد سبب هذا التحول وأكتفى الآن ببيان انهم قاموا بما عجز عنه غيرهم وان ذلك يدل على انهم كانوا يحملون معهم روحا أشد بأساً وأكبر قوة من فعل المؤثر الادبى.

ولنا فى أرلنده مثال آخر على ضعف ذلك المؤثر الادبى فقد سميت تلك الجزيرة فى القرن السادس بجزيرة الاولياء والقديسين وكانت مشحونة بالمعابد والاديرة ومنها ذهب المرسلون لنشر الدين المسيحى فى الامم الجرمانية وكان فى امكان جمعية الأخلاق ان تجد فيهم أنصاراً بقدر ما تريد لان كل الناس فى جميع الاقطار كانوا مشتغلين بتلك « الحياة الحقيقية » وكانت تلك البلاد غاصة بالرجال الذين اتصفوا بما تسعى اليه من الاخلاق كحب الخير والعقل والتقى وما كان اعتقادهم كنار القش لا تكاد توقد حتى تصير رماداً بل هو اعتقاد متين لان ارلنده لا تزال الى اليوم مهد الحمية الدينية وكان من اللازم ان هذه الحياة الادبية توجد فى تلك الامة حالة اجتماع من أحسن الحالات وأكثرها دواما وأرضاها ولكنها لسوء الحظ ماجنت الا دوام التقهقر وكان مبدأ ظهوره وهى فى أشد حالاتها تمسكا

بتلك الاخلاق ولا تزال هاوية حتى الآن

وهنا أيضا لا أنسب تأخرها الى نموّ الاخلاق والدين فيها لانني أقع بذلك فيما وقعوا فيه من الخطأ اذ قالوا ان بين حركة الاخلاق وحركة الامم نسبة كما بين العلة والمعلول وهو خطأ انا اجتهد في نفيه والتحذير منه وسأفي هذا المقام حقه لانه مفتاح الموضوع الذي أبحث فيه

بلغت حركة الاخلاق والدين في ايتاليا في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر مبلغاً عظيما وظهر فيها من القائمين بتلك الحركة كبار من أهل الدين كالقديسين « فرنسوا داسيز » و « كلير » و « انطوان دي بادو » والسعيد «يواقيم دي فلور» و «جنادي پارم» و «فراسالامبو» و «يعقوبين دي تودي» و «سليستان» و « كترين دي ستين» وغيرهم وظهرت طوائف الفرنسيسكان و «كلاريس » التي ادهشت الدنيا بفقرها وخضوعها وهما الفضيلتان اللتان يحلهما أصحاب المؤثر الادبي أعلى مقام لقولهم انه لا صلاح للناس « الا اذا تجردوا عن التعلق بكل أمر لا يكون ضروريا » ولقولهم « عجباً لقوم يأتون لينصحوا الامة وهم في العربات راكبون مع انها لا فائدة لها من اقتنائهم تلك العربات وهم بذلك انما يزرعون الحسد في القلوب بما يظهرون من التأنق والترفه ويؤكدون بهذا وجود طبقات بعضها فوق بعض مع انهم يقولون ان ذلك وهم وخيال وعليه فاذا أردنا أن نشفق حقيقة على الامة و نتأسى لما هي فيه من الآلام ينبغي لنا أن نتجرد عن كل شيء من شأنه أن يجعل الحياة في الظاهر حياة تفاخر وتنعم ولا محيص لنا عن العمل بهذا الواجب وان كان شاقا كما قدمنا اذ يجب علينا أن نعكس سلم أحكام العقل فنجعل الفوقي

تحتياً والتحتي فوقيا وبالجملة لا بد لنا من قلب العقول قلبا تاما فاذا لم تتهيأ النفوس الى هذا الانقلاب فلا بد لها من الانتحاب على مفاسد الناس كما يبكي الاطفال » ولو ان هذا الخطاب قرئ على القديس « فرنسوا داسيز » لا مضى عليه باليدين لانه كان يريد أيضا « أن يتجرد المرء عن كل ما ليس ضروريا » قال « اذهبوا ولا تلبسوا فضة ولا ذهبا ولا تأخذوا مالا فى جيوبكم ولا وطابا ولا بردين ولا نعلين ولا عصا » ونحن نعلم ما كان لمذهبه من سرعة الانتشار وكثرة اقبال الناس عليه فلم يمض على تأسيسه تسع سنوات حتى تمكن من ارسال خمسة آلاف مريد الي الجمعية العمومية فى « آسيز » وبلغ عدد أصحابه مائة وخمسة عشر ألف نسمة يقيمون فى سبعة آلاف دير وذلك غير اديرة النساء وعامة القوم الذين مالوا الى ذلك المذهب وجروا عليه

ولو ان تلك الجماهير أصغت الى هذا النداء لاصبح أصحاب المؤثر الادبى آمنين على تحسين حال الامة الفرنساوية لكن الحوادث دلتنا على ان انتشار الاخلاق والدين ذلك الانتشار لم يؤثر باكثر مما كان له من النتائج فى الدولة الرومانية وايرلنده التعيسة . وظلت عوامل التقهقر تنهك الامة التليانية بين فوضى سياسية وفساد أخلاق منهما أمة الرومان أيام عبادة الاصنام . ولم تقتصر النهضة الجديدة على ارجاع التليان الى ما كانت عليه الامم الغابرة من الاخلاق والفنون بل أعادت اليها أيضا رذائلهم الاولى . وانتهي الحال فى ذلك البلد بتقويض أركان نظامه الاجتماعى والسياسى ولم يغن عن ذلك سعى القديسين والاخيار وما كان لهم من النفوذ ولم يقتد الناس بهم فيما كانوا به يتظاهرون

لست أبغى الاكثار من ايراد الامثلة فتاريخ تلك الازمان محشو بها ولكنى أستميح القراء في ذكر شاهد واحد

ذهب الناس فى هذه الايام الى تعظيم آداب الديانة البوذية واحلوها مكانا عليًا وهى فى الواقع شديدة الاشفاق على الضعفاء والبائسين كثيرة الحنان على المظلومين غير ان هذا ليس المراد بل المدار على معرفة ما اذا كانت تعاليم تلك الديانة أوجدت حلا للمسئلة الاجتماعية ونهضت بامم الهند والشرق الاقصى التى كان لها عليها التأثير العظيم من وهاد الانحطاط الى أوج السعادة والهناء

بلى ان انحطاط تلك الامم غير محتاج الى دليل وما على الباحث الاان ينظر بعينه ليعلم كيف الحال وليوقن بان آداب تلك الديانة لم تنتشل تلك الامم من الحضيض الذى هم فيه

ومن أظهر البراهين على عدم نجاح المؤثر الادبى فى تحسين حال الامم ان الذين ينكرون قولنا لا يسعهم أن ينكروا ما يشاهدون فى أحوال الامم مثلنا بل ان الحق يخرج من أفواههم بالرغم عن ارادتهم مدفوعا بقوة الحوادث والمشاهدات وهى أكبر الدوافع وألزمها بيانا

اليك ماجاء فى منشور الحزب المشار اليه قالوا « نعم نحن نعلم ان العائلات والمدارس تقول للاطفال انه يجب على الانسان أن يكون صادقا أمينا من أهل الخير وأن يكون صدقه وأمانته قائمين باخلاصه ونزاهته . ولو كان مجرد قول الشئ وسماعه من المخاطب كافيا للعمل به لاصبح فتح

الضمائر واجتذاب القلوب الى الدين أمراً يسيراً . كذلك قد انتشرت الكنائس والمعابد والهيا كل انتشاراً عظيما ويدخلها الكثير من الاطفال ليتلقوا تعاليمها والعدد العديد من الناس ليسمعوا الوعظ والنصائح وتشاهد أعينهم بما يمثل امامها من المناظر والاحتفالات كيف ينتقل المرء من حالته الاعتيادية فيصير من أهل الخير تقيا . وللوعظ والارشاد رهبان وقسس يعدون بالآلاف وهم لا يفترون عن اداء ذلك الواجب . فلوكان هذا كله مما يوصل الى الغاية وحده وان عز نوالها لاصبحنا بها ظافرين لكنا مع ما نقول لا نرى الانجيل سائداً فى الناس ولا هم يعملون بمقتضى قواعد الحكمة الصحيحة التي أسسها عظماء الفلاسفة فى الاعصر الاخيرة والتى تطابق تعاليم الانجيل ومبادئه . والجلي الواضح ان الفرق عظيم بين درجة الكمال التى يشعر بها الوجدان بعد هذا العناء وبين ما نجرى عليه فعلا من الاخلاق والآداب » « راجع كتاب عقلنا صحيفة ١١ »

ولو انى القائل لما أجدت كما أجادوا والعجب من كون الذين كتبوا ما نقلنا لم يدركوا مكان الضعف فى مذهبهم الذى أسسوه على المؤثر الادبى دون سواهُ . يعترفون بان « ألوفا من القسس والرهبان يعملون على الدوام لانجاح مقصدهم » فى الاخذ بناصر الامم من وهدتها وأولئك القسس والرهبان هم من جميع المذاهب والاديان فمنهم الكاثوليكى والبروتستانتى واليهودى ويا ليتهم كانوا وحدهم بل أضافوا اليهم « عظماء فلاسفة العصر » وخرجوا من هذا كله يعترفون والحزن ملء قلوبهم بانهم كلهم امسوا خائبين وبان « الناس لا يعملون بما قضى به الانجيل وما قرره الحكماء وأعجب

منهُ انهم بعد ذلك يقولون وهم مطمئنون هادئون بوجوب « الابتداء في العمل من جديد » ويؤملون النجاح حيث لم تنجح الكنائس والمعابد على اختلاف مذاهبها مع ما كان لها من قوة السلطان ونفوذ الكلمة وعلوّ الشأن كانهم لم يعرفوا ان عدم نجاح تلك المساعي مع ما سوعدت بهِ من الاعمال والاخلاص والتجرد عن الذات وفعل الخيرات وتضحية النفوس والارواح وحب الجار دليل على انهُ لاشيء ينفع ولا مريد ينجح ان دام يسلك من ذاك الطريق . وكل عالم خابت تجربته لايغيب عنهُ هذا الخاطر البديهي البسيط ولكنهم لم يعرفوا حتى الآن ان المؤثر الادبي لايكفي لتحقيق سعادة الامم ودوام نعيمها وتحصيل مجدها الاجتماعي وانهُ ينقصه شيء أخر فقدانه هو السبب في تخلف الغرض المراد

فلنبحث حينئذ عن ذلك الشيء الذي يعوزنا

وليسمح لي القراء أن أضرب في البيان مثلا استعيره من الانجيل وأظن بهذا التشبيه لا أغضب أصحاب المؤثر الادبي

يمكن تشبيه المؤثر الادبي ببذرة تنبت ان غرست في أرض صالحة ولا تنبت ان خبث مغرسها . وعليه فلجودة الارض وفسادها تأثير عظيم . ولست بهذا أقول قولا جديداً وانما هو قول متفق عليه اجماعاً بالتقريب وقد قرره الوعاظ وعلماء الاخلاق والمتكلمون من كل مذهب ودين الف الف مرة من يوم ان ظهر الانجيل وصار من العاديات لصحته وبداهته

غير أنهم لسوء الحظ أقاموا بجانب هذه الحقيقة خطأً البسها من الظلام ثوبا فاخفاها اذ حسبوا أن جودة البذرة تولد جودة الارض وتقتضي

الانبات وقالوا « ليس من ارض غير صالحة وما الفساد الا فى البذور »
وظاهر انه لم يبق بين هذا القول وبين اهمال النظر فى طبيعة الارض التى
يراد الغرس فيها الا مرحلة قصيرة وقد اجتازوها باسهل ما يكون فانتقلوا
من قضية الى قضية حتى قالوا ما نصه بالحرف الواحد « ليس محل البحث
معرفة ما اذا كان الزمن الحاضر اردأ من الزمن الماضى لانه ليس فى استطاعة
احد أن يحقق شيئا فى هذا الباب فمن العبث ان يسأل عنه » ومعناه أن من
العبث البحث عن طبيعة الارض المراد غرسها . ادعوا هذا بغير دليل
وملأوا اليدين من بذور الاخلاق ثم بذروها فى كل صوب ومع كل ريح
تهب وعجبوا بعد ذلك من تخلف نبتها أو انهم اخفوا عجبهم بما ذهبوا اليه
من انتظار النبت يوما لا يعرفون له وقتا فقالوا « ان المقصد خطير والعمل
جليل فلا يطمعن أحد منا فى ان يدرك بوادر تحققه غير ان هذا لا يغير من
واجبنا لأن النجاح ليس من أعمالنا (راجع كتاب عقلنا صحيفة ٢٦)

أجل انما النجاح هو الذى من عملنا وهو كل العمل بل لا عمل لنا الا
هو . ومن المستغربات أيها الناس ان تدعوا القيام بذلك المقصد الامجد
الرفيع الشأن وهو النهوض بالامم من حضيضها من حيث الاخلاق
والاحوال الاجتماعية ثم أنتم تدعون مع هذا ان النجاح أى نهوض الامم
ليس من عملكم . انكم اذن قوم تحبون الفنون لذاتها ومكارم الاخلاق
لمكارم الاخلاق

ما عدم نجاح أصحاب المؤتمر الادبى وحده ممن خلوا من قبلكم الا
مسبب عن ذلك الاعتقاد الفاسد بانه لا تاثير لطبيعة الارض التى تلقى

البذور فيها وبانه من (العبث) الالتفات اليها . انما طبيعة الارض الاجتماعية سبب من الاسباب الجوهرية التى لها التأثير الاعظم فى نجاح المؤثر الادبى وخيبته . ولا أريد الاستدلال على ما أقول الا بتجارب موسيو (بول دى جاردان) صاحب الدعوة الى تأليف القلوب حول المؤثر الادبى فقد التقينا في ايدنبورج أيام قصدناها لالقاء بعض الخطب هناك هو في مؤثره الادبى وانا فى العلم الاجتماعى ورأيته متعجبا من اقبال الناس على مذهبه ويرى كما اخبرنى (ان الارض صالحة جداً) والواقع انه لقى من أهل تلك المدينة قوما يصغون اليه بكمال الالتفات ويسمعون حديثه بجد واهتمام وعلى افكار تليق كل اللياقة بمذهبه ونشر مباديه وكان مندهشا من الفرق بين استعداد الافكار فى هذه المدينة وبين حالة الافكار فى فرنسا اذ يوجد بين أصحابه انفسهم عندنا من يتبعه لمجرد الانضمام اليه حبا فى التقليد والتمسك بكل شيء جديد جريا على اميال الفرنساويين فى هذه الايام الى علوم الادب والاخلاق فان الرجل منا اليوم يتمذهب بمذهب كذا أو كذا اليقال كما جرى على السنتهم ذلك أظرف وأحلى ذلك احكم وادق ذلك هو الرأى الاخير ذلك ميل من الاميال وهكذا من الالفاظ الغريبة التى درجت بينهم . فاذا تبدل الحال اوجد جديد رأيتهم يتسارعون الى ترك ما تعشقوا وذهبوا يتفرجون على الرأى المطل كما يترك الرجل رداء الصيف ليلبس ثوب الشتاء وفى كل هذه الادوار ترى عامة القوم يقلبون ذاك الجد هزلا كما هى عادة الفرنساويين فى قلب كل شيء تهكما

تلك أرض ليست صالحة لوضع البذور فيها والنشأة الاجتماعية الحاضرة

ليست مستعدة لقبول فعل المؤثر الادبى كما قامت فى وجهه عند الامة الرومانية وفى ايرلنده وايتاليا وفى الشرق حيث لم يأت بما كان ينتظر منه من المزايا ولا بما ارادوا ان يكون له منها

وجب اذن ان يبدأ بتغيير النشأة الاجتماعية ذاتها ان كان المراد الوصول الى فائدة صحيحة اعنى انه ينبغى البدء فى الاصلاح باوله

وأول مايجب البدء فيه عندنا حتى يكون المؤثر الادبي صالحا للغرض المطلوب تربية الرجال واعدادهم للحياة الحقيقية . ونحن اليوم نعلم ابناءنا ان منتهى الامل ومنتهى الحكمة هو الخلاص بما فى الجهد من متاعب الحياة وتقلباتها . يقول الوالد لولده (يابنى توكل أولا علينا فى دنياك فانك ترى كيف نقتصد وندخر لنجمع لك مالا جزيلا نقدمه لك مهراً يوم زواجك ولقد بلغ حبنا لك مبلغا لا نستطيع معه ان نترك امامك عقبة من عقبات الحياة الا ذللناها مااستطعنا . ثم توكل بعدنا على اقاربنا واصدقائنا فى معونتك والتوصية بك حتى تنال مرتزقا . وتوكل أيضا على الحكومة فلديها من الوظائف عدد لايحصى وهناك يبيت المرء مطمئن البال آمنا من التقلبات يقبض راتبه فى آخر كل شهر على التوالى ويترقى بطبيعة الحال المجرد وجود المعاش وحق التقاعد والوفاة حتى انك لتعرف راتبك متى بلغت سن كذا وكذا ومتى تنال المعاش فتقعد عن العمل آمنا مستريحا بحيث انك بعد أن تكون قضيت زمنا من حياتك وكانك لم تأت عملا يمكنك ان تعيش بقية عمرك من غير ان تأتى عملا أبداً وان كنت لاتزال فى سن يكد فيه المرء ويتعب . ولما كان ايها الولد العزيز راتب الوظائف زهيداً وما كل

ما يتمنى المرء يدركه ينبغي لك ان تتوكل أيضا على المهر الذى تأتى به لك زوجتك وعليه فمن واجبك قبل كل شئ ان تبحث عن زوجة غنية وليطمئن بالك من هذه الجهة فسنبحث لك نحن عليها وسنجدها ان شاء الله . تلك أيها الولد العزيز هى النصيحة التى يمليها علينا حبنا لك وميلنا اليك»

هذا هو القول الذى يسمعه الولد كل يوم فى بيت أبيه ومن جيرانه ومخالطيه وانى ذهب ولا شك فى انه يعوّده من غير شعوره على الاعتماد على غيره أكثر من نفسه ويبعده عن حب المرتزقات التى تقتضى الجد وتستلزم الهمة والاقدام وقد يصيب فيها أو يخيب كالزراعة والصناعة والتجارة ويجعله ميالا الى الحياة المستريحة

ومتى صار هذا نظره فى الحياة جمدت ارادته وخملت همته وارتخت منه العزيمة وصار غير قادر على الكد والعمل ميالا الى الهرب من الصعاب لا راغبا فى مغالبتها يبحث عما فى الحياة من المسليات لا عن الجديات ويمسى غير قابل لتأثير ذلك المؤثر الادبى الذى يطلب الكد ويوجب على الانسان ان يقهر نفسه ليملكها

هذا هو المانع الاكبر للعمل بمقتضى الارشاد الادبى وحده ولا يمكن ازالته بالمؤثر الادبى وحده لان الوسط الاجتماعي كله متضافر عليه فالمؤثر الادبى يقول « يجب على المرء ان يكون مستعداً لاجراء ما فيه كلفة عليه » ووسطنا الاجتماعى كله يصيح بضد هذا ويفشى بصوته كل صوت عداه . وجب اذن تغيير هذا الوسط قبل كل شئ وان يكون تغييره على النحو الذى يوجب نموّ همم الافراد الذاتية وبعبارة أخرى توجيه الناس الى اعتناق

« الحياة الحقيقية »

يقولون ان هذا أمد بعيد ولكن أقرب الطرق هو الذى يؤدى الى الغرض المقصود والمؤثر الادبى باعتراف أهله لا يؤدى اليه

على ان الطريق ليس بعيداً كما يظنون لان الزمان يدفعنا نحوه ودافع الزمان أشد البواعث كلها والواجب علينا ان نوجه أعمالنا ونلفت هممنا الى معرفة هذه الحركة ونساعدها فى فعلها ونستبطئها لا ان نقاومها ونعيقها ونؤخرها

وها أنا أذكر بوجه الاختصار علامات تلك الحركة وبوادرها

العلامة الاولى اختلاط الجنس الانكليزى السكسونى ومنافسته انا لا يمكننا ان نتخلص من تلك المزاحمة والمنافسة فانا نلتقى مع ذلك الجنس المقدام المغير فى جميع الاقطار التى يمتد اليها نفوذنا . نجده على أبوابنا فى أوروبا ونجده انى ذهبنا فى البلاد الاجنبية وهو الذى نجده فى كل مكان نتخذه مستعمرة لنا أو نضع فيه أى عمل كان . ينافسنا حيث وجدنا بزراعه ومستعمريه وصناعه وتجاره . وأنتم تعلمون ما فى منافسته من الخطر علينا لما امتازت به من عزم القائمين بها وثباتهم وخبرتهم بالمسائل العملية وتعودهم الاعتماد على أنفسهم . فيجب ان يكون لنا مشجع من هذه المزاحمة وتلك المنافسة لان المرء ينبعث الى العمل اذا ضاق الفضاء امامه وخاف التقهقر من المواقع التى يحتلها ويستفيد من التمثل بخصمه ويتأثر به فى أحواله وأعماله

ونحن انما نحث الشبان الذين يحضرون درسنا فى العلم الاجتماعى على الذهاب الى لندره لكى يتلقوا ذلك الدرس المفيد بالخبر والعيان فيها اذ

يجتمعون هناك باهل تلك الامة ويتعلمون منها المزايا التي تفضل بها من عداها

غير ان هذه العلامة لا تكفي للدلالة على ان الترقى بدأ فينا اذا لم تقترن بغيرها مما هو كائن في الامة نفسها

العلامة الثانية خيبة طريقة التعليم عندنا كما أجمع الناس على تحقيقه خيبة التعليم ظاهرة لجميع الناس لذلك يزداد عدد المنددين يوماً فيوما كما يزدادون جرأة فى التنديد واقداماوفيهم من كل صنف حتى من المدرسين ووزراء المعارف العمومية وجميع الاحزاب السياسية والكل متفق تقريبا على ان المدارس لم تأت بما كان يرجى منها . والمشتغلون بالتعليم يشاهدون سقوطه وانحطاط درجته على وجه العموم . نعم تعلم المدارس شبانا يخرجون منها حائزين للشهادة الثانوية « بكالوريا » أو موظفين ومستخدمين ولكنها لا تربى رجالا قادرين على تحصيل عيشهم بأنفسهم

ودليلنا على وجوب ادخال التحوير فى طريقة التعليم عندنا ما قرأناه ضمن خطاب ألقاه فى هذا الموضوع على أحد النوادي موسيو « لاڤيس » رئيس فريق من رجال التعليم عندنا يسعون فى الوصول الى تلك الغاية حتى يكون التعليم صالحا لاستثمار ما أودع فى المرء من القوى والملكات وهو « انى أذكر كلمة قالها لى أحدالشبان الانكليز » وهي أرجوك أن لا تظننى من العلماء فان المدرسة لا تعلمنا شيئاً كبيرا اللهم فيما اظن الا كيف نسير فى الحياة « وما أجمل هذا الفخار الانكليزى الذى اندرج طى هذا التواضع في المقال ولا شك عندى فى ان زائري ما كان ليرضى أن يستعيض عن علم

السير فى الحياة بمعارفنا المدرسية ولو انى عرضت المعاوضة عليه لاجابنى ان انكلتره محتاجة الى رجال تعودوا الاعتماد على أنفسهم وشبوا على الاستقلال والاقدام ليكونوا لها تجارا وساسة وصناعا »

وليس بيسير انا نقد عرفنا حاجة طريقة التعليم عندنا الى التغيير والاصلاح وانها لا تعلمنا « كيف نسير فى الحياة » ولا تعوّدنا على « الاعتماد على أنفسنا » فان ادراك الخطأ أول خطوة نحو الحقيقة

العلامة الثالثة تقدم التمرينات الجسمية عند الشبان

كفانا ما احتقرنا من التربية الجسمية فقد جهلنا منها حتى اسمها . وكلنا يعرف مدارسنا وطول دروسها وقصر أوقات الاستراحة منها وعدم وجود تمرين من أى نوع كان ونزهتها التي تشبه نزهة المسجونين حيث يروح التلامذة ويغدون بين أربع حيطان مرتفعة تحزن النفوس ثم فسحة يوم الخميس ويوم الاحد على النظام العسكرى اذ يخرج الطلبة صفا صفا كما يتريض الشيوخ لا الشبان . ولا شك فى ان البقاء تحت هذا النظام يطفئ همة الجسم ويجعله عائقا لصاحبه لا مساعداً له . وعليه فلا يتأتى نمو القدرة والاقدام وحب العمل والميل الى الاستقلال . والرجل اذا كان متمكناً من آلة طبيعية جيدة يكون أشد وثوقا من نفسه . وأقدر على مغالبة الحياة واقتحام متاعبها وأكثر ميلا الى العمل لا الى البطالة والبقاء تابعا كما لو كان موظفا ويشعر من نفسه شعوراً أعظم برجوليته وهو كذلك فى الحقيقة . وقد انتشرت التمرينات الجسمية انتشاراً عظيما منذ بضع سنين كما هو المعلوم ودارت أسماء الالعاب المختلفة الانكليزية على السنة الفرنسويين ودخلت

فى لغتهم وخصصت كل جريدة قسما من صفحاتها لنشر ما يتعلق بتلك الالعاب وأنشئت فيها جرائد مخصوصة تطبع بعضها ما يزيد على عشرة آلاف نسخة فى كل مرة وصار يجتمع للتفرج على تلك الالعاب فى بعض الاماكن ما ينوف على العشرين ألف نسمة وقد يغص المكان فيرد الزائرون ولا شبهة فى ان الشبان الذين جذبتهم تلك التمرينات الى هذا الحد هم أقدر من غيرهم على تحمل اتعاب الحياة وأكبر همة وأشد عزما لانهم تعلموا كيف يتغلبون على تكاسل أجسامهم ويحكمون على حركاتها وتلك أحسن الوسائل للنجاح فى ما تقتضيه الحياة من الأعمال وأصبحت هذه الشبيبة محل الأمل وموضع الرجاء

العلامة الرابعة كثرة التزاحم على الوظائف الادارية والحرف الادبية

غصت وظائف الحكومة والحرف الادبية بأهلها حتى ضج الناس كلهم وأمسى على باب الوظيفة أو الحرفة الواحدة عشرة طلاب وعشرون ومائة لان كل الناس راغب فيها وزاد عددهم حتى ملئت بهم دهاليز المصالح الادارية وضاقت رحابها وتهافتوا على حمل كتب التوصية وباتوا حيارى . ولما اشتد الامر ظهر فى الوجود فكر جديد وهو ان الناس صاروا يشعرون بصعوبة نوال تلك الوظائف وقل الامل فيها وهى لا تجزى عن الاتعاب التى يقاسونها للوصول اليها وبدأت العيون تشخص الى الحرف المستقلة التى هى أيضاً أكثر ربحا وأوفر كسبا الا انهم لا يزالون مترددين ولكن الشخوص موجود فلنترك الامر لفعل الزمان اذ لابد لهذه الحركة من الظهور تماما وقد ظهرت من قبل فى الشبان الذين هم أكبر استعداداً وأبعد نظراً

العلامة الخامسة هبوط فائدة المال

بعد ان كانت فائدة النقود خمسة فى المائة نزلت الى أربعة ثم صارت ثلاثة فى هذه الايام بل ان فائدة أحسن القراطيس أقل من ذلك ووجب حينئذ ان لا يعتمد الانسان على ايراده أو مهر زوجته وصار من الصعب كفاية الحاجات برواتب الوظائف لقلتها وأصبحت معيشة الرجل من ايراده الخاص أصعب وأشد حرجا اذا اكتفى به وركن الى البطالة وتلك حال من أقوى البواعث فى حمل المرء على العمل بنفسه وأن لا يعتمد الا على نفسه . وليس فى قدرة الناس ان يستعصوا زمانا طويلا على اجابة هذا النداء لانهم بعد ان يطرقوا أبواب الاقتصاد كلها لا بد لهم من دخول ذلك الباب

العلامة السادسة فداحة الضرائب الى الحد الاقصى

الفرنساويون هم الامة التي كثرت ضرائبها عن غيرها وهم يحتملون وقرها بقوّة التوفير والاقتصاد لا بقوّة العمل والاجتهاد لان الناس اذا ارتقوا فى الامة عندنا تركوا الزراعة والصناعة والتجارة مع ان الذين يرتقون هم الذين كان فى قدرتهم ان يصلوا بها الى الغاية القصوى من التحسين والاتقان بما أوتوا من العقل وما جمعوا من الاموال . ومن هنا نقص ايراد هذه المصادر الثلاثة التى عليها مدار الثروة العامة سنة بعد أخرى وأصبح من المتعسر الاعتماد على الضرائب لانها تصعب حينا بعد حين اللهم الا اذا عرفنا طريق الاعتماد على أنفسنا لنقوّم ما اعوج من حال الزراعة والصناعة والتجارة ونوجهها نحو النموّ المستمر فهى المنبع الذى تستقى منه جميع الحرف الدخيلة

التى اتخذت لها موطنا مختارا فى الميزانية

العلامة السابعة ميل الناس ثانية الى المعيشة الخلوية والاحتراف بالمهن المستقلة

والسبب فى هذا الميل هو الازدحام على أبواب الوظائف وهبوط فائدة المال وعدم كفاية الميزانية بحاجة الامة وقد بدأ الناس يقللون من احتقارهم لتلك المهن التى هجروها لمجرد الاستحسان لا بالبرهان ولتوهم انها دون الرتبة وللنفور من كل عمل يقتضى الكد ويطلب الهمة ويكون صاحبه فيه مسؤولا عنه وسيعودون اليها خاضعين لحكم الزمان . ظهرت هذه الحركة على الخصوص فى الزراعة فقد التجأ اليها اضطرارا عدد من أرباب الاملاك الذين خسروا بانحطاط الزراعة وهبوط فائدة الاموال والتزاحم حول الوظائف الادارية وهم مع ذلك يودون اطالة مدة اقامتهم فى المدن ولكن طبيعة الحال تدفعهم الى الريف وقد انتهى بهم الحال — وكان لا بد من ذلك — فتعودوا على الاشتغال باستغلال أراضيهم التى هجرها المستأجرون أو أضروا بها وصار بعضهم يسكن وسط أملاكه ويقضى القسم الاكبر من السنة فيها ومنهم من أقام فيها نهائيا طلبا للاقتصاد . ومما يدل على تلك الحركة أيضا انتشار الشركات الزراعية وكثرة الجرائد الزراعية والجمعيات الزراعية فقد ظهرت هذه الجمعيات مئآت مئآت فى كل ناحية وكان تأليفها بسعى أصحاب الاملاك الواسعة الذين كانوا فى مبدأ الامر يستخدمونها فى أغراضهم السياسية وتأييد نفوذهم ولكنهم صاروا يتأثرون شيئا فشيئا بذلك الوسط الجديد وأصبحوا يتعرفون مسائل السماد والآلات الزراعية

التي احتقروها الى هذا الحين وانقلبت الجمعية زراعية محضة بحكم الضرورة ومن جهة ثانية فطن بعض أصحاب الأموال الى هبوط أسعار الاطيان لانحطاط الزراعة فعكفوا على مشتري الاراضي لان غلة الاطيان مائلة الى التقرب من فائدة النقود

العلامة الثامنة التشجيعات على الاستعمار

ان قوة الامة في الاستعمار من أدل الدلائل على قوتها الاجتماعية لانها تدل على مالاهلها من الهمة والاقدام والقدرة على الانتشار في الدنيا وهذه الصفة هي التي أصبحت بها الامة الانكليزية السكسونية تهدد من سواها . نعم لايسعنا ان نقول بأن فرنسا دخلت في هذا الطريق حقيقة لانا لانزال نبعث بالعساكر والموظفين أكثر من المستعمرين غير ان من المشاهد حصول التشجيع على الاستعمار والاجتهاد في بيان مزاياه وقد أسست لهذا الغرض شركات وأنشئت جرائد ونظمت بعثات الاكتشاف وصار عدد الذين يهتمون بعلم تقويم البلدان يكثر في كل يوم كأن الفرنساوي الذي ألف بيته أخذ يلتفت الى انه يوجد خارج فرنسا بلاد تمكن الاقامة والمعيشة فيها . ومع اعترافنا بأن ذلك كله لايزال في عالم القوة نرى ان العلامات التي سبق ذكرها تبعث الهمم أيضاً الى الاستعمار وتساعد على نموّ تلك الحركة

العلامة التاسعة سقوط منزلة السياسة والذين اتخذوها حرفة سقوطاً مستمراً

كما ان قوة الامة في الاستعمار دليل على قوتها الاجتماعية كذلك ثقتها

بالسياسة والمحترفين بها برهان على ضعفها وانحطاطها لما فى ذلك من الدلالة على ان الناس يعتمدون على الحكومة اكثر من اعتمادهم على أنفسهم وانهم ميالون الى الارتزاق من الوظائف اكثر من ميلهم الى الكسب من المهن الحرة المستقلة . والذى تطمع فيه الاحزاب بعد انتصارها انما هو التهام الغنيمة أعنى الوظائف فى الحكومة فالاسلاب لمن ظفر ومتى رسخت هذه الافكار فى العقول أبعدت أهلها عن الحرف المستقلة والحرف المستقلة هى التي فيها قوة الامة الحيوية كما ان تلك الافكار تثبط العزائم وتثنى الهمم . وعندنا اليوم من العلامات الصحيحة ما يشير الى ان الفرنساويين بدأوا ينفضون عن أفكارهم غبار هذا الخيال فصرنا نعقل ان السياسة لم تأت لنا بما كنا نرجوه منها وان أملنا قد خاب فى كل صوب فلم ننل حظنا من الحرية والمساواة والاخاء ولم نحظ بحكومة قل مصرفها ولم تخفف عنا ضرائبنا ولم تحصل المسالمة والاحتمال فى الآراء السياسية والمعتقدات الدينية ولم ولم بل رجعنا من اليأس الى قلب الحكومات واسقاط الوزارات واكثر من ذلك تنقيح القوانين وتعديل النظام وأصبحنا وقد اختبرنا كل شئ وصرنا عالمين بما فى جوف السياسة كلها . ومن أجل ذلك تولد هذا الروح الجديد الذى نشاهده وهو زيادة عدد الذين يقل اهتمامهم يوما بعد يوم بالجرائد السياسية المحضة . ارجع الى زمن « الاصلاح » أو زمن « حكومة شهر يوليه » أو زمن « الامبراطورية الثانية » نفسها تر ان كل جريدة سياسية كانت قوة بذاتها يحترمها الناس ويسمعون قولها وكان لصاحب الجريدة قوة كبرى حتى كان أعظم رجال العصر من أصحاب الجرائد ومنهم

من أمسك عليه جريدته فى منصبه وكانت جرائد « ناسيونال » « وجلوب » و « كونستيتيسيونيل » و « االديبا » تقلب الرأى العام كيفما شاءت وتوقد نار الثورة فى بضعة أشهر ان أرادت ولم يكن فى الامة من الجرائد الا السياسة وكانت كل جريدة تشخص فريقا مستقلا من أقسام الرأى العام . ولكن ما أعظم تقلبات الزمان فقد أضاعت الجرائد السياسية قسما كبيراً من سلطانها وقسما اكبر من قرائها وانتقل الرواج الى الجرائد المسماة جرائد الطريق التى أزوت السياسة الى ركن صغير واعتبرتها تشد الخناق على الناس والى الجرائد الاخبارية التي تنقل الحوادث البرقية من غير أن يكون لها رأى في السياسة والى النشرات الموضوعية التى تكتب فى الاعمال وتترجم عن حال المهن والصنائع أو تخدم المنافع المحلية وكان هذا الصنف مجهولا تماما قبل أربعين أو خمسين عاما . ومن علامات ذلك السقوط أيضاً ان المراتب السياسية لم تعد وحدها صاحبة المنزلة الرفيعة والمكانة العالية فى نظر الناس ولم يعد للموظفين من الاعتبار ما كان لهم أيام الحكومات السابقة بل الفرق بين الحالتين عظيم . أين ذلك المدير أيام الامبراطورية الذى ما كان يقع بصر أحد عليه الا وارتعدت فرائصه وتولاه الفزع والاضطراب . أين تلك المحاكم التي عرفناها منذ أربعين عاما حيث كانت كل محكمة اقليم منها أشبه بقديسين تحصنوا فى الوظائف وامتنعوا فى حصون القضاء . لقد أصبحنا شاعرين بان تلك الوظائف أقل ثباتا وأضعف مكانة مما كنا نظنه من قبل وبانها تقيد استقلال صاحبها بسلاسل وأغلال وبانها قليلة الراتب عديمة المكاسب . هذا ولست اذكر فى بياني حوادث « بناما » التي تشمئز لاجلها

من السياسة نفوس الذين هم أقل الناس تقوراً منها

اليوم انكشف غطاء الابهة والجلال الذى كان يغشى الدولة ووزراءها وموظفيها ونعم الحال فالذى تخسره الحكومة يكسبه الافراد والحياة الخصوصية والحياة المحلية وتلك هي الدعائم الحقيقية المتينة التي يشاد عليها بناء الهيئة الاجتماعية وعلى هذا ففى الحال تقدم من تلك الجهة أيضاً

العلامة العاشرة قيام الرأى العام حقيقة ضد سيادة الجندية

ان انتشار الجندية عقبة فى طريق الاصلاح الاجتماعى فانه يضر بثروة الامة ويدفع الشبان الى المدارس العالية فيثنيهم عن الاشتغال بالفنون الجارية والمهن النافعة والذين لا ينجحون في سبيل الجندية لا يكونون أهلا لاعتناق الحرف المستقلة التى تقتضى الهمة والاقدام الذاتى لان تلك التربية أضرت بهذه الملكات . غير انه يمكننا أن نبشر قومنا بان الجندية أصبحت فى انزواء منذ الآن اذ لم يعد للامة قدرة على تحمل اثقالها زمنا طويلا ولان السلم بهذا الثمن أشد ضرراً من حرب تكون وبالا . وقد فرغت خزائن ايتاليا بما أنفقته حكومتها فى هذا السبيل ولا بد لها من الاقتصاد في حربيتها : ولا تزال المانيا وفرنسا تقومان باعباء جيوشهما بغاية الصعوبة وان دام الحال زمنا فانه يضر بحياة الامتين . ولا بد لهذا البرهان المالى من الفوز على أدلة الجندية كلها . على ان أنصار الجندية أصبحوا اليوم يذمون ما آلت اليه وأصبحت أعمالهم تكذب أقوالهم وعلموا ان طول الاقامة فى الثكنات يجعل الاحتراف بغير الجندية صعباً بعيد الامكان ومن أجل ذلك تراهم أسرع الناس الى تخليص أولادهم منها والفائز من وجد له

مهربا من ذلك النظام الذى يقولون امام الناس بضرورته وفوائده . هذا هو السبب فى اقبال الناس على المدارس التي يعفى طلبتها من سنتين فى الخدمة العسكرية منذ صدر القانون الجديد اقبالا حتى صار القاصدون يدوسون بعضهم على أبوابها وفى ذلك من الادلة أظهرها على النفور من الخدمة العسكرية لانها حالة شعرت بها الامة من غير منبه اليها وليس امام الآباء والامهات فى العائلات الكبيرة من المعضلات التي لا ينفكون يلتمسون لها حلا الا كيف ينجو باولادهم من الخدمة المشار اليها وهى مع ذلك أبهى النظامات عندنا . وأما أهل الطبقات النازلة فيخضعون لحكمها وهم يزجرون ويحسدون أهل الطبقات الرفيعة على تخلصهم منها ومتى هرب الناس من نظام وهجره ألصقهم به وأشدهم دفاعا عنه فقد أدركه الضعف وصار منحطا ولا أظن ان نمو الجندية الى هذا الحد يدوم دوام أعمارنا فان لم يكن فينا من سلامة الذوق ما يكفينا مؤنته لقام بتلك الوظيفة عسر الحال من جهة المال ومنفعة العموم

العلامة الحادية عشر سقوط منزلة المشروعات الخيرية

نعم ان المقصد الذى توجد لاجله جمعيات البر والاحسان وجمعيات الاعانة وجمعيات الخير العام من أجل المقاصد واسماها لكنها مضرّة من جهة كونها تجعل الناس يعتقدون بانها كافية لحل المسئلة الاجتماعية مع انها من قبيل المسكنات لا الادواء فهي تخدّر الالم كالمورفين ولا تشفيه . والمساعدة الحقيقية انما تكون بجعل المساعد قادراً على الترقى لا تقديم المعونة اليه ومن هذه الجهة كان البحث على حل المسئلة الاجتماعية بتلك

الوسائل لا تخلو من الخطر

ومن المحقق ان اقبال الناس على هذه الاعمال وتعظيمهم للقائمين بها أخذ فى التناقص لان المساعى التى بذلت فى سبيل ذلك ذهبت ادراج الرياح ودام خذلانها زمنا طويلا وفقد الناس ما كان لهم فيها من الثقة الحسنى وتيسر لهم أن يقفوا على ضعف تلك المساعى المجتمعة مع ماهى عليه من مظاهر القوّة والنجاح لانها ليست فى الحقيقة الا برهانا على ضعف الانسان وأيقن الكل بان رئيس المعمل أو صاحب الاطيان أو مدير المتجر اذا اهتم بامر رجاله أتى بفائدة أكبر مما يأتيه خمسون رجلا من رجال تلك المشروعات فى تحسين حال قوم تشتتوا فى كل صوب وهم لا يعرفونهم وليس بينهم وبينهم أقل رابطة طبيعية فعلية

العلامة الثانية عشرة تدفق المذاهب الاشتراكية

ان العلامات التى سبق ذكرها تدفعنا بلا شك فى طريق غير طريق الاشتراكيين لانها تساعد على نمو الهمة الذاتية وحصر السلطة العمومية . ومن جهة ثانية نرى أعظم الامم تقدما على البقية وهي الامة الانكليزية السكسونية انما حازت هذا التقدم بهمة افرادها فمذهب الاشتراكيين يناقض حينئذ مجرى الاحوال الحاضرة . أما سبب ظهور هذا المذهب من جهة وكوننا اتخذناه دليلا على تقدم الامم نحو الترقى من جهة أخرى فظاهر وبيانه ان التحول الذى قدمنا ذكر علاماته لا يحصل فى أمة بالسهولة من دون أن يضر ببعض المصالح فيها وايلامها ببعض الالم . كان الرجل متعودا على مساعدة أهله وأصحابه والحزب السياسى الذى انتمى اليه

والحكومة وكانت الامة التي يعيش فيها مائلة الى المحافظة على حالتها لا متجهة نحو الترقى وكان التسابق فيها قليلا لضعف وسائل النقل وكل ذلك يؤدى الى بقاء التقاليد كما كانت ودوام وسائل الارتزاق على ماهي عليه . غير ان تسهيل وسائل النقل واتساع نطاق معامل الصناعة على أثر اكتشاف الفحم حطمت جميع تلك الحواجز ومزقت دائرة ذلك الوسط العتيق الذي كان يحتضن الانسان بين جوانبه وأصبح الزارع والصانع والتاجر عرضة لمنافسة جميع الزراع وكل الصناع والتجار فى الدنيا فمن كان من القوم ذا عزيمة وهمة واقدام رأى فى ذلك الحال الجديد تغييراً لا بد منه فى الدنيا واتخذ له منه حظا فاندفع يطلب الزيادة فى الهمة والاكثار من الاقدام ووصل الى درجة من الغنى والقوّة لم تكن لاحد فى حساب . ذلك شأن الامة الانكليزية السكسونية لانها كانت فى مقدمة الكل من حيث همة افرادها واقدامهم ومن ذلك الحين أخذت تنتشر فى ارجاء المسكونة وتهدد جميع الامم الاخرى . ومن كان منهم أقل عزما وأضعف اقداما تولاه الاندهاش وأنّ تحت أثقال الحياة الجديدة ولم يتخذ لنفسه سلاحا من عزمه ولم يتدارك قواه ليقاوم ما أقبل عليه من المتاعب واحتفه من الصعاب بل استسهل النحيب أولا وعمد بعد ذلك الى مناجاة وسطه المتمزق البالى من اهل وأصحاب وحكومة وأمة جريا على سنة اسلافه الاولين ثم التفت تلك الجموع الضالة ببعضها وتداعى المتأخرون والضعفاء وفاقدوا الاهلية الى صعيد واحد فاحتشدوا تحت لواء مذهب الاشتراكيين ومامذهب الاشتراكيين الا صورة من صور روكية الشرق التي أدت باممه الى الضعف والانحلال .

هكذا لما رأت طوائف العمال فى القرن الماضي ان منيتها قد حانت باتساع نطاق المعامل جمعت ما بقي فيها من القوى وقامت تقاوم التقدم الجديد جهدها فأكثرت منها اللوائح وشددت القيود والاحكام التى كانت تحفظ لها احتكار العمل وتحميها من منافسة الاجنبي ولكن ذهبت اتعابها ادراج الرياح كما يعلمه كل واحد منا ونسف التيار الجديد تلك النظامات العتيقة فجعلها نسيا منسيا

أخطأ الاشتراكيون اذ جهلوا التاريخ فجاؤا بمذهب درجت عليه الاعوام وجعلوا يصادمون الحوادث الطبيعية التى تدفع العالم الانسانى فى طريق جديد . ومهما اجتهدوا وشددوا العزائم فانهم انما يزيدون فى قوة البرهان على هذا المصير الجديد الذى تألبوا لمغالبته بما بقي فيهم من القوة كما فعلت الطوائف التى ذكرناها من قبل وأصبحوا على فعلهم نادمين . وليس لمذهب الاشتراكيين فائدة تنتظر الا زيادة الضعف فى نفوس أولئك الذين عميت بصائرهم فأصبحوا يرجون السلامة من منجح لا وجود له الا فى الخيال

ما مذهب الاشتراكيين بجديد يبدو ولكنه قديم يتفانى وعليه فمهما قلبنا الحوادث وغيرنا وجهة البحث فيها لا نستفيد منها غير ان العالم متقدم ونحن معه نحو انماء الهمة الذاتية فى الانسان ولا سبيل للنجاح فى هذه الايام الا بهذا

والآن أسأل ان كان واجبنا اليوم هو فى الاكتفاء بفعل المؤثر الادبى والنداء به نداء مبهما أو فى اننا نقف على حقيقة أحوال المعيشة الجديدة التى

يتوقف عليها رغد الامة لانه ثبت ان المؤثر الادبي وحده لا يقوم بحاجتنا في هذه الازمان وفي اننا ننشر تلك الفضائل الاجتماعية ونداقع عنها لانها دار السلام

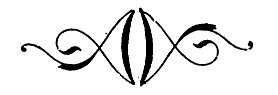
ولا خوف من هذا على المؤثر الادبي ان ينسى وتثقل عليه وطأة نمو الهمة الذاتية واعتماد كل امرء في الحياة على نفسه كما انه لا يخشى من حط درجة الانسان وجعله محبا لذاته واماتة الامل وقتل روح الاحتمال وعاطفة الاحسان وحب الجار فيه فاني لن أفرغ من كتابي الا اذا أسكنت روع القراء مما يخافون

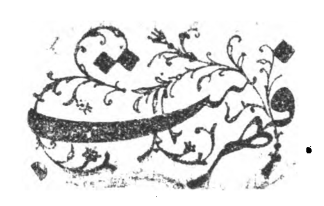
أقول لهم ان ترتيب الحوادث وسير الوجود يرشدنا الى ان الامم التي بلغت فيها همة الانسان منتهاها هي ملجأ الحياة الادبية الصحيحة حيث تثبت الاخلاق وتبقى المحامد . وبيانه ان المؤثر الادبي انما يجعل المرء قادرا على قهر النفس والتغلب على هواها . وليس من درس يتعلم فيه الرجل قهر نفسه وقيادة زمامها أشد فعلا من الحياة الملية التي يتعلم فيها انه لا اعتماد له الا على نفسه . وليس من مرب يأخذ بمجامع القلوب أكثر من تلك الحياة فهي التي تقود المرء الى « الحياة الحقيقية » وهي المدرسة الطبيعية التي تريه كيف يحتمل المتاعب والرزايا وهي الاسهل تناولا والاكثر شيوعا وطلابا . تلك ضرورة أشد فعلا في النفوس من وعظ الواعظين ونصح الحكماء والمرشدين الذين يدخل كلامهم من احدى الاذنين ويخرج من الاخرى ذلك لان الاعمال تدعو الى العمل أكثر من الاقوال

جاء في الكتاب « انك لتنال عيشك من عرق جبينك » حكمة هي

اس القوة الاجتماعية ومبنى الآداب وبها تتمكن الاخلاق ومامن أمة هربت من حكم تلك الحكمة التى تقضى على المرء بالكد والعمل بما تلتمس من الحيل الا انحطت أخلاقها وتأخرت الآداب بين قومها . كذا أهل الجلود الحمر أمام الشرقيين . كذا الشرقيون أمام الغربيين كذا أمم الغرب اللاتينيون والجرمانيون أمام الانكليز السكسونيين

« تم »





صحيفة

الباب الأول

الباب الثانى

الباب الثالث

الفصل الثانى

صحيفة